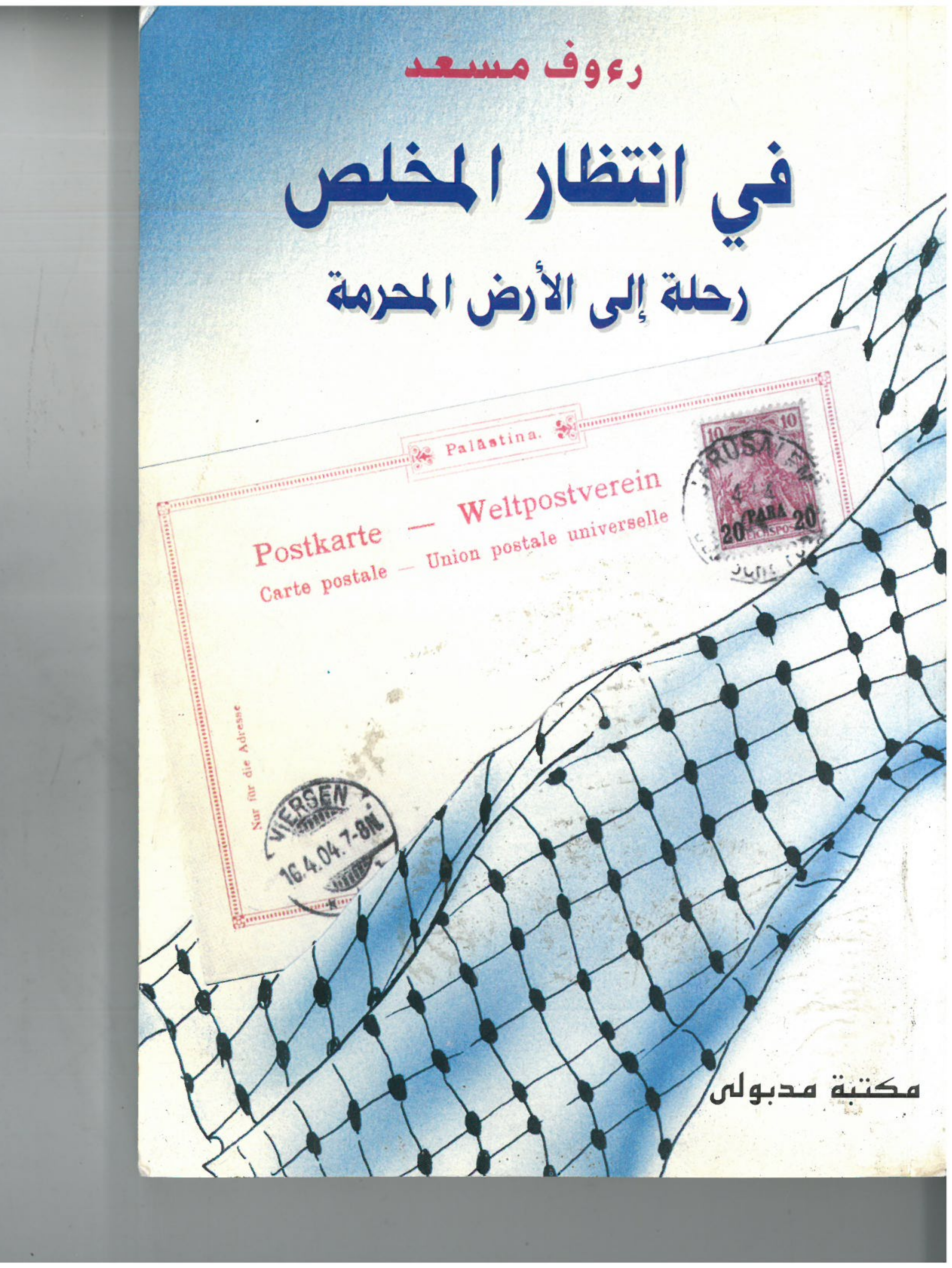

رءوف مسعد
في انتظار المخلص
رحلة إلى الأرض المحرمة
Palästina.
Postkarte — Weltpostverein
Carte postale — Union postale universelle
Nur für die Adresse
VIERSEN
16.4.04.7-8N.
مكتبة مدبولى

الكتـــــــاب : في انتظار المخلص.

تــألـــيـــف : رءوف مسعد

النــاشـــــر : مكتبة مدبولى ـ ٦ ميدان طلعت حرب القاهرة

ت: ٥٧٥٦٤٢١ ـ تليفاكس: ٥٧٥٢٨٥٤

الطبـعـــة الأولى: ٢٠٠٠.

رقــم الايـــداع: ٩٩/١١٤٠٦.

التــرقــيم الدولى: 6 - 275 - 208 - 977

لوحــة الغــلاف : مهداة من الفنانة: فاطمة الطنانى.

رءوف مسعد

في انتظار المخلّص

مكتبة مدبولى

٢٠٠٠

مكتبة مدبولى MADBOULI BOOKSHOP

٦ ميدان طلعت حرب - القاهرة - ت: ٥٧٥٦٤٢١ 6 Talat Harb SQ. Tel: 5 756421

الإهداء

إلى كل الشهداء والمناضلين من كل بقاع الأرض

الذين حولوا الأحلام إلى حقائق

إلى الذين ساروا خطوة واحدة وتوقفوا

وإلى الذين ما زالوا يسيرون

إلى الذين يحترمون حق الاختلاف

رءوف مسعد

استردام - القاهرة

١٩٩٨ - ١٩٩٩

المحتويات

مقدمة

في انتظار البرابرة

ليست هذه المقدمة عن إسرائيل بل عن أمريكا.. وليس هذا الكتاب للتذكرة بجرائم إسرائيل.. ولكن للتذكرة بجرائم أمريكا..

فإسرائيل منذ البداية، وفي النهاية إنتاج أمريكي خالص، وما يزال لتنفيذ الاستراتيجية الأمريكية الإمبريالية العكسرية في منطقتنا.. منطقة الشرق الأوسط.

* * *

للشاعر اليوناني كفافيس قصيدة موحية، بعنوان «في انتظار البرابرة» تقول بعض مقاطعها:

لأن البرابرة سيصلون قريباً، لهذا يجلس حاكمنا على باب المدينة
وقد وضع تاجه على رأسه وصولجانه وثيابه الفخيمة
كذلك فقد اختفى خطباؤنا
لأن البرابرة لا يحبذون جزالة اللفظ
.. .. ..
والآن
لماذا كل هذا التجهم والانزعاج؟
لماذا كل هذا القلق والناس يهرعون ليتركوا الشوارع
ويتكوموا في منازلهم حزانى؟

لأن الليل قد حل.. ولم يصل البرابرة بعد
ورجعوا ليقولوا إن البرابرة ليس لهم وجود..
.. .. ..

والآن
ماذا سيكون مصيرنا في غياب البرابرة؟
لأنهم كانوا على الأقل نوعاً من الحلول لمصائبنا؟!

.. انتظار البرابرة لم يسفر عن شيء
وانتظار المخلص في "فلسطين ـ إسرائيل" لم يسفر عن الآن عن شيء

فالمخلّص الإسرائيلي ينبثق من الأساطير الدينية.. وبالتالي فهو أسطورة

والمخلّص العربي ينبثق عن حالة العجز العربي.. وبالتالي سيأتي كسيحاً.. إن أتى!

وكل هذا بسبب أمريكا

لكن لماذا الحديث الآن عن أمريكا؟

هل لأن المثقف المصري العربي، يهرول "مطبعاً" العلاقات مع الجامعات الأمريكية ودور النشر، بعد أن قاطعها سنوات طويلة منذ سحب تأميم السد العالي، والعدوان الثلاثي، وحربي ١٩٦٧، ١٩٧٣؟

أم أن مثقف ليبيا، وبعدها العراق، والسودان يغيب بسرعة من الذاكرة.. ذاكرة المثقف؟

أم لأن جريان المياه الثقافية في النظام العالمي الجديد، بيننا وبين قتلة الهنود الحمر، وتجار الرقيق، يؤدي بالتالي، وحتماً إلى البحث عن "برابرة" من نوع آخر.. على الحدود، ليحلوا لنا مشاكلنا.. مشاكل ضميرنا الوطني الذي قبض ثلاثين قطعة من الدولارات الفضية ثمن شهداء بحر البقر وأبو زعبل وأطفال ليبيا والسودان والعراق؟

لهذا كانت هذه الرحلة للبحث عن الذاكرة العربية التي شوهتها الانتظارات الكاذبة..

وجاء هذا الكتاب، ليقدم بحثاً تتشابك الجذور الثقافية، جذور الانتظارات.. والبحث عن هويات..

الرحلة كانت بهدف إزاحة التراب عن تاريخ دامي شاركت الولايات المتحدة في صنعه، وشارك بعضنا في الترويج له، وتزيينه، والاحتفاء بالقتلة، والحج إليهم، في الولايات المتحدة الحج الثقافي والسياسي..

والكتاب يجيئ ليقول
ماذا سيكون مصيرنا..
لو أن البرابرة قد وصلوا فعلاً؟!

رءوف مسعد ـ القاهرة ـ أبريل ١٩٩٩

الفصل الأول

رحلة داخل البلاد المحرمة

التحقيق

– هل هذه حقيبتك ؟

-نعم

– وهل جميع ما بها يخصك ؟

-نعم

– وهل رتبتها بنفسك ؟

-نعم

– ومتى كان ذلك ؟

-مساء الأمس

– ومنذ ذلك الوقت لم يلمسها أحد ؟

-لم يلمسها أحد

– وأين كانت الحقيبة طوال الوقت ؟

-كانت في غرفتي

– ولم يدخل أحد الغرفة سواك ؟

-لم يدخل الغرفة سواي

– ولماذا تريد السفر إلى إسرائيل ؟

-لأقوم بعمل بحث للتلفزيون الهولندي

– عن ماذا؟

-عن الحياة هناك

-وهل ستذهب إلى الضفة الغربية ؟

-بالطبع

- وإلى غزة ؟

-بالطبع

- - وإلى أين ايضاً ؟

-إلى كل الأماكن.. إلى الجولان، وإلى الحدود اللبنانية في رأس الناقورة، وإلى الحدود الأردنية، وإلى القدس

- وماذا ايضاً ؟

-سأزور المسجد الأقصى وكنيسة المهد في بيت لحم وكنيسة القيامة في القدس

... البنت المستجوبة شاحبة الوجه، لعلها في الثلاثين من عمرها ترتدي ثياباً سوداء.. جاكت أسود، وبنطالاً أسود، وبلوزة سوداء وحذاء أسود (برقبة) لم استطع تبين لون الجورب..

كنت أنا الذي يجيب على الاسئلة. كنت أجلس على أريكة من الجلد الزائف، في ردهة صغيرة في مطار أمستردام.فخلال خبرة حياة طويلة في الاستجوابات - أنا الشخص الذي يجيب على الأسئلة - تبينت أنه منذ البداية، عليّ أن أستغل دراستي القديمة في المسرح، فالاستجواب ليس إلا عملية مسرحية، يتظاهر كل طرف بغير ما يبطن.

موقفي منذ البداية " أخرجته" بطريقتي - حينما أحضرت معي من المنزل عصاتي التي ينتهي مقبضها برأس إفريقية، اشتريتها ذات رحلة في السودان. ميزة العصا أنها تعطي لحاملها - ومن يتوكأ عليها - وضعاً مرهفاً. أقصد غامضاً أيضاً. فهي الرمز القديم للنبالة (فالعامة لايستخدمون العصي الأنيقة) كذلك فالعصا تعطي الأحساس بأن حاملها "مريض" أو يعاني ألماً في ساقه..

لذا توجهت مباشرة دون أن أسألها إلى الأريكة أياها..وبعد أن

جلست، قلت بصيغة الأمر الواقع "لاأستطيع أن أقف طويلاً" وأشرت بغموض إلى ساقي.

كنت أريد أن أعطي لنفسي إحساساً بأني أنا الذي " أخرج" المسرحية.. على الأقل الجزء الذي يخصني !

وهكذا تعمدت أن لا أقول "وسأزور ايضاً المعابد اليهودية " مع أني قد وضعت زيارة معبد أو أثنين في برنامج الرحلة. كنت بصراحة أريد ان أعطيها الأحساس بأني أتحدث معها من مركز قوة.

لعلها كانت تنتظر أن اقول لها.. " وايضاً المعابد اليهودية" .. ولكني تجاهلتها

- وماذا تفعل ؟(بدأت هي بتكنيك آخر)

- ماذا تقصدين بماذا افعل؟ (ومع أني فهمت السؤال إلا أني أجبت بسؤال آخر)

- أقصد ماهو نوع عملك ؟

- أنا كاتب

- ماذا تكتب ؟

- هل تقرأين الفرنسية ؟

- (بانزعاج) لا

- وهل تقرأين الإسبانية ؟ (بتشفي) كتبي مترجمة إلى هذه اللغات ومعي نسخة في الحقيبة (في الحقيقة كتاب واحد تمت ترجمته..)

.. أشرت بعصاي إلى حقيبتي. كنت قد قررت في آخر لحظة أن أحمل معي نسخة مترجمة من بيضة النعامة إلى الفرنسية، والأسبانية، تحسباً لهذا النوع من الاسئلة التي تم تحذيري منها مقدماً من الأصدقاء

الذين زاروا من قبل فلسطين - إسرائيل.

وحينما اكتشفت أني نجحت في إزعاجها (أو هكذا تخيلت) وتفوقي عليها، وتحولت من سائلة مستجوبة إلى شخص يتلقى الأسئلة ويجيب عليها وأن أكشف - لها - جهلها (باللغات) وأن أثبت لها تفوقي عليها! هي الأوربية..بلغتين أوربيتين، اندهشت أنا شخصياً، من عمق العداء المتأصل داخلي من أي شخص "يستجوبني" .. الدهشة لاستمرار هذا العداء بعد كل هذه السنين !

.. لكنها حاولت من جديد

- بأية لغة تكتب ؟
- بالعربية بالطبع
- وأنت تترجم كتبك ؟
- (بتعال حقيقي هذه المرة) أنا لاأترجم. هناك مترجم متخصص لكل لغة
- وتبيع كتبك في المكتبات (هل تريد أن تسخر مني؟)
- (استفزها بأن أشرح لها بصبر مفتعل، وبطء) أنا لاأبيع كتبي. هذا ليس من شاني.هذا شأن الناشر والموزع
- وهل كتبك المترجمة تباع في إسرائيل؟
- في الحقيقة لا أعرف. لكن في الوقت نفسه يهمني أن تباع كتبي في كل مكان في العالم..
- وماذا عن كتبك العربية.. هل تباع في الضفة ؟
- أتمنى ذلك.

قامت تحمل معها جواز سفري الهولندي والذي به أختام دخول وخروج بالعربية من مطار القاهرة.لاحظت أن رباط حذائها القبيح

"مفكوك" .. ناديت عليها متصنعاً الجدية ولافتاً نظرها إلى هذا. تضرج وجهها (غضباً أو خجلاً؟) وتجاهلتني.

.. أعرف اني، في داخلي، يتنازعني عاملان.أتمنى ان يمنعوني من السفر إلى إسرائيل، فأرجع إلى بيتي، وأكتب ما حدث، وأنهي الموضوع. كنت سأحس براحة من تأجيل موعد المعركة، إلى أجل غير مسمى..العامل الآخر، هو أني بالفعل أريد الذهاب للمرة الأولى إلى فلسطين (وإسرائيل أيضاً) أن اشاهد وأكتب.

لو منعوني سأوفر على نفسي معركة - اعتبرها غير ضرورية - ممن ينصبون أنفسهم ولاة "حسبة" وخاصة من أهل اليسار !فلم يكد يخمد بعد غبار معركة "السفر إلى فرنسا في موسم الاحتفال بمرور مئتي سنة على غزو نابليون لمصر" حيث سافرت إلى فرنسا لسبب شخصي وحيد هو اقتناعي بحقي في اتخاذ قراري. بالإضافة إن "الحملة" التي قامت في مصر ولم تقعد، إلا بعد أن نفذ وقودها - كالعادة - بسرعة.. كانت غير خالية - في معظمها - من الأغراض الشخصية وتصفية الحسابات الخاصة بين المشتغلين بالثقافة بعضهم البعض وبين بعضهم وبين وزير الثقافة الذي قاد من موقعه معركة ساذجة وخاطئة لتبرير " تورط" وزارته في ما أطلقت عليه وسائل الإعلام المصرية "الاحتفال بذكرى غزوة نابليون لمصر" .. ولمّا تكشفت لي أبعاد الحملة المناوئة والتي كدت بسذاجة أن أتحمس لها قررت أن اتخذ قراري بالسفر.. لعلمي بأن هذا النوع من المعارك مفرغ من محتواه.. أو ما يبدو وكأنه "محتوى" وطني. لن أنكر هنا دخول بعض الشرفاء الذين ليست لهم "مصلحة" أطرافاً في الحملة على الوزير وإرهاب كل من تسول له نفسه السفر، ومن يريد كسر هيبة "قرارات المثقفين المصريين الذين أعنيهم" والذين كانوا وما زالوا على

سفر دائم إلى فرنسا ولكنهم "قاطعوها"في هذا الموسم مثل ما يقاطع المدخن المدمن التدخين خلال شهر الصيام !

حملة نابليون، مع كل سوءاتها، فهي مجرد حملة مثل غيرها من حملات ذلك الزمن والأزمنة التي سبقته كانت تهدف الإستيطان والتجارة والربح.. و بالتالي لايمكن التعامل معها إلا بمقاييس عصرها.. هذا ليس تبريراً.. إنه مجرد تفسير. مثل ما ندقق الآن – نحن العرب – في موقف الزعماء والملوك العرب من تلك الأزمة الرهيبة التي واجهتهم عند اتخاذ قرارهم المعروف بالنسبة لتقسيم فلسطين. كانوا مجرد رجال ذلك الزمن.. يبحثون عن ترسيخ مكاسبهم الإقليمية الضيقة والحصول على شرعية لحكمهم من السادة الغربيين الذين قسموا الغنيمة والحدود بعد الحرب الثانية.

الحملة الفرنسية كشفت حجر رشيد، ونفضت الغبار عن تاريخي الذي جهله أسلافي.. تاريخي الفرعوني، وتاريخي القبطي، وتاريخي العربي الإسلامي.. بعد أكثر من خمسة قرون من الظلام التركي – المملوكي الجاهل.. وقبله قرون من تحول مصر من إمبراطورية فرعونية ثم مستعمرة فارسية وإلى حامية هيلينية وبطلموسية، ثم مستعمرة رومانية.. وهكذا حتى وصلنا إلى حكم المماليك من عبيد وخصيان.

لكن هنا ليس مجال سرد تاريخي بقدر ما هو ضروري ومؤلم في الوقت ذاته من مواجهة للنفس.. ومواجهة للتاريخ !

ثم تأتي هذه الرحلة إلى فلسطين – إسرائيل (هذا هو الاسم الذي ارتضيته لنفسي) والمعارك تدور في مصر والأردن حول التطبيع والمطبعين..دون أن يعرف المتعاركون "ماذا يعني تطبيع ؟!" لكنها – أي

هذه المعارك – تأكل الأخضر واليابس، لأن معظم القائمين بها، كما تبين لي، من الحرس القديم من الناصريين والماركسيين الذين فاتهم قطار التاريخ فسقطوا في الجغرافيا ويقوم بعضهم بذات الدور الذي تقوم به الإدارة الأمريكية بمواجهة الشعب العراقي، فبحجة معاقبة صدام حسين (وهي حجة كاذبة لمن تابع سير معركة عاصفة الصحراء) يتم تجويع الشعب العراقي وقتل أطفاله بدم بارد.. هذا من ناحية الغرب أم من ناحيتنا فقد ظهر في الآونة الأخيرة بعض الرحماء الذين أعلنوا تضامنهم مع الشعب العراقي وهذا موقف صحيح لكنه منافق ومتأخر.لأن صدام حسين ومنذ إعلانه "سقوط" الجبهة مع حلفائه اليساريين، قام بقتل الآلاف من العراقيين (بالإضافة إلى الاغتصاب وأساليب التعذيب والإذلال المختلفة) وهناك طبعاً قتله للأكراد بالجملة بواسطة الغازات السامة وزجه بالعراق وموارده في حربين بائستين نتائجهما معروفة. لم نسمع كلمة أو نأمة واحدة عن التضامن مع الشعب العراقي ضد صدام حسين مما ذكرته هنا وهو قليل. ينطبق هذا على المتضامنين مع الشعب الليبي والشعب السوداني وبقية الشعوب العربية.. ليس في مواجهة لا ديموقرطية حكامها.. لكن بمواجهة حصار أحمق وضار بالشعوب المعنية تقوم به بعض الدول الغربية.

كنت قد سألت نفسي حينما وجه التلفزيون الهولندي الدعوة لي "هل هذه الزيارة مهمة ؟"

وفي الحقيقة لم اكتشف أهميتها إلا بعد أن وصلت إلى هناك لكن قراري بالذهاب، كان سببه هو اقتناعي بحقي – مرة أخرى – في اتخاذ قراري، الواثق من صوابه.لم يعد في العمر متسع، أو بقية، لأن يزدرد الواحد ما يعتقد بأنه صواب.. أو حقه في ممارسة الصواب والخطأ، دون

التخوف من الفرامانات لأني مثل – بعض من أفراد جيلي – أنادي بحق الحوار والتعددية (على الأقل نظرياً!)

وهكذا ذهبت عامداً متعمداً إلى مطار أمستردام في الساعة الثامنة من صباح يوم الجمعة الموافق الرابع والعشرين من شهر يوليو "حزيران" من العام ١٩٩٨. متجهاً برجلي إلى المكان الذي يجري فيه التحقيق ؛ أي الصالة المخصصة (بشكل استثنائي) لركاب طائرة العال الإسرائيلية المتوجهة إلى تل أبيب والمفروض أن تغادر بعد ساعتين والتي تحيط بها حراسة مسلحة واضحة، بعكس بقية الأماكن في المطار.

.. وها أنا.. في الواحد والستين من عمري، وبعد ستة عشر عاماً من تسللي من بيروت الغربية ذات فجر كئيب متوجهاً في تاكسي – مع عدد آخر من المتسللين مثلي – بعد أن رتب المبعوث الأمريكي – اللبناني الأصل – فيليب حبيب، مغادرة ياسر عرفات وأركان حربه وقادته و"الشباب" بيروت ولبنان كلها إلى المنافى الأخيرة، في اليمن، والسودان، تونس و اليونان.. وقبرص.

هاانذا سأدخل للمرة الأولى في حياتي أرض فلسطين.. إلى القدس وغزة وبيت لحم ورام الله ويافا وحيفا، وعكا وصفد، والحدود المغتصبة من سوريا ولبنان والأردن.. إلى المستوطنات والكيبوتزات.. إلى أطلال دير ياسين وكفر قاسم.. لكن قبل كل ذلك أرغب في إشباع رغبتي في رؤية العلم الفلسطيني (طالما حملناه علماً واستيكرز وعلقناه على سياراتنا وأبواب بيوتنا ومنافينا) يرفرف مرة أخرى، على ما تطلق عليه الأدبيات السياسية " مناطق السلطة الفلسطينية " .. فأنا مثل الملايين من ابناء جيلي، تابعنا النكبة ثم حرب السويس ١٩٥٦ وهزيمة يونيو حزيران ١٩٦٧ واحتلال قطاع غزة والضفة الغربية والاستيلاء على القدس الشرقية..ثم

ظهور حركة فتح ثم منظمة التحرير الفلسطينية،..المشاوير والتعرجات الطويلة المعقدة المختلفة.. "أقواس" الانتصارات والهزائم..وحرب ١٩٧٣ وكامب ديفيد، والاجتياح الإسرائيلي على لبنان في يونية حزيران ١٩٨٢ وحصار بيروت التي كنت أعيش وأعمل فيها آنذاك.. تدفعني رغبة عارمة، في أن أرى المشهد الأخير. كما يقول أهل المسرح " البروفة الجنرال" قبل إعلان الدولة الفلسطينية على بعض أرض فلسطين، والتي ستكون عاصمتها القدس.. الشرقية !

قبل ذلك ذهبت إلى الفلسطينيين في منافيهم في تونس، والسودان، واليمن. تابعت مع الملايين وفدهم في مدريد، ثم مفاجأة أوسلو وتناقشت مثل غيري.. مع أوسلو وضدها. وشاهدت في التليفزيون استقبال غزة والضفة لأبي عمار و" صحبه " والشباب..إلخ

لهذا شكرت الرب، لأن الدعوة، جاءت من غير جهة اختصاص، كما يقول أهل الحذق..جاءت من التلفزيون الهولندي (الذي اتعامل معه من "خارجه") لكي أرافق المجموعة المسافرة إلى إسرائيل، وأن أشارك بالإعداد لمادة عن ما يحدث الآن، وعن توقعات المستقبل.

..طلبي الذي وافق التلفزيون عليه، من ضمن حزمة من الطلبات أن أقيم في يافا في منزل صديقي الهولندي " فرديناند " الذي يعمل في الأمم المتحدة، في قسم المساعدات للدول المانحة في الأراضي المحتلة.كنت ارغب أن أعيش لمدة أسبوعين، مع فلسطينيين في يافا القديمة، حيث بيت صديقي وزوجته وأولاده..وليس في تل أبيب بالتحديد!

* * *

الفكرة اللئيمة خلف التحقيق والإستجواب – رغم بلاهتها – تفي بالغرض مع معظم الناس. الغرض هو إفهام المسافر وبطريقة فظة، أن التصريح له بالدخول إلى إسرائيل، إنما هو منحة، وليس حقاً. فنوع الأسئلة، وسخافتها لاتعطي الإحساس بالقلق الأمني (وهو ما تحاول إسرائيل التأكيد عليه) بقدر ما تعطي الإحساس للمتلقي، بأن المحقق له الحق في أن يلغوص في خصوصياته، وأن يطامن من كبريائه. فالحقائب الكبيرة والصغيرة تخضع للفحص الألكتروني الدقيق، كذلك أجساد المسافرين عبر البوابة الألكترونية. ثم ينتظر المسافر، حتى ينتهي موظف الأمن الإسرائيلي من فحص الجواز بالأشعة تحت الحمراء (أو فوقها، لاأدري) ليتأكد من عدم تزييفه، يستحضر الاسم في الكمبيوتر ليتأكد من " نقاء" ملف المسافر من كافة الاحتمالات والشكوك التي يجمعها عملاء"الأجهزة " من المصادر المختلفة. إذن فما الداعي لكل هذه الأسئلة حول الحقيبة، ومن أعطاك شيئاً لتضعه داخلها، إلى آخر هذه السخافات الساذجة ؟

الإجابة وجدتها خلال تجوالي هناك

أسبوعان من المراقبة الدقيقة وقراءة الصحف الإسرائيلية التي تصدر بالإنجليزية ومشاهدة " حرس الحدود " يوقفون الدبلوماسيين الأجانب الذين يدخلون إلى غزة، ويتفحصون أوراقهم باستهجان، ويضعون حقائب أوراقهم داخل جهاز الفحص الألكتروني، بل ويرفعون السيارات – حتى التي تحمل أرقاماً دبلوماسية أو أرقام الأمم المتحدة – او السيارات التابعة لكبار العاملين في السلطة الفلسطينية حتى درجة نائب وزير، على الجهاز الهيدروليكي الذي تستخدمه قوات الموانيء والحدود للكشف عن السيارات التي تحمل مواد مخدرة.. (في غزة

يبحثون عن القنابل) ثم التفتيش اليومي الذاتي للمواطن الفلسطيني الداخل والخارج إلى ومن غزة، والاحتكاكات المتكررة من الجنود لحركة سير مواكب الوزراء الفلسطينيين ومنعهم من المرور في طرق معينة، ولا ونفس الأمر يحدث لأعضاء الميديا الأجنبية، رغم الاتفاقيات التي تنص على حق المرور في هذا الطريق بالتحديد، كما رأيت ذلك بنفسي.. كل هذا يصب في التيار النفسي الذي تخلقه إسرائيل، بأنه ليست هناك " حقوق " لأي أجنبي وغير إسرائيلي، حتى لو كان يتمتع بالحصانة الدبلوماسية.إسرائيل تقول للعالم "طز فيكم" أنا فوق القوانين جميعها.

.. وبعد أسبوعين وأنا خارج من مطار تل أبيب حدث معي نفس التحقيق.. نفس الأسئلة تقريباً. لكني اكتشفت شيئاً جديداً أضفته لقائمة اكتشافاتي :

ما أن تدخل المطار حتى تجد نفسك أمام ممرين، تم تحديدهما بأحزمة من البلاستيك.قال لي صديقي الدبلوماسي الهولندي ساخراً " عليك أن تسلك الممر المخصص لغير الإسرائيليين من مسلمين ومسيحيين ويهود.." وحينما رأى دهشتي وعدم فهمي شرح لي ما أراه أمامي

.. فهناك مجموعة من الفتيات تحمل كل واحدة جهاز وكي توكي صغير تهمس فيه. تقترب الفتاة من المسافر وتسأله شيئاً بالعبرية..المسافر "العبري " يجيبها في الحال، فتطلب جواز سفره، لتفحصه بدقة ودربة، ثم توجهه إلى الممر المخصص للعبرانيين.

المسافر – مثلي – يوجهونه إلى الممر الأخر، بعد السقوط في امتحان العبرية، وبعد تفحص الجواز بالطبع، يقاد بحزم إلى الممر الآخر المكدس بالسياح، وبالعمالة الوافدة، وحتى باليهود الذين يحملون جنسية غير

إسرائيلية .

أما العرب الذين يغادرون إسرائيل، ويحملون جوازات سفر عربية، فيتم سوقهم إلى صالة أخرى، حيث يتم تفتيشهم ذاتياً - من باب الروتين والغلاسة -! بالإضافة إلى الأسئلة وتفتيش الحقائب مما يؤدي إلى تخلفهم عن الطائرة.. وبالتالي إلى مزيد من المشاكل المالية والنفسية.

ماذا كان سيفعل بيريز، عند استقباله للسواح العرب الأغنياء الذين سيصدقون نظريته الشرق أوسطية وينهمرون على إسرائيل، وبالتحديد على شواطئها ومنتجعاتها " ومناطق ملذاتها" .. هل كان سيخلق لهم منطقة آمنة خاصة بهم ؟ أقطع - بعد خبرتي القصيرة هناك - بأن خلق " غيتو" خاص بالسياح إياهم .ليست بالفكرة المستبعدة، خاصة بعد ما عرفت غرام أهل إسرائيل بخلق الغيتوهات كاسلوب حياة !

لم أصدق عيني.فقد سافرت إلى معظم بلاد الدنيا، بأنظمتها السياسية المختلفة (عدا جنوب أفريقيا قبل مانديلا).. لكن صديقي الهولندي قال بنفس السخرية " هذا هو نظام الأبرتايد أمام عينيك.فإذا فاتك أن تراه قبل استيلاء جماعة مانديلا على الحكم في جنوب إفريقيا.. فلا تبتئس.. هاهو أمامك "

والأبرتايد لمن لايعلم هو اصطلاح هولندي - جنوب أفريقي أي في لغة " الإفريكانا" معناه الحرفي " كل على حدة " وتم استخدامه سياسياً بعد ذلك ليعني "التفرقة العنصرية "

تذكرت ساعتها، مواقف سيارات السرفيس، والباصات المتجهة من المحطة المركزية في تل أبيب إلى القدس.

نظام " المواصلات " العامة، وحتى التاكسيات، في إسرائيل تطبق الأبرتايد.

المحطات الصغيرة على جانبي الأوتستراد تنقسم إلى قسمين.. الإسرائيليون في جانب "على حدة" والعرب بعدهم بقليل.. وحدهم أيضاً.

وكل " طائفة " لها سياراتها العامة - الخاصة - لها.

الباصات الكبيرة المكيفة الهواء والسريعة لايركبها العرب الذين يسكنون في يافا وضواحيها. هؤلاء لهم ميكروباصات صغيرة مخصصة لهم (عشرة ركاب) وبالطبع تمتلكها الدولة أو القطاع الخاص الإسرائيلي.

وإذا ما علمت أن الباصات هي المواصلات الوحيدة تقريباً لمن لايمتلك سيارة (فالقطارات في إسرائيل شبه وهمية) لعرفت مدى أهمية الباصات، كبيرها وصغيرها، والتاكسيات، والسرفيس، كوسيلة اتصال ومواصلات بين البلاد والقرى بعضها ببعض في بلد كإسرائيل- فلسطين، خاصة وأن هناك أيضاً دائماً " شارعين " طريق المستوطنين، وطريق البشر الآخرين. وكل من الطريقين وخاصة طريق المستوطنين، مغروز بالحواجز العسكرية التي تتفحص حق المرور، للسيارات، والبشر ايضاً.

ركبت مرة دون أدري - ملتحفاً بجهلي - الباص المخصص لغير العرب المتجه من تل أبيب إلى القدس..لم أبال بالنظرات المتسائلة، لكني بعد قليل تنبهت، بأني العربي ألوحيد في باص ممتلىء بالركاب من جميع الجنسيات، عدا العرب !

تحاشى الجميع الجلوس بحواري، حتى جاء جندي شاب وإحتل المقعد، ومعه بالطبع سلاحه.. لم "اهتم" فقد كانت هذه رحلتي الأولى بمفردي من يافا وتل أبيب إلى القدس، حيث ينتظرني جزء من مجموعة التلفزيون الهولندية على المقهى المقابل لنبدأ اول يوم عمل لنا.

التحفت بـ" قوة الجهل " وهو التعبير الذي نحته صديقي أحمد هشام

تعبيراً عن حالات مماثلة. يلخص حكمة هامة : أن الجاهل، أقوى من العارف !

وأنا عائد إلى يافا، نصحني صديق - برفق - أن استخدم الباص الأخر الصغير - حتى أتجنب المتاعب. فهمت الرسالة لكني لم أبال.

عامل البطاقات، في محطة القدس نظر إليّ بريبة. لكنه باع لي البطاقة دون تعليق. فهم يتوقعون أن " ينصاع " اتوماتيكياً كل بني ادم في المكان الذي اختارته له الدولة. وعن تجربة طويلة لهم، فقد تأكدوا من ذلك.. أن لايجرؤ فلسطيني في كامل قواه العقلية على تجاوز " الخطوط الحمراء" .. ولأني كنت أتحادث بالإنجليزية، فأنا (بالنسبة للإسرائيليين) لابد سائح من أمريكا اللاتينية (كما قال لي مرة شخص من بورتوريكو حينما كنت في حي هارلم بنيويورك)..

وهكذا وقفت في مكان انتظار الباص المتجه إلى يافا مع المنتظرين، الذين تجاهلوني.. نصفهم على الأقل من المجندين والمجندات (فالتجنيد إجباري لكل من بلغ الثامنة عشر) يتحركون، دائماً، بأسلحتهم، يخلقون جواً من التوتر المحكوم.. بأن هناك باستمرار ذلك الخطر المتوقع من العرب (الفلسطينيين) أعداء إسرائيل.. (هل تذكرون حادث الجندي الإسرائيلي، الذي انتابته حالة جنون، فأطلق النار على العرب في الشارع ولم يتوقف حتى سيطر عليه الجنود الأخرون ؟) والمستوطنون بالطبع يحملون أسلحتهم جهاراً نهاراً.. وهذا هو ما شجعه حكاّم إسرائيل السابقين، وبالطبع نتانياهو، والمتحالفون معه.

أما التاكسي- الإسرائيلي- الذي له وحده الحق في أن يتحرك بين مناطق السلطة الفلسطينية، وبقية "الدولة " كما يسمونها، فلي معه تجربة أخرى. فذات عصرية كنت عائداً من رام الله متوجهاً إلى القدس لأركب

الباص إياه إلى مقر إقامتي في يافا.

الصديق الفلسطيني الذي اقلني بسيارته، كرر اعتذاره بأنه لن يستطيع توصيلي إلى القدس، لأن سيارته غير مسموح لها بالدخول إلى القدس. سيتركني بالقرب من الحاجز الإسرائيلي على " حدود " رام الله ومن هناك أستطيع أن آخذ تاكسي سرفيس إلى مقصدي.

وقفت أشير إلى التاكسيات حتى توقف لي تاكسي مرسيدس أبيض به ثلاثة ركاب. سألوني بالإشارة إلى اين.. قلت بالعربية "القدس" (فأنا في رام الله!) نظروا إلى لحظة. هزوا رؤسهم وانطلقوا. بقيت واقفاً، أحس بغضب ولم أتبين بعد سخافة الموقف كله. أنقذني فلسطيني. شرح لي ما حدث، وقادني إلى المكان الذي يقف فيه الفسلطينون. كنت أقف في "غيرمكاني " كما قال لي ضاحكاً لكي يخفف الحرج عني.

كذلك اكتشفت أن معظم مقاه تل أبيب،القريبة جداً من يافا بل والمتصلة بها، لايجلس عليها العرب (فلهم مقاهيهم في يافا وليس في تل أبيب) وأنا أحب الجلوس على المقهى لأنه المكان الذي يعطيك بانوراما هادئة وبطيئة لحالة البلد وناسه. بالصدفة ونتيجة لظروف العمل، ايضاً، كنت دائماً اذهب إلى المقهى التل أبيبي مع هولنديين، بالتالي كانت الجارسونة (في معظم الأحيان من الروسيات اوالمغربيات) تخدمني بلا مبالاة.

بالطبع هذا ينطبق بشكل أكثر صرامة، وبجاحة، على المساكن.. فالمناطق السكنية، أو الأحياء العربية، التي لايعيش فيها الإسرائيليون، إلا لغرض سياسي ؛ مثل المتشددين دينياً الذين يستولون على شقة - أو حتى غرفة - في بيت عربي في الخليل أو القدس.. فيضطر العرب في بقية البيت للنزوح أو العيش تحت التهديد.

هناك مناطق مغلقة على اليهود من المغرب، ومناطق أخرى على الروس، ومناطق نائية وفقيرة لليهود الأثيوبيين " الفلاشة "وهكذا..

ذات ليلة اضطررت إلى المبيت في كيبوتز بالقرب من الحدود السورية وعلى سفح جبل الشيخ، - مع مجموعة العمل الهولندية - ما حدث كان صدمة متبادلة لي، وللعاملين في الكيبوتز والسياح الآخرين. فقد كنت الوحيد وسط مجموعة كبيرة من "الأجانب " انتمي بأصولي وشكلي إلى جنس آخر لايقترب من الكيبوتزات وبالتالي لايبيت فيها !كان الأطفال يدورون باندهاش حول مائدتنا، يتأملونني، كما نتأمل في زيارتنا لحديقة الحيوان الشمبانزي وهو يستخدم بذكاء أدوات المائدة ! وقد استمتعت كثيراً - بشكل شخصي - بالتجربة.. لكنى لا أنكر أني تنفست الصعداء في الصباح، حينما استقلينا السيارة وتركنا الكيبوتز.

* * *

سألني الشاب الذي حقق معي في مطار بن جوريون عن الأماكن التي زرتها. فقلت له بصدق وبلا مبالاة، أني ذهبت إلى الجولان ورأس الناقورة، وصفد (مركز الأصوليون اليهود المتعصبون) وعن الكيبوتز الذي قضيت فيه الليلة وعن نهر الأردن والبحر الميت و تل أبيب ويافا وحيفا وعكا وغزة ورام الله والبيرة وبيت لحم والقدس والمسجد الأقصى ومسجد قبة الصخرة وكنيسة القيامة ودير السلطان.. (المتنازع عليه بين الكنيسة القبطية المصرية والكنيسة الحبشية)

.. كرر الأسئلة حول الحقيبة ومن رتبها..الخ

كنت أحس بالتعب، متوتراً. قد دونت ملاحظاتي خلال الأسبوعين

في مفكرتي جيب صغيرتين، وجمعت بعض الوثائق (من أوراق الأمم المتحدة) وقصاصات من الصحف الإسرائيلية والعربية التي تصدر هناك. هذه الأشياء هي رأس مالي، وهي ذاكرتي، أنا الضعيف الذاكرة.يوميات رحلتي، وخواطري، وانطباعاتي.

المصورة الهولندية، كانت تعابثني حينما تراني أكتب في المفكرة، قائلة " لاتتعب نفسك، فسوف يصادرون أوراقك " .. في اليوم الأخير عرض بعض الزملاء من مجموعة العمل أن يحملوا الأوراق بدلاً مني.ورغم الإغراء في العرض لكني رفضته. قررت أن أدافع عن أوراقي بنفسي.. كما كنت أفعل في المعتقل.. زمان!

سألني المحقق في المطار

- لماذا أتيت إلى إسرائيل، قلت له لكي أكتب عنها. نظر إليّ بدهشة غير مصدق.. قلت له موضحاً، أني كاتب، وأني أكتب عن البلاد التي أزورها، عن الناس..إلخ سألني هل " كتبي" معي.. أجبت بالإيجاب. لكنه لم يهتم بأن يراها. ذهب يستشير رئيساً له يرتدي حلة مدنية سوداء (للإسرائليين غرام غريب بالثياب السوداء وخاصة الرسميين والدينيين منهم) ثم عاد ليسألني أن كنت كتبت "ملاحظات " فأجبت بالإيجاب، ورجعت أكرر له أن " هذا شغلي " فأنا في النهاية كاتب. بعد مداولات هامسة مع رئيسه، واختفاء طويل بجواز سفري، أعاد لي الجواز، ووضع " استيكرز " برتقالي علي حقيبتي الوحيدة (طالبني أن افتحها، ونكش بها قليلا ثم اكتفى).

كنت أقول لنفسي، أريد الآن أن اغادر هذا المكان.. أريد أن أرجع إلى مكاني الآمن في أمستردام، ولتذهب الأوراق - إن أخذوها - إلى الجحيم، فسأعتمد على ذاكرتي وعلى الصور الفوتغرافية التي التقطتها،

وعلى الحديث مع مجموعة العمل.

حينما وصلت إلى مطار أمستردام في الفجر وإقتربت من الجندي الذي يفحص الجوازات، قدمت له جوازي.. لم يفتحه..هز راسه، دون أن يفتح الجواز، مومئاً لي بالدخول. وهكذا دخلت إلى أمستردام، دون إحم ولادستور، ثم بالتاكسي إلى شارعي الذي اعيش فيه منذ أكثر من عشر سنوات، وإلى بيتي، الذي لم يضع مني مفتاحه، لكي أتسلق الدرج إلى الطابق الثالث بهدوء حتى لاأوقظ النائمين او افزعهم، ثم إلى غرفتي، ملقياً نظرة سريعة على غرف الأولاد والزوجة.. كل شيء في مكانه المعتاد، وكل واحد من أفراد أسرتي الصغيرة ينام في مكانه امناً

وهاأنا أعود - أيضاً- مرة أخرى إلى أمني ومكاني.

لا بد من القدس

لهذا.. لابد من القدس وإن طال الرحيل
فهو ليس بسفر بقدر ما هو رحيل
ففلسطين؛ عارنا وفخرنا، هزائمنا وانتصاراتنا
فلسطين المتحف الحي لـ "تاريخنا الطبيعي"
"الحلقة المفقودة" في تطورنا.. كيف كنا، ولماذا أصبحنا ما أصبحنا!

إذن فالكتابة مجدداً عن فلسطين رغم كل ما كتب، ويكتب عنها دراسة، ونثراً وشعراً، بكل لغات العالم، محاولة للدخول - مرة أخرى - إلى لوحة الموزايك الحية لتاريخنا، منذ ما قبل التاريخ، وبداياته الأولى، واكتشاف لمتتاليات تاريخية وثقافية.

انظر إلى التكرار الحي للوعة يأس هاجر أم إسماعيل في صحراء القيظ، صدمة خيانة المضارب والعشيرة، المتكررة حتى أيامنا هذه. هاجر المطرودة من كنف سيدها إبراهيم مع رضيعها، ابنه إسماعيل، والذي معناه " سمع الله لي".. طردتهما سارة الزوجة الغيور.

فبعد أن استمع الرب لشكوى إبراهيم (إبرام) حينما قال "ياسيدي الرب ما نفع أن تعطيني وأنا سأموت عقيماً، ووراث بيتي هو إليعازر الدمشقي، ما رزقتني نسلاً وربيب بيتي هو الذي يرثني فقال له الرب: " لا يرثك أليعازر بل من يخرج من صلبك هو الذي يرثك" وهكذا ألهم الرب ساري (ساره) امرأة إبراهيم أن تعطيه جاريتها المصرية هاجر " لعل الرب يرزقني منها ببنين، وأعطتها لإبرام لتكون له زوجة، فضاجع إبرام

هاجر، فحملت.. وولدت هاجر لإبرام ابناً فسماه إسماعيل، لأن الرب سمع.

.. "لوحة إسماعيل بمواجهة أخيه إسحق" بعد أن قرر الرب طبقاً للرواية التوراتية، أن يرزق سارى العاقر، فطردت الجارية وابنها قائلة "اطرد هذه الجارية وابنها، فابن هذه الجارية لا يرث مع ابني" (التكوين -١٦ -٢١)..

والمتأمل للأسطورة التوراتية، يجد، أن ابن إبراهيم من سارة - إسحق - يخدع أخيه عيسو - التوأم - والذي خرج إلى الدنيا قبله بلحظات، فاستحق الميراث حسب التقليد الرعوي القديم.. نجده يخدعه، ويخدع والده إبراهيم، بتحريض من الأم سارة، ويستولي على الميراث.. أقول نجد في مغزى الأسطورة القديم، تفسيراً ميثيولوجياً، ونفسياً، لاحق اليهود منذ أيامهم الهمجية البدائية وحتى الآن.

ففي كتابه القيم " الفلكلور في العهد القديم" يعرض ج. فريزر لمنهج دراسته ورؤيته للعهد القديم.." وقد حاولت في هذا الكتاب أن أسير على هدى الدراسات الفلكلورية متعقباً بعض معتقدات الإسرائيليين القدماء، وأنماط سلوكهم الفكرية والعملية في المراحل الأكثر قدماً وفجاجة، تلك التي تشبه ما نجده لدى القبائل البدائية التي تعيش حتى اليوم من معتقدات وعادات، وإذا كنت قد حققت أي قدر من النجاح، فإنه سيكون من الممكن النظر إلى تاريخ بني إسرائيل في ضوء أكثر صدقاً، وأن يكن أقل رومانسية، بوصفهم شعباً لا يميزه الوحي الإلهي عن غيره من الشعوب الأخرى ذلك التمييز العجيب، بل تطور كبقية الشعوب من مرحلة بدائية يسودها الجهل والهمجية وذلك عن طريق عملية انتخاب طبيعي بطيء.

وقد دفعني الهدف من دراستي هذه إلى أن أنعم النظر بصفة أساسية في

الجانب الأدني من حياة العبريين القدماء، كما تتمثل في العهد القديم، وأن أتتبع آثار الهمجية والخرافة تلك التي تنتشر على صفحاته" (الجزء الأول - ترجمة د. نبيلة إبراهيم - مكتبة الدراسات الشعبية - ١٩٩٨).

لكن هذه الخرافات الهمجية ما زالت تسيطر حتى وقتنا هذا على التفكير والسلوك الديني - السياسي لإسرائيل كدولة وكشعب. أن مجرد التأمل في تسمية الدولة بهذا الاسم يعطينا فكرة جلية عن الميكانيزم الذي يحركها. الاسم معناه في العبرية " غالبت الله والناس.. وغلبت" وأصل الحكاية التوراتية أن يعقوب صارع ملاك الرب.. ذات ليلة ولم يتركه حتى باركه وغير له اسمه (!) "فصارعه رجل حتى طلوع الفجر، ولما رأى أنه لا يقوى على هذا الصراع قال الرجل ليعقوب ما اسمك فقال اسمي يعقوب، فقال لا يدعى اسمك يعقوب من الآن بل إسرائيل، لأنك غالبت الله والناس وغلبت" (التكوين٣٢)..

إن اهتمامي بالاستشهاد هنا بالنصوص التوراتية بقصد التوغل عميقاً داخل العقلية اليهودية - الإسرائيلية.. أي اليهود الذين يعيشون في إسرائيل.. واليهود الذين يتعاطفون ويؤيدون إسرائيل وهم في " أوطانهم" الأخرى. إن التوراة هي "الحجة" الأكثر استخداماً في الصراع السياسي - والعسكري الإسرائيلي مع جيرانها العرب، وهي الحجة الدينية التي تستخدمها إسرائيل من أجل جذب التأييد المسيحي لوجودها.

ولا يفوتني أيضاً الاهتمام بتحديد الاختلاف بين اليهود الذين لا يؤيدون إسرائيل لأسباب سياسية، أو إنسانية، أو دينية، وذلك بإطلاقي مصطلح "اليهودي الإسرائيلي" تمييزاً لهم عن غيرهم ممن أشرت إليهم.. وذلك بهدف فهم عقلية ما زالت تتعامل مع العالم الحديث من خلال نصوص "تنتشر فيها الهمجية والخرافة" لكن هذه النصوص تسير جنباً

إلى جنب مع أحدث ترسانة حربية، توجهها لخدمة مآربها السياسية التوسعية.

إن السرقات التي يقوم بها فرد مثل يعقوب، أو شعب بأكمله، تجد لها مبرراً دينياً؛ بل تتم أحياناً بأمر إلهي مثلما حدث في أسطورة الخروج من مصر.. "... وفعل بنو إسرائيل كما قال لهم موسى فطلبوا من المصريين مصاغ فضة وذهباً وثياباً، وأعطى الرب الشعب حظوة لدى المصريين فوهبوهم ما طلبوا وهكذا سلبوا المصريين" (الخروج ١٢) ونجد أن تعبير السلب المستخدم هنا في النص.. يقدم للمتعبد الذي يتعامل مع النص بتقديس.. يقدم له الشرعية الإلهية في حق السلب!..

ومع أن القصة التوراتية عن الخلق تؤكد إن الله الخالق " صنع الإنسان على صورته" نجد أن إسرائيل تمارس عملياً سياسة التفوق العرقي والعنصري لجنوب أفريقيا أيام حكم الأقلية البيضاء.

وقال الله: " لنصنع الإنسان على صورتنا كمثالنا..

ونظر الله إلى كل ما صنعه فرأى أنه حسن جداً".

إن التعبيرات السياسية والديموغرافية التي تصدم القارىء المتتبع للسياسة الإسرائيلية مثل: أرض إسرائيل، يهودا والسامرة ومثل شعب إسرائيل، وكذلك الصورة المعتادة للمستوطن الإسرائيلي الذي يقف باكياً أمام حائط المبكى شاكاً سلاحه.. هذه كلها أشياء "اعتيادية" في إسرائيل.. أشياء يومية! إن رمز إسرائيل -الشمعدان بشموعه السبع - وكذلك علمها - النجمة السداسية - رموز دينية، ترجع إلى ثلاثة آلاف سنة، تم إخراجها من توابيتها، ونزع الأكفان عنها لتصبح رمزاً وشعاراً للدولة التي اتخذت اسمها أيضاً من أساطيرها الدينية الموغلة في القدم.

على قدر ما سافرت وارتحلت في أرض البشر، وشهدت على أنظمتهم السياسة يميناً ويساراً، لم أر في حياتي - وأظنني لن أر فيما تبقى منها - وضعاً سياسياً وعرقياً مهيناً ومذلاً، من جيش احتلال استيطاني يقوم بتطبيقه.. ينفذه يومياً، وعلى مدار الخمسين عاماً الماضية وحتى اليوم.. بمواجهة أصحاب الأرض الأصليين، كما رأيت في فلسطين. وضعاً لا تكفي "أن تتجاهله" بالازورار عنه، ليختفي! تماماً.. مثلما فعل سيدنا إبراهيم مع ابنه إسماعيل؛ كما تقول الحكاية التوراتية..

فاليوم نجد الذين نزحوا إلى فلسطين، فراراً من اضطهاد مواطنيهم وأبناء بلدهم، ينظرون إلى أصحاب الأرض الأصليين باعتبارهم "أبناء الجارية".. ولا أقول هذا مجازاً.. فكل الأعمال الشاقة في إسرائيل يقوم بها الفلسطينيون (وينافسهم فيها الآن المصريون الذين طالهم قانون أبناء الجارية في وطنهم نتيجة لقانون السوق!) ويجلس صاحب العمل الإسرائيلي والمصري في" التكييف" ويشقى أبناء الجارية، ليحصلوا على "لقمة وهدمة!"..

رأيت العمال الفلسطينين وهم يرجعون إلى غزة حوالي الثالثة عصراً.. رأيتهم في"معزلهم" الخاص، والذي يطلق عليه موظفو الهيئات الدولية في فلسطين - حظيرة البهائم - مبنى مستطيل وضيق مسقوف بالزنك الذي يضاعف من حرارة القيظ ويختزنها ليرسلها مرة أخرى على رؤوس وأبدان المنتظرين في صبر، حتى يتم تفتيشهم ببطء متعمد بواسطة الجنود الإسرائيليين. آلاف من العمال، تتكرر هذه العملية يومياً مرتان. ففي الصباح - كما عرفت - وفي الفجر بالتحديد حوالي الثالثة صباحاً يبدأ

تفتيش العمال وهم يتوجهون إلى " أرض إسرائيل".. تفتيش يستمر ساعات، فحص ممل وبطيء للأوراق الثبوتية والتي على كل عامل فلسطيني أن يحصل عليها.. هذا بالطبع في الأيام التي تسمح فيها الحكومة الإسرائيلية لهم بالمرور.. أما في تلك الأيام التي يتم فيها إغلاق المعابر (كما يسمونها) عقاباً لحجر ألقاه صبي على جندي، أو لمجرد احتمال اندلاع توتر أو اشتباك.

لا يسمح أيضاً بمرور السيارات التي ستقل العمال إلى عملهم، أو ترجعهم مرة أخرى إلى مناطق سكناهم في أرض السلطة الفلسطينية. في الأيام الاعتيادية.. فلا يسمح لهذه السيارات بالعبور ودخول "الدولة" ثمة سيارات على جانبي المعبر يستقلها العمال في غدوهم ورواحهم - بالرغم من أن إتفاقية أوسلو تنص على أن "أرض إسرائيل كلها دولة واحدة".. وتخيل معي، وضعاً كهذا يرافق عاملاً فلسطينياً ستة أيام في الأسبوع.. طوال حياته!

إنهم.. عمال الحدائق، وعمال البناء (وعادة ما يكون بناء مستوطنات إسرائيلية على أرض فلسطينية) ومصانع تعليب الفاكهة والزيتون، ورصف الشوارع، وتنظيفها، وجمع الزبالة، وعمال محطات المحروقات وعمال وعاملات النسيج.. إلخ. الذين دفعوا ثمن مناورات سياسية (أيام حرب الخليج) ليست لهم فيها مصلحة أو علاقة وبالتالي دفعوا الثمن و تم طردهم من منطقة الخليج، استكمالاً لطردهم السابق والتاريخي من بلادهم.

ورأيت العمال الفلسطينيين يعملون في المقبرة العسكرية في القدس والتي تضم رفات "الأباء المؤسسين، وأبطال حروب إسرائيل، رأيتهم، ينظفونها، ويغسلون ممراتها، ويدعمون أحجار قبورها وشواهدها!

ومن المؤلم أن تجد العمالة المصرية " العشوائية" نفسها مخلب قط في حركة الصراع - ونتائجه - بين إسرائيل والطبقة العاملة الفلسطينية، حيث تستخدم إسرائيل العمالة المصرية - بل وترحب بها - لتحل محل العمالة الفلسطينية. عمالة مصرية رخيصة، ومغيبة سياسياً، مطرودة أيضاً من وطنها، تطبيقاً لسياسة الانفتاح التي بدأت بالانتصار التاريخي على إسرائيل في السادس من أكتوبر سنة ١٩٧٣.. شبكة منظمة " خفية" تعمل في صمت، تسحب الفلاحين المعدمين من قراهم والملايين الذين طالهم قانون إرجاع الأراضي الزراعية مرة أخرى إلى الإقطاعيين..

ألا يثير هذا الواقع الغريب، الضحك الذي وصفه المتنبي، في هجائه لحكم المملوك كافور بأنه " ضحك كالبكا"..

وألا يثير هذا أيضاً العديد من الأسئلة حول تدفق العمالة المصرية على إسرائيل، في الوقت الذي يضيق فيه الحصار على العمال الفلسطينين؟!

الحركة الدودية الدائبة للعمالة العشوائية المصرية تزحف على بطنها لا تلوي على شيء، سوى الحصول على اللقمة والهدمة، تتآكل في زحفها، بقايا القيم التي تهرأت منذ ترسيخ نظرية أبناء الجارية! فنحن نعلم جميعاً هذه الحقائق (التي لم تعد مثيرة للدهشة) نعلم أن هناك أكثر من اثنتي عشر ألف " عامل مصري" في إسرائيل وتزعم وزارة العمل المصرية أنها لا تعرف عنهم شيئاً - لسبب بسيط في منطقها الخاص - إذ يقول الوزير بأنه لا يوجد ملحق عمالي في إسرائيل..!

إسرائيل ليست بحاجة أن " تدخل" مصر؛ فمصر تذهب "بقضها وقضيضها" إلى إسرائيل..

أمتلك حجة هامة تدعم قولي هذا.. إن الحصول على تأشيرة دخول إسرائيلية " للمواطن العادي أو السائح العربي" دونه خرط القتاد

استجوابات وتحقيقات لا حصر لها.. فما بالك بمواطن مسكين ليس عنده
حساب في البنك أو عنوان فندق محترم هناك؟.. بالطبع، فإن
"الشبكة الخفية" ترتب كل شيء.. فيتم الحصول على التأشيرة والدخول
بسلاسة.. خاصة أن " العامل الأجنبي" لابد له من الحصول على "كفيل
إسرائيلي" يضمنه، ويرتب له عملاً و" إقامة" قبل الدخول!

وخذ عندك ما نشرته جريدة القدس اللندنية في عددها الصادر يوم
الاثنين -١٧ أغسطس آب - ١٩٩٨ والذي يقول "أن هناك ٢٠٠ ألف
عامل أجنبي في إسرائيل ومعظم العمالة الأجنبية تأتي من رومانيا وتركيا
وتايلاند والفلبين وبلغاريا وجنوب لبنان، وهم يعملون في قطاع الخدمات
والزراعة" .. ويعلّق الخبر على النبأ الذي ذكرته صحيفة يدعوت
أحرونوت، أن رئيس ممثلية إسرائيل في المغرب، كتب تقريراً يحذّر من
ظاهرة تشغيل النساء المغربيات في إسرائيل باعتبار "أن إسرائيل لا تمنح
تأشيرات عمل سوى للنساء المغربيات، علماً بأن الأمر يتعلق بدولة عربية
إسلامية" كما يقول التقرير الذي يضيف بأن وسائل الإعلام في المغرب
تعلّق على هذه الظاهرة بقولها" إن الإسرائيليين يسبون نساءنا".

أود أن أضيف هنا أنه - طبقاً للمعلومات الرسمية - أن نسبة
المغربيات اللاتي يعملن بالدعارة (شبه العلنية) في إسرائيل يصل إلى
حوالي الأربعين بالمائة من العاملات في هذه الحرفة التي تنافسهن فيها
الروسيات بنسبة مماثلة تقريباً!

إن غرس "القيم الثقافية الإسرائيلية" في وجدان آلاف من العمال
والعاملات المصريين واللبنانيين والمغاربة الذين تدفعهم نظرية أبناء الجارية
للعمل في إسرائيل.. يتم بشكل يومي وبدون مجهود يذكر. أبسط هذه
"القيم" هي أسطورة النقاء العرقي.. التي تجد أرضاً خصبة بين البسطاء

والمتعصبين المصريين (باعتبار أنفسهم مصريين من نسل الفراعنة، ولا
علاقة لهم بالعرب!) والأسطورة " الثقافية" الأخرى.. إدخال الدين في
النسيج السياسي اليومي للمواطن وللدولة.. التبرير الديني لقيام دولة
إسرائيل وذبح الفلسطينيين.

كيف يستقيم أمر هؤلاء الناس (العمالة العشوائية والدعارة) وكيف
ستكون علاقتهم بوطنهم، وقيمهم، وهم يعملون كخدم، ومومسات في
دولة ما نزال نحن، وما تزال هي تتعامل معنا ونتعامل معها باعتبارنا
واعتبارها "العدو".

وهل باستطاعتهم، وهم في هذا الوضع تلقين أولادهم مبادىء
الكبرياء وحب الوطن، والاحترام الذاتي؟!

أن هذا النوع من " التطبيع" قائم بالفعل ويجري يومياً، وبشكل منظم
ومنتظم، تحت سمع وبصر " من يهمه الأمر"

فإذا انتقلنا إلى نقطة أخرى، داخل حركة الصراع الدائبة بين
الفلسطينيين والإسرائيليين، نجد أن الشيء المثير هو، حجم الصمود
الفلسطيني - الشعبي - بمواجهة الغاصب، لانتزاع لقمة العيش، وبمحاولة
متواصلة للحافظ على الكرامة الشخصية والكبرياء الإنساني الموروث،
حتى في أحلك الظروف والمواقف.. كبرياء رب الأسرة، الذي يحافظ
على شرفه، ويحمي عرضه، ويسعى بلا كلل، وبدون تذمر، للبحث عن
لقمة الخبز حتى لو كانت في " حنك السبع" كما يقول أولاد البلد في
مصر. الصمود أمام التفتيش اليومي المهين والإغلاقات المفاجئة للمعابر،
وهجوم المستوطنين وهم يحملون أسلحتهم المرخّص بها من الدولة -
على العمال والصبية الفلسطينيين، وهدم البيوت بالجرارات.. إلخ

للمرة الأولى في حياتي، أفهم هذا التعبير في تطبيقه على

الواقع.."حنك السبع". فهمته وأنا أراقب الفلسطينيين وهم يعبرون الحواجز الإسرائيلية المسلحة - من الجيش أو من المستوطنين المتعصبين - أو يتسللون خلف الأسوار الشائكة، ومن خلالها ليواصلوا سعيهم في الحصول على خبزهم وكرامتهم، التي يريد الإسرائيليون - أيضاً بلا كلل - تحطيمها.

خذ عندك - مثلاً - وضع البحر بالنسبة للصياديين في غزة، داخل منطقة حظر التجول التي فرضتها إسرائيل على غزة منذ اندلاع الانتفاضة! وليس البحر فقط، بل والشاطيء أيضاً.. حيث كان الجنود يقومون " بتسوية" رماله كل يوم قبيل الغروب، ليكتشفوا آثار الأقدام - المتهورة! - إذا ما تجرأت.

إن مجتمعاً - كغزة - يشكّل الصيادون نسبة كبيرة فيه، لا يستطيع أفراده ممارسة حياتهم الاعتيادية من نزول إلى البحر بالقوارب التي حدد لها المحتل مساحة حركتها، وحدد لها ساعة عودتها مرة أخرى قبل الغروب.. إلخ. هذا المجتمع كان يواجه يومياً "سباعاً" مختلفة!

هنالك فهمت - على أرض الواقع - لماذا هلل الفلسطينيون، بمحاولات صدام حسين البائسة والطائشة، بقذف إسرائيل بالصواريخ. تلك كانت رغبة عميقة وإنسانية في " تنفس الصعداء" ولو لفترة قصيرة ووهمية حينما ظنت الضحية أنه من الممكن الحصول عليها، أن تزيح ولو مؤقتاً غاصبها الذي يجثم على صدرها.

خذ عندك أيضاً، القيود التي تفرضها إسرائيل - الآن - على المنتجات الزراعية الخارجة من أرض السلطة الفلسطينية. حيث يتم توقيف الشاحنات على المعابر انتظاراً لتفتيش بطيء بشكل متعمد، قد يتأخر لعدة أيام، عن عمد، حتى تفسد البضاعة! في الوقت ذاته نجد أن إتفاقية أوسلو

تؤكد حق المصدّر الإسرائيلي في "أولوية" تصدير بضاعته، واحتكاره العملي لكل ما تستورده منطقة السلطة!

في رواية جون شتانبيك "أفول القمر" يطلب القائد الغازي والمنتصر من عمدة البلدة، المهزومة، أن يقنع العمدة الأهالي بالتعاون مع الجيش الغازي لحفظ النظام في البلدة المنهزمة.. لماذا؟ يتساءل العمدة. فيجيبه القائد عن قناعة تامة: لمصلحتهم.

يقول القائد" إن واجبك كعمدة أن تجعلهم ينفذون الأوامر الصادرة مني وبالتالي يحافظون على أمنهم".

فيسأله العمدة " فلنفرض أنهم لا يرغبون أن يعيشوا في أمان"؟

بلد الانتظارات المؤجلة

.. في جدول الشروح الخاص بالكتاب المقدس طبعة "دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط عام ,١٩٩٧. في لبنان "نجد الشرح التالي مقابل كلمة السبت":

"سابع أيام الأسبوع. تفرض فيه الشريعة الراحة الكاملة والانقطاع عن كل عمل. وهو يوم مكرّس للعبادة، فيه يجتمع اليهود في المجامع لقراءة الكتاب المقدس والصلاة والتعليم الديني"

حينما لامست عجلات الطائرة القادمة من أمستردام، أرض المطار، صفق الركاب الأسرائيليون (يستطيع الواحد التعرف عليهم من المعاملة المتميزة منذ اللحظات الأولى) بينما صدحت ميكروفونات الطائرة بالنشيد الوطني (كما عرفت فيما بعد) الذي يقول :ها نحن أحضرنا السلام معنا!

ثم فجأة إنزاح كل ذلك الأدب وتلك الرقة، ليتدافع الركاب وهم يصخبون باتجاه باب الطائرة، ليركضوا بعد ذلك، وهم يحملون حقائب اليد الثقيلة والعديدة، إلى قاعة المطار. حيث وقفوا بصبر نافذ، يتبادلون الملاحظات بشكل حاد.

قال لي واحد من مجموعة العمل، زار إسرائيل قبل ذلك عدة مرات، أن الإسرائيليين، خشنون في التعامل حتى مع بعضهم البعض، وأن اليهود المتشددين دينياً يقفون على ناصية الشوارع، يشتمون أبناء جلدتهم، يلعنونهم (لاحظت أنا أن هذه عادة يهودية قديمة منذ عهود أنبيائهم الغابرة)

لمحت لافتة ضخـمة بالإنجليزية، معلقة في مكان بارز، مكتـوب عليها "في إنتظار عـودة ريمون أراد".. وهو الطيار الذي تطالب إسـرائيل به، او برفاته من حزب الله اللبناني.

وهكذا.. تنتظر إسرائيل رفات مقاتيلها، تتسلمها من أعدائها.

وينتظر "رجال أوسلو "في السلطة الوطنية الفلسطينية، قيام إسرائيل بتنفيذ التزاماتها التي تتنصل منها منذ سنوات، بعد أن فات ميعادها..

ينتظرون من أمريكا، أن تحن عليهم وتقسو على إسرائيل.

وتنتـظر "حمـاس "الفشل النهائي لأوسلو، لتبرر مـشروعية المقاومة المسلحة ضد إسرائيل..

في الوقت ذاته تنتظر حـماس أن تفرج السلطة الفلسطينية عن نشطاء حماس القابعين في سجون السلطة..

وينتظر جورج حبش الذي يعاني المرض العضال أن تسمح له إسرائيل أن يلقي نظرة وداع على وطنه.

وينتظر جزء كبير من شعب إسرائيل، ظهور"المسيا - المخلّص" الذي سـيحكـم ألف سنة، ثم يعلن نهـاية العـالم، وستكـون هذه الألف سنة "خـلاص " شعب إسـرائيل من خطاياهم ومضطهديهم، وازدهار وقـيام "صهيون الجديدة "على يد نسل داوود..

و هناك انتظارات قصيرة نسبياً: انتظارات عند الحواجـز الإسرائيلية العسكرية للدخول أو الخروج..

انتظارات في المطارات التي تأخذك إلى إسرائيل أو تخرجك منها.

أمـا الانتـظارات التي ليست لـهـا نهـاية فـهي انتظارات الفلسـطيني

الحصول على إذن بالبناء أو ترميم ما تهدم.

وانتظار عـدل القـاضي الإسـرائيلي الذي سـمح لأجهـزة التـعـذيب الإسرائيلية أن تواصل "عملها "في جسد الفلسطيني وروحه...

* * *

حـينمـا كنت في الطائرة في طريـقي لفلسطين- إسـرائيل، قـرأت في صحيفة الهـيرالد تريبيون - الطبعة الأوربية، تفاصـيل عملية تبادل - طال انتظـارها - بين إســرائيل وحـزب الله اللبـناني. تبـادل رفـات الجندي الإسرائيلي "أثمار إيليا "مقابل عودة ١٦ اسير لبناني بالإضافة إلى رفات ١٦ شهيد من بينهم ابن الشيخ حسن نصر الله رئيس الحزب.

لفـتت نظري الطقـوس الدينيـة - العسـكرية التي صـاحبت رفـات الجندي الإســرائلي: فقـد تعرّف على الرفات - حـسب تعبـير الناطق باسم الجيش - الحـاخام الأكبـر للجيش الإسرائيلي والذي يحـمل رتبة ميـجور- جنرال. وقد ظهـر في الصورة يرتدي ثيابه العـسكرية. وقالت الصحيـفة، كيف أنه رافق وفد الصليب الأحمر الذي عـمل كوسيط بين الجانـبين، وأنه قام - بمفـرده - بأداء الطقوس الدينيـة على الرفات بـعد "التعرّف " عليه.

قاد الحاخام الأكبر للجـيش، الميجور جنرال موكب الهبوط من الطائرة، موكب عـسكري، حتى مدافن الأسرة، وأظهـرته الصورة يرد على التحـية العسكرية، بتحية عسكرية. حكاية إرجاع الرفات - أو العظام - لما يسمى توراتياً وسـياسيـاً ايضاً بأرض إسرائيل، لهـا جذور عميـقة في الميثلوجـيا

الإسرائيلية، مع العلم أن الديانة اليهودية الأصولية لاتؤمن بالقيامة أو البعث أو يوم الحساب.وترى هذا واضحاً في التاريخ الرعوي القديم للقبائل الإسرائيلية. وحينما وافت المنية - يوسف - في أرض مصر نجد هذا النص التوراتي.. "وقال يوسف لإخوته :حانت ساعة موتي. والله سيذكركم بالخير ويخرجكم من هذه الأرض. حينما يذكركم الله بالخير خذوا عظامي من هنا "(التكوين ٥٠-) و نجد "كاتب "التوراة يتذكر رجاء يوسف بعد مئات السنين عندما "يخرج "بنو إسرائيل من مصر فيقول "..وأخذ موسى عظام يوسف معه.. لأن يوسف قال لبني إسرائيل محلفاً: الله سينقذكم يوماً فأخرجوا عظامي من هنا معكم " (الخروج ١٣-)

وهكذا حينما رأيت صورة الحاخام الأكبر - الميجور جنرال مرتدياً ثيابه العسكرية ومؤدياً التحية العسكرية؛ ذكرني هذا باستمرارية ميثولوجيا "جيش الرب "ورب الجنود "التوراتية، والمزج بين الكاهن.. والقائد العسكري، وهو التقليد الذي بدأه خليفة موسى "يشوع بن نون "الذي عرفته صفحات التوراة بقسوته الدموية، وقتله للأسرى..الخ.

بل إن التاريخ التوراتي يقرر أن الملوك الاوائل لبني إسرائيل، تم اختيارهم شخصياً بواسطة الرب، الذي أرسل نبيه "صموئيل "ليمسح بالزيت المقدس، أول ملك يهودي، وقائد عسكري وهو شاوول، ثم الملك الثاني والقائد العسكري ايضاً داؤود، وكان كل منهما يقوم بوظيفة الكاهن الأكبر أيضاً.

ومن هنا جاءت كلمة "مسيح الرب "وهو في الأصل اصطلاح يهودي ميثولوجي - ديني- استعارته الديانة الوليدة الجديدة من رحم

القديمة اليهودية - وأطلقت على نفسها اسم المسيحية، وقبل ذلك النصرانية (من الناصرة التي ولد فيها المسيح : بيت لحم - الناصرة..) باعتبار ان يسوع، عيسى بن مريم هو ايضاً مسيح الرب..(المسيا- المخلص المنتظر) في اللغة العبرية.

ونجد في إسرائيل المعاصرة، التي بعثت نفسها من الشتات، والتي تريد تكرار "المملكة القديمة "نجد هذه الحالة التوراتية الميثولوجية المتداخلة بقوة في النسيج اليومي للحياة، حينما ذهب نتانياهو - بصفته رئيس الوزراء -حينما كنت هناك - ليلتق بما أسماه هو الفوج الأخير من المهاجرين الفلاشا الأحباش، فيما أطلقت عليه الدولة اسم عملية "إكسيدوس "وهو الاصطلاح اليوناني الذي يعني توراتياً "الخروج "

مجرد إطلاق هذه التسمية التوراتية على مجموعة من المهاجرين اليهود الأحباش، يكشف المحاولات الدائبة "لتكرار "التاريخ التوراتي لليهود.

"الخروج "اصطلاح توراتي لسفر موجود في "التوراة "اليهودي و"الكتاب المقدس "المسيحي عن أسطورة "خروج "بني إسرائيل من مصر!

ولاننسى أن اليهود "انتظروا "أربعين سنة في الصحراء قبل أن يدخلو "أرض الميعاد "لأن الرب غضب عليهم فقرر أن يتيهم في الصحراء.. كما تقول التوراة!

لهذا فإن الميثيلوجيا الدينية الخاصة بانتظار "المسيا - المخلّص "يجب رؤيتها في إطارها الصحيح ؛ التاريخي والديني، والثقافي ايضاً بالطبع، حيث أفرز هذا الاعتقاد طائفة دينية كبيرة تطلق على نفسها اسم

"المسياتيين " يعيش معظم أفرادها في إسرائيل وعدد أخر في الولايات المتحدة وأوربا الشرقية.. في حالة الإنتظار !

الأمر المثير للدهشة هو التناقض الموجود بين طوائف المسياتيين.فقد اصدر الحاخامات القدامى تفسيراً لأسطورة بناء الهيكل الثالث جاء فيه ".. لهذا فإن شعب إسرائيل، المشتت بين الأمم، سوف يقيم من وسطه رئيساً، هو المسيا- المخلص ابن داؤود، العائش وسطهم في منفاهم، وسيقودهم إلى أرض إسرائيل بموافقة ملوك الأمم ومساعدتهم "وهكذا يمكن القول أن بناء الهيكل الثالث سوف يتم بموافقة غير اليهود.

فطبقاً للإسطورة التوراتية، فإن بناء الهيكل الثالث (الهيكل الأول بناه سليمان، ثم تم تدميره بواسطة نبوخذ نصر ملك بابل بعد الاستيلاء على أورشليم – القدس في يونيو- تموز٥٨٧ او ٥٨٦ قبل الميلاد) وبهذا زالت من الوجود دولة اليهود في فلسطين بعد حوالي اربعة قرون فقط ثم سماح ملك فارس، كورش (بعد هزيمة بابل على يد الفرس والاستيلاء على إمبراطوريتها).. لليهود بالعودة المشروطة بالخضوع لفارس. وهكذا تم بناء الهيكل (الثاني) في العام ٥٣٨ ثم حدث التدمير النهائي للهيكل وتشتيت اليهود خارج فلسطين على يد القائد والإمبرطور الروماني "تيتوس "سنة سبعين ميلادية، وتمت التصفية النهائية لليهود حينما حاولت بقايا اليهود في فلسطين الثورة التي قمعها الروماني هاريدان بعنف دموي.

وحسب التنبؤات اليهودية، فإن شرط بناء الهيكل الثالث مرتبط بظهور "المسيا – المخلص "

مع حالة انتظار "المخلّص "ظهرت الثقافة المصاحبة لها ثقافة "الي-

ياه "وتنطق إلياه. تعني الصعود إلى أرض إسرائيل.والصعود هنا مجازي ومعنوي.فالمجاز باعتبار أرض إسرائيل، مقدسة و سماوية، يصعد الطالب إليها، بينما تعتبر طائفة أخرى أن أرض إسرائيل هي "جبل سانت كاترين "في سيناء.. (جبل حوريب أو جبل سيناء) وهو جبل الشريعة، الجبل المقدس الذي التقى فيه موسى وجهاً لوجه بالله.. كما تقول التوراة. "الانتظار "هذا يشكل جزءاً هاماً من الفكر الديني اليهودي رافقهم خلال حوالي ألفي سنة من الشتات، بل كان هذا الفكر.. انتظار "المخلص "الذي سيعود بهم مرة أخرى إلى الأراض المقدسة هو الذي جعلهم يتحملون الشتات مثل ما يتحمّل السجين سنوات سجنه الطويلة وهو يعلم بأنها لابد أن تنتهي يوماً متكللة بانتصاره على سجانيه !

ومع أن فكرة المسياتية تتناقض بالأساس مع الدعوة الصهيونية السياسية (التي اتخذت اسمها من الفكرة الدينية المرتبطة بجبل صهيون المقدس عند اليهود الذي تقول التوراة إن الملك داؤود بنى مدينته فوقه) إلا أن الفكرتين تمكنتا من إيجاد حل براغماتي للتعايش بينهما رغم تناقضهما الأساسي.

يقول البروفيسور سبيرلنج وهو أستاذ العقيدة اليهودية بالجامعة العبرية.. "أثناء حروب إسرائيل الحديثة مع جيرانها العرب كان المسياتيون يصلون ويبتهلون أن ينصر الله إسرائيل على أعدائها بالرغم أنهم يرفضون من الأساس فكرة قيام دولة إسرائيل قبل توفر الشروط الخاصة بظهور "المخلّص"

ونجد في منتصف القرن الخامس عشر أن موجة من الهجرة الجماعية إلى فلسطين من يهود "قشطالة "في إسبانيا ظهرت بمقابلها تحذيرات

قوية دينية من مفسرين يهود للتوراة، تطالبهم بالرجوع. وتقول الرسالة الموجهة من رؤساء الطوائف في سراقوسا إلى زملاءهم في قشطالة "قامت مجموعات كبيرة العدد من الناس وقليلة الأهمية بالرحيل إلى أرض إسرائيل.. ولا نعرف سبب هذه الحماقة الكبيرة.. لهذا نطالبكم، بالعمل على إرجاع هؤلاء الناس، ولاتجعلونهم يتعجلون "النهاية " (يقصد هنا نهاية العالم بظهور المخلّص).. ونحن نصلي بأمل عودة "السيد " إلى صهيون وحينئذ سوف يتبعه جميع شعب إسرائيل ويصعدون إلى هناك ليشاهدوا السيد إلهنا في بيته الذي اختاره "

ولكن مع بداية النصف الثاني من القرن السابع عشر، بدأت مجموعات كبيرة من يهود شرق أوربا تحاول "الاستقرار "في فلسطين وكان واحد من أهم الشخصيات الداعين للاستقرار في فلسطين هو الرابي يوداه-الحسيد (الذي اتخذ أتباعه بعد ذلك لقب الحسيديين) وجاء هو وأتباعه تسوقهم حمى "المسيا المخلّص ".

وقد رأيت "الحسيديين "ا لذين يتخذون الآن سمتاً صوفياً، بل إن "مشايخهم" تقام لهم الموالد والاحتفالات مثلما تقام عندنا في بلادنا. المدهش أن اشهر هؤلاء الحسيديين قدموا من شمال إفريقيا من المغرب وتونس والجزائر.وقد رأيت ذات ليلة في تل أبيب حلقة راقصة كبيرة تضم الناس من جميع الأعمار من الجنسين، يرقصون على "ابتهالات" شيخهم الحسيدي على قارعة الطريق، على الكورنيش وتضيء المكان كشافات كهربائية من سيارة الطائفة الحسيدية المرسيدس - فان، والمجهزة بمكبرات الصوت. بل ان معظم الباصات التي تعاملت معها (الإسرائيلية) الحكومية تجد صورة - فوتوغرافية- للشيخ الحسيدي معلقة بمواجهة

السائق. كنت ساعتها استرجع ظاهرة انتشار الآيات القرآنيةفي مصر، وشعارات "ياناس ياعسل ابو محمد وصل " أو "ياناس ياشر كفاية آر" وما فيش حد أحسن من حد !

ولأن الموضوع أثار اهتمامي لذا نقبت وسألت وحصلت على بعض المراجع و "الأوراق "التي استخدمتها في كتابة هذه المادة وخاصة دراسة للبروفيسور "أفازير رافتزكي "بعنوان :الميسيانيزم، والصهيونية، واليهودية المتشددة.

كذلك فإن من الملاحظ أن الميديا العالمية والعربية لاتعط إهتماماً كافياً بـ "الحالة الدينية "في إسرائيل، رغم أهميتها على الساحة السياسية المحلية والعالمية، وتقدم الميديا صورة اليهودي المتشدد دينياً "في صورة أحادية فقط.. صورة المستوطن المسلح بالبندقية الأتوماتيكية، صورة إيجال أمير الذي اغتال رابين، (وهو بالمناسبة طالب في مدرسة دينية، واستفتى واحد من الحاخامات بإعطائه فتوى بقتل رئيس الوزراء) أو صورة طلاب المدارس الدينية وعلى رأسهم الطاقية السوداء وهم يرشقون الفلسطينيين بالحجارة..

وبالطبع صورة الوزراء الدينين في حكومة نتانياهو.

جميع هذه الصور أحادية، فبجوار هؤلاء، نجد الحسيدي، وهناك "حراس الهيكل" الذين يطالبون بإزالة دولة إسرائيل..الخ

لكن بين هذا وذاك.. بين اليهودي -الإسرائيلي بعقائده المتنوعة وصوره المختلفة، وبين الفلسطينين..فلسطين الـ٤٨، وفلسطين الشتات، وفلسطيني مناطق السلطة الوطنية.. سنجد ايضاً الفلسطينيين بكل طوائفهم و "قبائلهم "السياسية وانتماءاتهم القطرية والدينية.

سنجد أن فلسطين، المكان، تستحق لقب الأرض المقدسة، كما تستحق في الوقت نفسه وعن جدارة لقب أرض النزاعات والشقاقات.. هذه الشقاقات والنزاعات الناجمة عن حالة الانتظارات الطويلة التي لاتبدو لها نهاية.

ذات عصرية وجدت نفسي، في كنيسة القيامة، في مدينة القدس القديمة. قادتني الغريزة - الوطنية - إن جاز التعبير إلى الجزء المخصص للكنيسة القبطية المصرية.كنت قد قرأت قبل ذلك عن الصراع بين الكنيستين القبطيتين، المصرية، والحبشية على دير متنازع عليه هو "دير السلطان "تقول الكنيسة المصرية إنها تملكه منذ مئات السنين وأن الرهبان الأحباش الذين كانوا يعيشون في القدس استولوا عليه. ووصل النزاع بالطبع إلى الحكومات، والمحاكم الإسرائيلية ايضاً. وكان واحد من الأسباب الهامة التي أعلنها البابا شنودة في رفض الكنيسة القبطية المصرية السماح للحجاج المسيحيين بزيارة القدس (بالإضافة للأسباب الوطنية والسياسية الأخرى).. وهكذا وجدت نفسي أتحدث مع الراهب المصري المكلف بالرعاية الدينية لـ "الكنيسة "الصغيرة المقامة- كما قال لي- فوق الجزء الحقيقي من قبر المسيح.

لم يخف الراهب دهشته من وجود مصري، في كنيسة القيامة، ولّما قلت له إني أعيش في هولندا وأني انتمي بحكم الميلاد للكنيسة البروتستنتية المصرية (لاحظ بالتأكيد عدم معرفتي بالطقوس المعتادة أثناء زيارة الأماكن المقدسة) وقال لي ضاحكاً أنه الآن يستطيع تفسير وجودي في الكنيسة و "جهلي ! "

حكى لي بطريقته البسيطة أسباب النزاع على الدير وقال إنه أثناء وبعد

حرب سبعة وستين، اضطرت الكنيسة القبطية لسحب الرهبان المصريين من القدس، وسلمّت الدير "أمانة " للرهبان الأحباش، خاصة أن الكنيسة القبطية أيامها كانت الكنيسة الأم بالنسبة للكنيسة الحبشية و كان البابا المصري، يحتفظ بلقب بطريرك الكرازة المرقسية، وبابا الكنائس الأثيوبية..لكن المياه التي جرت تحت الجسر بعد ذلك، واستيلاء منجستو هيللا ماريام على الحكم في أديس ابابا، جعل الكنيسة الحبشية "تستقل" عن المصرية.. وبتحريض من إسرائيل، استولت على دير السلطان.

وقال لي الراهب، إنه بالرغم من صدور حكم للمحكمة الإسرائيلية - حديثاً - بأحقية الكنيسة المصرية في دير السلطان، لم يسلّم الرهبان الأحباش الدير للمصريين، بموافقة صامتة من الحكومة الإسرائيلية التي ترفض تنفيذ الحكم كما يجب!

وبالطبع قمت بزيارة دير السلطان، الذي يفتح في ساعات محددة للزوار.

هذه حالة من حالات "الشقاق "الديني، بين أبناء الدين الواحد، والملة الواحدة، فما بالك بالشقاق بين اليهود والمسلمين في الخليل، حول زيارة قبر "إبراهيم الخليل "الذي يقدسّه المسلمون ويعتبرونه أيضاً جدهم الأكبر ! وهكذا تمت "قسمة "القبر المزار. وهل ننسى المجزرة التي قام بها يهودي متعصب من المستوطنين في الخليل بقتل المصلين المسلمين في المزار.. المسجد هذا المتعصب الذي أصبح قبره - مزاراً - من اليهود المتعصبين من جميع أنحاء إسرائيل !

وحينما أردت أن أذهب إلى الخليل لم أستطع بسبب الإجراءات الأمنية، حينما قام يهودي متعصب آخر (عمره ١٨ سنة وطالب في

المدرسة الدينية بالخليل) بالهجوم ببندقيته الأتوماتيكية – للمرة الثانية خلال شهر واحد – على الفلسطينيين في الخليل والذين يشكلون الأغلبية المطلقة، وقتله – للمرة الثانية أيضاً – فلسطينياً كان يبيع الخضار على عربة يد!

والنزاع بالطبع لايقتصر على المتعصبين الدينيين اليهود حول أحقية الوصول إلى مزار أو مقام مقدس. أنه اسلوب حياة هناك في الأراض المقدسة، مما يصيب الواحد بحالة من الإحباط المستمر. والمتتبع للمناورات التفاوضية الإسرائيلية يلمح هذا الأسلوب بوضوح أسلوب التمسك بكيلومتر هنا وبنصف كيلومتر هناك.. مثل التمسك بمستوطنة الخليل التي لايزيد عدد سكانها عن مئات قليلة وسط بحر زاخر من الفلسطينيين يبلغون أكثر من نصف مليون!

أسلوب الحياة هذا الذي، يقسّم الشوارع : شوارع للمستوطنين وشوارع للبشر الآخرين.. أرقام وعلامات سيارات ؛ تلك المسموح لها بدخول المناطق (مناطق السلة الفلسطينية) وتلك الممنوع عليها دخول القدس !.. حواجز ثابتة ومتحركة لضبط كل هذا.

حينما كنت أتجول في مدينة القدس القديمة، كنت أحس بحالة الإحباط هذه تستولي عليّ، وأنا أرى الجنود الإسرائيليين المدججين بالسلاح وبأجهزة الكشف عن المتفجرات، يتمركزون في مناطق تقاطعات الشوارع الصغيرة والأزقة الضيقة، يشيعون حالة من التوتر، القابل للانفجار في أية لحظة. تجدهم حول المسجد الأقصى وعند حائط المبكى، عند الكنائس والمزارات المسيحية والإسلامية.

وضع جال حمدان إصبعه على ما أطلق عليه "نفسية الجيتو "حينما

يقول في كتابه (شخصية مصر) ".. فقد تعين في حالة إسرائيل أن تصبح حدودها هي جيوشها وجيوشها هي حدودها " ويقول في كتابه (اليهود).. «ومع ذلك وعلى الفور نفهم أن نظرية العزل السكني، هو قانون اليهودي في المدينة. فطوال عصور التاريخ وفي كل بلاد العالم ارتبط اليهود كقاعدة بلا استثناء في حي خاص بالمدينة ... الجيتو "كما يقال له في بلاد أوربا الغربية أو حارة اليهود كما يقال له في مصر، أو "الملة "كما يقال له في مدن المغرب العربي، او "القاع "كما في مدن اليمن»

وأستطيع أن أضيف تفسيراً بقولي: نتيجة، لوجودهم الفعلي والمحسوس في السلطة للمرة الأولى منذ حوالي ألفي سنة، فإنهم طوروا الجيتو، وجعلوه أسلوب حياة، لهم وللفلسطينيين ايضاً الذين يعيشون بين ظهرانيهم. تجده كإسلوب معماري – الأسلاك الشائكة الكهربائية التي تحيط بالمستوطنات، بالإضافة إلى البوابات الحديدية والجدران العالية.

تجده في اسلوب بناء الكيبوتز، الذي يتضمن داخله، المخابيء تحت الأرض، ومخازن الغذاء،والتطبيق العملي للاكتفاء الذاتي تحسباً للحرب. جزر منعزلة مسورة.. قلاع مسلحة، مثل قلاع العصور الوسطى، تضم الجندي والتاجر والمزارع داخل أبوابها، التي تغلقها ساعة الخطر، ويقف عليها في الأيام العادية الحراس يدققون في الداخل والخارج.

طبقوا الجيتو أيضاً على غزة، وعلى "المناطق "الفلسطينية دخول أو خروج بتصاريح.. كل تصريح يحمل رمزاً وعلامة ولوناً خاصاً.. هذا طبعاً بالإضافة إلى "منافذ " الدولة ذاتها، التي ليس لها حدود دولية معترف بها.. فهناك على امتداد مئات الكيلومترات المنتزعة من أراض الأردن ولبنان وسوريا، تنتصب الأسلاك الشائكة المكهربة وأبراج المراقبة

الالكترونية، تعبرها الدوريات المسلحة وتراقبها من أعلى طائرات الهيلوكبتر العسكرية.

أما في البحر، فالزوارق والسفن والغواصات الحربية بأنواعها فوق الماء وتحته تراقب، وترصد.

بل إنهم مدوا من "حدود الجيتو "ليصل إلى إفريقيا. إلى إثيوبيا وأرتريا باعتراف صحيفة معاريف الإسرائيلية التي نشرت معلومات في هذا الصدد في طبعتها الإنجليزية.

بالرغم من أن العالم المسيحي يعتقد أن "المخلّص "بالفعل قدجاء في شخص المسيح "النبي اليهودي الذي رفضه اليهود " فإن العديد من الطوائف المسيحة الهامة، تؤمن بما يسمونه "المجيء الثاني للمسيح " ليحكم أيضاً - بالعدل - ألف سنة " !وقال لي الملاك..وحق الرب الإله الذي يوحي إلى الأنبياء أرسل ملاكه ليكشف لعباده ما لابد من حدوثه عاجلاً. ها أنا آت سريعاً"(رؤيا يوحنا٢٢)

علماً بأن يوحنا هذا كان من تلاميذ المسيح وسجل "رؤياه "منذ حوالي ألفي سنة !مبشراً الناس بالانتظار الذي رأى أنه لن يطول أما أنا فقد انتظرت طويلاً منذ أن شاهدت وشهدت على "خروج " الفلسطينيون من لبنان انتظرت أن أرى العلم الفلسطيني ولو على جزء صغير من أرض فلسطين.. غير مكتمل التحرير، هذا العلم الذي تحول إلى ملصق صغير.. "فلسطين عربية "

لقد انتظر الفلسطينيون حوالي نصف قرن ليستطيعوا، أن يرفعوا علمهم مرة أخرى على جزء من أرضهم.

وها انا أرى "فلسطين عربية "بعد طول انتظار!

سأقتبس هنا فقرات من كلمة لمحمود درويش، ألقاها في ندوة أقامها إتحاد كتاب فلسطين في جامعة بير زيت تحت عنوان "عالم جديد لرؤى جديدة "في أواخر آذار مارس الماضي، بمشاركة عدد من الكتاب العالميين (مجلة الكرمل العدد ٥١ السنة ١٩٩٧)

عنوان كلمة درويش "مرثية سلام لم يولد بعد "

يقول "ليس السلام النبيل هو الذي يسقط مضرجاً بدمائه على هذه الأرض، فهذا الوليد الجميل لم يولد بعد "ويقول أيضاً في موضع آخر " .. ومن هنا يرتبط سؤال تحررنا الوطني، بسؤالنا الثقافي.. وهنا يتجلى الأثر التدميري المتواصل للاحتلال المستمر.. لن تتمكن الثقافة الفلسطينية، على ما يبدو وفي حقبة سلام إسرائيلي كاذب من الانفصال عن تاريخية ثقافة المقاومة.. التي ترتبط بالبحث عن إعادة تشكيل الهوية "

ويتحدث محمود درويش عن دوافع "الغياب "التي حدت بالكثير من المثقفين العرب إلى مقاطعة هذه الندوة "فكل فرد يختار طريقته الخاصة في التعبير عن تضامنه مع السجناء وطريقته الخاصة في مقاومة السجّان، ولكن على الكاتب العربي الفلسطيني أن يعلن أنه لم يشأ ولا يشاء، ولن يشاء أن يكون جسراً للقاء العرب بالإسرائيليين.. كما أتفهم دوافع الأشقاء العرب والأصدقاء الأوروبيين وغيرهم ممن حضروا إلى هنا ليعبروا عن تضامنهم مع المحاصرين الفلسطينيين.. إن من غابوا غابوا من أجلنا، ومن حضروا حضروا من أجلنا.. "

وهكذا ينتظر الفلسطينيون - ونحن معهم - السلام الذي لم يولد بعد!

باب دمشق المقدسي

دخلت القدس من باب دمشق.

ولباب دمشق معي علاقة خاصة.

عثرت ذات يوم بين أوراقي على "كارت بوستال "باهت بعض الشيء، يسيطر على ألوانه الباهتة، اللون الأخضر الباهت أيضاً، ومكتوب عليه بأربع لغات - ليس من بينها العربية، أو العبرية - "باب دمشق. حقوق الطبع محفوظة الإخوة سانافاتي، بيت لحم، الأردن "والكارت مطبوع في الولايات المتحدة الأمريكية.

واحتفظت بهذا الكارت لأسباب غامضة، لسنوات طويلة، وخاصة أثناء حملات التنظيف التي أقوم بها - مضطراً - بين وقت وآخر للتخلص من الأوراق التي تتراكم عندي.

وبقي الكارت، أنقله بين البلاد التي أتنقّل بينها حتى استقر معي في هولندا.

وحينما قررت السفر إلى فلسطين، تذكرت الكارت، وأخرجته من بين الأضابير، وضعته فوق مكتبي، على وعد مني - له - أن أرجع إليه، حين أوبتي!

ما أثار انتباهي في الكارت، وحرصي عليه، هو العنوان الذي يقول "بيت لحم، الأردن "

والمتتبع لتاريخ الحروب الغابرة والمعاصرة، قد يفوته أن ينتبه إلى "بيت لحم "ووضعها القديم أو الحديث على الخرائط، فبيت لحم ليس سوى

قرية صغيرة مثل عشرات القرى المشابهة في فلسطين والأردن وسوريا و لكنها دخلت التاريخ لسبب خارج عن إرادتها :لأن السيدة العذراء مريم، ولدت المسيح هناك، في حظيرة للبقر، كما تقول الحكاية..

أما القدس فقد نالت "تاريخها" من وضعها الجغرافي الخاص، ومن موقعها العاطفي المرتبط بتاريخها، وتاريخ الشعوب والأديان التي تقدسّها وتتخذها قبلتها.

وهكذا وجدت نفسي، أدخل القدس من باب دمشق، بدون ترتيب مسبق، إو اتفاق، بل لسبب، جغرافي بحت، يتعلق بشبكة الشوارع المفضية إلى مدخل المدينة القديمة، والتي لابد، ان تأخذك، وتقودك، وتدخلك إليها عبر باب دمشق.

ساعتها تذكرّت صديقي المهندس أحمد هشام، الذي يعلّق على جدار مكتبه في الدقي، ملصق كبير بعنوان "أبواب القدس" وسأذهب إليه - حينما أرجع إلى القاهرة - ونتأمل سوياً الملصق وسأرضي رغبته، ورغبتي، في الحديث عن القدس وفلسطين، فقد ذهب أحمد هشام أيام الدراسة في كلية الهندسة، في تلك السنوات - سنوات تأجيل الحرب في بداية عهد السادات بسبب الضباب، كما ادعّى - ذات يوم إلى ألاردن، ليشترك مثل غيره في استرجاع فلسطين.. التي لم يرها حتى الآن.

* * *

كنّا قد اتفقنا، في مجموعة العمل التلفزيونية، أن نزور القدس مرة قبل

جولتنا الكبيرة الموسعة في المنطقة، ومرة أخرى - أو مرات - بعد الانتهاء من الجولة.

هذه هي الزيارة الأولى للعديد منا ما عدا الزميل الذي جاء منذ زمن ليعمل متطوعاً في الكيبوتز، وألقت به الأقدار بعد ذلك في إسرائيل ليعمل مراسلاً صحافياً وإذاعيا للصحافة الهولندية، قبل أن يختار العمل التلفزيوني. لهذا نصبنّاه دليلاً ومرشداً لنا في تجوالنا، لمعرفته بالمنطقة ولمعرفته أيضاً بالعبرية التي تسهّل بعض الأمور.

واليوم.. هذه رحلتي الأولى لوحدي، من تل أبيب إلى القدس. كنت قد أتيت بالباص (الذي لايركبه الفلسطينيون) من تل أبيب، بعد أن أوصلني صديقي الدبلوماسي الهولندي، من يافا حيث نقيم، إلى تل أبيب، فمحطة الباصات المركزية- هذا إسمها - وتركني لمصيري! ولأن الباصات، واحدة من أهم وأسرع طرق الاتصالات في إسرائيل، وفي أراض السلطة الفلسطينية أيضاً، فلابد من التوقف عندها قليلاً.

المحطة المركزية للباصات في تل أبيب، أكبر بكثير - لأسباب تاريخية وسياسية - من تلك التي في القدس وخاصة أن تل أبيب كانت العاصمة الإدارية والسياسية لإسرائيل حتى عام ١٩٦٧ . ولأن الباصات وسيلة الانتقال الأساسية (يوجد خط قطارات بطئ بين القدس وتل أبيب.. مرتان في اليوم) فلذلك تكتسب الباصات أهميتها.

نتيجة لهجوم "الانتحاريين "الفلسطينيين على الباصات تعززت الحراسة عليها، وعلى المحطات، فأصبح الباص قلعة صغيرة متحركة.. على اتصال مستمر بالراديو واللاسلكي، مع غرفة عمليات مركزية، كما توجد حراسة مسلحة داخل الباص، واضحة للعيان.. بالإضافة للمراقبة

المسلحة داخل المحطات وعلى مخارجها مدعمة بكاميرات تليفزيونية، ونقاط تفتيش متحركة وفجائية، حتى بالنسبة للباصات المحلية داخل المدينة ;مثل ما حدث، في المرة الثانية، عندما استقليت الباص – المحلي – من شارع يافا، المتوجه إلى محطة الباصات، لأجد الباص يتوقف فجأة على مدخل المحطة المركزية، ويقتحمه شخص يرتدي الثياب العسكرية ومعه "ووكي توكي "ويتمعّن في الركّاب ويختار شخصين (رجل وإمرأة في منتصف العمر) ويقول كلمة واحدة آمرة ليتبعانه وقد امتقع وجهاهما. لم يعلّق واحد من الركاّب. وحينما سردت الواقعة بعد ذلك على العارفين ببواطن الأمور، قالوا لي إن ما حدث إجراء روتيني في نطاق سياج الأمن الإسرائيلي ضد الفلسطينيين..

من الملاحظ أيضاً ان جنود الجيش، يتحركون بكثرة، وبكثافة بواسطة الباصات وهم يحملون أسلحتهم، حتى وهم في طريقهم إلى بيوتهم، ومعسكراتهم أو العودة منها.

.. بالطبع لم أكن أعلم – ولا حتى صديقي – أن ثمة سيارات سرفيس مخصصة(للعرب) تطبيقاً لنظام، كل طائفة على حدة ! لهذا حينما توجهت إلى البنت التي تجلس في الاستعلامات أسألها – بالإنجليزية – عن موقف باصات القدس، لم أفهم نظرتها المتسائلة المندهشة، لكنها أعطتني المعلومات الضرورية وأرشدتني أين أشتري بطاقة الباص. وقد فعلت كل هذا، بنية سليمة وبريئة، ويبدو أن جهلي ببروتوكلات السفر والحياة في فلسطين أنقذني.

في الباص، كنت أنا المندهش، حينما رأيت الركّاب يتجنبون الجلوس بجواري، حتى أتى جندي ومعه سلاحه، واحتل المقعد المجاور. لعل الأمر

تم كله بالصدفة، هكذا قلت لنفسي، لكن لم أقل ذلك لنفسي في المرة الثانية حينما أصبحت خبيراً بمحطة الباصات وبالمواعيد وتحركت بخبرة داخل المحطة، واستقليت الباص المتجه للقدس ليجلس بجواري جندي بسلاحه..الخ !

وهكذا من محطة الباصات الرئيسية، في القدس، وبالسيارة المؤجرة، توجهت مع الزملاء، لزيارتي الأولى للمدينة القديمة. فالمدينة الحديثة، لاتثير الإنتباه، فهي تشبه عشرات المدن الأخرى، تلك التي تدعّي لنفسها أهمية العاصمة الحديثة. هي بالفعل "حديثة " إذا ما طبقت عليها مقاييس المدن التاريخية الأخرى المجاورة، مثل دمشق، مثلاً.. لذلك كانت حركتنا فيها مهدّفة باعتبارها "معبراً " إلى المدينة القديمة، التي لاتتجاوز مساحتها – التاريخية – كيلومتراً واحداً مربعاً !

طبقاً للتعداد الرسمي الأخير (الإسرائيلي) فقد ازداد النمو السكاني والعربي في القدس الشرقية (القديمة) بنسبة تسع وعشرين في المائة ؛ فقد كان عددهم عام ١٩٦٧ هو مائتين وست وتسعين ألفاً ليصبح اليوم ستمائة وثلاثين ألفاً.

وطبقاً لهذا الإحصاء فإن نسبة الخصوبة العربية زادت بمقدار ٤,٩ في المائة مقارنة باليهود الذين زادت نسبة خصوبتهم بمقدار ٣,٦ في المائة (إحصاء الجامعة العبرية).

ويقول نفس الإحصاء إنه في العام ١٨٦٠ كانت مساحة القدس داخل جدران المدينة القديمة كيلومتر مربع واحد، وبعد ما يقرب من مائة سنة اي بعد حرب ١٩٦٧، أصبحت مساحة "القدس االإسرائيلية " ٣٨ كم (هذا هو تعبير الجامعة العبرية !) والقدس "الأردنية "كانت مساحتها ست

كيلومترات، لتضمها إسرائيل بعد ذلك متجاهلة قررات الأمم المتحدة.. وضامة إليه أراض اخرى من الضفة الغربية المحتلة ولتصبح مساحتها - الحالية، مائة وثمان كيلومترات مربعة!.. وطبقاً للجامعة العبرية أيضاً، ضمت حكومة رابين في العام ١٩٩٣ - خمسة عشر كيلومتراً، من أراض الضفة الغربية المحتلة!

لكن ما يعنيني هنا هو المدينة القديمة التي تضم المزارات المسيحية والإسلامية المقدسة، و"الحائط الغربي " الذي تقول إسرائيل إنه جزء من حائط هيكل سليمان، ونطلق عليه نحن اسم حائط المبكى.

والحقيقة لم أر أحداً يبكي بجواره أو عليه.. إنه حائط سياحي تماماً مثل حائط برلين، يطل على باحة واسعة، يقسمها حاجز يفصل بين النساء والرجال.

وحينما أتيناه وجدنا أنفسنا، نقف في صفين أمام جهاز كشف المفرقعات الألكتروني.. صف للرجال وآخر للنساء. أمامي كان يقف إسرائيلي بثياب مدنية لكنه يحمل بندقيته. تفحص الجندي الذي يراقب الجهاز، ورقة يبدو أنه تصريح حمل السلاح. سمح له بالمرور بسلاحه.

تتوافد أفواج السياح ومعهم آلات التصوير، ويحيط بالحائط الجنود المدججون بالسلاح، ويلتصق به بعض اليهود الذين يرتدون الثياب السوداء، يقرأون صفحات من التلمود ويهتزون إلى الأمام وإلى الخلف..

تحيط بهم العلامات الإرشادية بعدم التدخين (التي تنص على : خاصة يوم السبت والأعياد الدينية).

من الناحية الأخرى من الحائط، يوجد النفق الذي - كما يقال - استخدمه رجال داوود في الدخول خلسة إلى المدينة. إنه نفق وخاص كان

يستخدم لنقل المياه إلى المدينة. عبرنا فيه، ليأخذنا إلى الجانب المقابل.

في اليوم السابق، كنّا في جولة سريعة على المستوطنات التي تقع في حزام مدينة القدس. وقفنا على ربوة مرتفعة، ورأيت قبة مسجد الصخرة تضوي في ضوء الشمس، وبجوارها قبة مسجد الصخرة.

هو شعور مقارب لذلك الذي أحسسته، حينما، ركبت مع غيري السيارة الجيب من معتقل الواحات الغربية في طريقنا إلى أسيوط ومنها إلى القاهرة ليتم الإفراج عنّا. فمع أنها نفس السماء، وذات الأرض التي كنت اشاهدهما بملل طوال سنوات المعتقل.. بدت لي السماء يومها شديدة الاختلاف، كأنها مصنوعة خصيصاً لهذه المناسبة. مصنوعة للحظة الحرية هذه.. خصيصاً.

أوقفنا السيارة في باحة ضاجة تطل على باب دمشق."موقف" السيارات الفلسطينية الأهلية التي تأخذك إلى الضفة الغربية.. إلى جزء من الأراض "المحررة ".. أراض السلطة الفلسطينية (ثمة موقف آخر للسيارات الأهلية التي تذهب إلى تل أبيب).

تحيط بالباحة فنادق (عربية) بسيطة لعلها نجمة واحدة ! وتحتها دكاكين عربية تبيع البقالة والمياه المثلجة معلق على أبوابها أجهزة تليفون، قديمة، وسوداء، للاستخدام التجاري (تماماً مثل الأحياء الشعبية في القاهرة) ومقاه ومطاعم صغيرة متناثرة تبيع الشواء والشاورمة والفلافل ليس للفول الشهير شعبيته المصرية !

أدلف إلى باب دمشق، وقلبي يدق!

هاانذا في المدينة الأشهر في العالم !

أجد نفسي في ما يشبه الخان. خان الخليلي، أو الموسكي.. وسوق

الحميدية. لا عجب، فأنا في مدينة عربية، أنا في قلب سوقها الشعبي الضيق المزدحم الذي يعج بالروائح والأصوات. أرضه من الأحجار الكبيرة التي "نعمّتها "مئات الآلاف من الأقدام التي خطت عليها. الآلاف من الخيول التي دقت بسنابكها فوقها، وامتزج صهيلها بوقع سيوف فرسانها وصيحاتهم.

باب دمشق يقودك هبوطاً عبر درج حجري إلى مجموعة من الممرات الرئيسية (نحن لانتحدث عن شوارع هنا)..ممر الشيخ ريحان الذي يفضي بك إلى درب صغير متعارض هو "المئذنة.. الحمرا "وممر آخر هو "سوق خان الزيت "المتقاطع مع درب "الآلام "الذي تقول الحكاية الإنجيلية إن المسيح صعد فيه حاملاً صليبه إلى مكان الصلب وليس هناك تأكيد أركيولوجي لهذا. لكن "هذا "جزء من السحر الخاص بالمدينة.

درب الآلام يحمل أيضاً اسماً لاتينياً هو "فيا دولوروسا "وخلف درب الآلام تقع كنيسة "الروح القدس ".. هذه منطقة "الحي المسيحي " شرقي المدينة القديمة ويكاد يلتصق بحائطها الشرقي. به مجموعة من الكنائس أشهرها كنيسة القيامة، التي تعلوها كنيسة ودير السلطان المتنازع عليها بين الكنيستين القبطية المصرية والقبطية الحبشية.

نهاية الحي المسيحي تجد "باب يافا "ينطلق منه دربان صغيران : درب داوود، ودرب بار السلسلة. جنوبي باب يافا تجد الحي الأرمني، وإلى الشرق منه "الحي اليهودي“ وجنوبه باب صهيون.

باب السلسلة يفضي - مثل مجموعة أخرى من الدروب - إلى المسجد الأقصى، ومسجد قبة الصخرة، وإلى الشمال من المسجدين تجد كنيسة "الجلد" التي يقال إنها بنيت في الموضع الذي تم فيه جلد المسيح

بالسياط قبل صلبه. ومنها إلى الشمال وعلى مسافة بسيطة يقع "الحي الإسلامي -"كما تسميه الخارطة - !الذي يفضي إلى باب هيرودس وهو الوالي اليهودي، نائب الحاكم الروماني الذي عاصر ولادة المسيح، وكانت تعيش في قصره "سالومى "ابنة زوجته التي اشتهرت برقصها الحسي وكافأها هيرودس - على براعتها في الرقص - بأن استجاب لطلبها، وقدم لها رأس النبي يوحنا "المعمدان "على طبق ! (من يذكر ريتا هيوارث وفيلم رقصة الأقنعة السبع؟!)

وفي الطرف الشرقي من الحي الإسلامي تقع كنيسة "القديسة آن" القريبة من الباب الشرقي "باب السباع "وتحيط بالمدينة - خارج السور - مجموعة من الشوارع الرئيسية: أشهرها من الشمال، شارع صلاح الدين، الذي يتقاطع مع شارع السلطان سليمان الذي يحيط يالجدار الشمالي الشرقي للمدينة، ليتقاطع مع شارع أريحا المفضي إلى أريحا..

بعض أجزاء السور مهدمة، والبعض الآخر تم ترميمها، وبعضها بقي على حاله محتفظاً بقوته في مقارعة الزمان.هنالك مجموعة من الحفائر، تقوم بها "هيئة الآثار "الإسرائيلية في محاولة محمومة لإثبات "يهودية " المدينة. مثل الحفائر في قرية سلوان الفلسطينية في الجنوب الشرقي من المدينة القديمة، بعد أن تم هدم القرية الفلسطينية تماماً بحثاً عن "مدينة داوود.'.

إن الذكر الوحيد في التوراة لـ"مدينة داوود "نجده في "سفر صموئيل الثاني "وفي سفر"الملوك الأول "يؤكد وجود مدينة اسمها أورشاليم بهذا الاسم قبل أن يقتحمها داوود :

'وسار الملك (داوود) ورجاله إلى أورشاليم لمحاربة اليبوسيين

سكانها، فقال له هؤلاء، وهم يظنون أنه لايقدر أن يدخلها "لايمكنك أن تدخل إلى هنا فحتى العميان والعرج يصدونك "لكن داوود احتل حصن صهيون وهو مدينة داوود.. وأقام داوود في الحصن وأسماه مدينة داوود.. "وقال لرجاله، من يدخل المدينة أولاً، أعينه قائداً ...

وبالطبع ذهبت إلى مكان الحفائر، التي لم تكشف شيئاً هاماً حتى الآن - رغم مضي سنوات على التنقيب - بل أصبحت مكاناً سياحياً تأتي إليه الباصات السياحية تحت الحراسة المسلحة !

هذه هي المدينة الأشهر.مدينة المسجد الأقصى، ومسجد الصخرة وكنيسة القيامة التي يقال إنها مقامة حول القبر والمغارة الذي دفن فيها المسيح..

الزيارة الأولى كانت من وجهة نظري للتعارف!

فأنا لست ذلك السائح المتلهف على زيارة"المواقع السياحية "مهما كانت شهرتها.. أحب أن أتجول على مهلي في المدن الغريبة عليّ.. أدلف إليها ببطء، أتشممها، وأتلمس أحجارها، وأتأمل بناياتها وشبابيكها وحدائقها.. وأجلس على مقاهيها، أريد "أن أستوعب "ضجيجها وأتفهّم عجيجها !

لكن المقاه نادرة في المدينة القديمة.. فكل شبر صغير فارغ مشغول ببضاعة ما.. عطارة، وزعتر.. فضيات. طوابع بريد. ملبوسات فلسطينية و مسابح وصلبان ونجمة سداسية (كله في دكان واحد أحياناً) شمعدانت سباعية، اسمها العبري "منوّرة " لها مدلول ديني وطقسي يهودي.. أيقونات تقليد. كاسيتات لأم كلثوم وعبد الوهاب وفيروز وماجدة الرومي وكاظم الساهر. مطاعم صغيرة. تليفونات دولية تبرز

من دكاكين متر في متر، صنادل وأحذية..الخ.

لذلك تنازلت متضرراً عن المقاه، واخذت أتجول ببطء، وأحياناً أتوه عن عمد من الزملاء الذين يحملون ثقافة الغزو السياحي.. ثقافة رؤية كل ما تحكي عنه كتب ونشرات السياحة، باسرع ما يمكن، وفي اقل وقت ممكن!

ولكي نتخيل ما حدث في العام ١٩٧٦ . او ما تطلق عليه الأدبيات العسكرية حرب الأيام الستة، عليك أن تتجول بعض الوقت في المدينة القديمة لتعرف فداحة نتائج الهزيمة أو ما نطلق عليه نحن، نفاقاً، آثار العدوان، والتي تحاول "أدبيات كامب ديفيد" تصويرها لنا بأن "كامب ديفيد "قضت نهائياً على آثار العدوان.. وهذا غير صحيح، حتى بالنسبة لمصر نتيجة لنزع سلاح سيناء، وجعلها مكشوفة أمام العدوان الإسرائيلي المحتمل والمقبل!

الآثار الفادحة "للهزيمة - العدوان "هي أن أهالي المدينة القديمة، وجدوا أنفسهم - فجأة، وفي غضون ساعات - تحت احتلال عسكري، يعلن فيه موشى ديان قائد الجيش الإسرائيلي :لقد وصلنا إلى أقدس مكان، ولن نبارحه أبداً (!)

ولم تكن آثار العدوان متعلقة فقط بالضم "النهائي "للقدس والزعم بأنها ستصبح "العاصمة الأبدية لإسرائيل "بل بضم مساحات من الأراضي تبلغ "أربعة أضعاف" مساحة إسرائيل قبل حرب الأيام الستة، هذا دون حساب سيناء.

فداحة ما حدث: وضع ثلاثة ملايين من الفلسطينيين تحت "الاحتلال - الضم العسكري "بدعاو توراتية أسطورية، يؤمن بها ليس فحسب

الغالبية من سكان إسرائيل، ويهود العالم، لكن عدد كبير أيضاً من المسيحيين الأصوليين في العالم كله !

فداحة ما حدث، ليس فقط في ادعاء إسرائيل ان "الحائط الغربي" الملاصق لسور المسجد الأقصى هو حائط هيكل سليمان، بل والمطالبة بهدم المسجد الأقصى لأنه - حسب زعمهم - مقام فوق الهيكل..

وفداحة ما حدث، معاملة المواطنين الذين وجدوا أنفسهم "يعانون من آثار العدوان "ليس باعتبارهم من أهل البلد الذين يعيشون في أراض محتلة بالقوة العسكرية أو حتى مدنيين يعيشون في مناطق تحت حكم عسكري. بل أسرى حرب من نوع خاص.. أسرى حرب من المدنيين الذين لم يحاربوا (لم يسمح لهم بالحرب) ولايريد المستعمر أن يطبق عليهم اتفاقيات جنيف.. أسرى تعاملهم إسرائيل بدرجات أقل بكثير مما تعامل "عرب الـ٤٨ "كما تطلق عليهم، والذين تعاملهم إسرائيل، بدرجات أقل بكثير مما تعامل مواطنيها الذين وفدوا من شتات الأرض!

هكذا وجد الغزاوية انفسهم - ومعهم اللاجئون الذين التجأوا منذ الـ٤٧ و الـ٤٨ .. إلى الأمان الهش على شاطئ غزة، وجدوا أنفسهم اسرى حرب لم يقرروا الاشتراك فيها، بل ولم يسألهم أحد عن رأيهم في اشتراكهم أو عدمه فيها. ووجد أيضاً سكان الضفة الغربية..الملايين التي كانت "تحت الحكم الأردني "وجدت نفسها في منطقة احتلال وتم ضمها بعد إزاحة السلطة الأردنية، التي أرجعها الجيش الإسرائيلي إلى حدود المملكة الهاشمية القديمة "مملكة شرق الأردن ! "

وهكذا، سقطت بيت لحم وغيرها من "مدن الضفة "وانتهى إلى

الأبد ذلك النوع من الكارت بوستال الذي أمتلكه، المكتوب عليه "بيت لحم - الأردن "

"آثار العدوان "رأيتها في غزة التي حرمتها إسرائيل حتى من تجديد البنية التحتية، وإنشاء شبكات الصرف الصحي-المغطاة!

وبقي في غزة، قصر الحاكم المصري، الذي اختفى (الحاكم) مع غيره من الناس.. والأشياء كما يحدث لظواهر الطبيعة !أما بقية آثار العدوان، فهي معروفة للعالم فيما يطلق عليه اصطلاح المستوطنات والتي تبنى فوق الأراض الفلسطينية المصادرة (أو المشتراة بواسطة الخديعة أو الخيانة)، بين القرى والكفور الفلسطينية.. مسمار جحا المسلح بالبنادق والمدافع الرشاشة يغذيه التعصب العرقي والديني.

رأيت بعيني "أثر "من آثار العدوان، وأنا أتمشى على راحتي في دروب المدينة القديمة.

دكان صغير، يرفع فوق واجهته العلم الإسرائيلي.

انتابتنا جميعاً الدهشة فنحن في قلب "المدينة العربية" فهل ما نراه محرد "تزيد "من مواطن فلسطيني(ام ظاهرة سوف تنتشر "باعتراف " الفلسطينيون بالهزيمة النهائية ؟!)

قرر الصحافي الهولندي استجلاء الموقف فذهب يتحادث مع الدكان الآخر المجاور (لفلسطيني) يبيع الزعتر والعطارة. ووقفنا نحن نراقب بصمت حركة البيع النشطة بشكل غير عادي لدكانة العلم الإسرائيلي، نحاول أن نلتقط، بأذاننا المرهفة، شذرات من الكلام هناك.

لمحت صندوقاً من الزجاج على واجهة المحل وعليه النجمة السداسية،

ومكتوب عليه بعدة لغات، بينها الإنجليزية "تبرع لطفل إسرائيلي، قتلت قنابل حماس أهله "

وبالفعل يتبرع الزبون (الخواجة) المرهف القلب، بعد أن يلفت البائع الشاب نظره.

البائع في عز الشباب، جسد رياضي، ثياب عادية، تميل بعض الشيء إلى اللون الكاكي والطراز العسكري.. يتحدث الإنجليزية بلهجة أمريكية و ويعرف بضع عبارات بالألمانية والفرنسية والهولندية.. كما لاحظت.

الدكانة تبيع الأعلام الإسرائيلية المصغرة والنجمة السداسية والمنورات (الشمعدان السباعي) والأفود الديني (الشال والحرملة الدينية).. وغيرها من "الإكسسوار "اللازم للعبادة اليهودية التي تعتمد كثيراً على التفصيلات الطقسية.

أتى صاحبنا بالخبر اليقين من الجار الزعتري

.. الشاب الإسرائيلي صاحب الدكانة، اشتراها من فلسطيني هاجر فوراً إلى الخارج، وذلك بعد حرب ال ٧٣، ثم أغلقها ولم يظهر إلا مع عودة منظمة التحرير (!).. رجع يحمل بندقيته الأتوماتيكية وعلى رأسه الطاقية إياها، يدخل السوق، ويفتح الدكانة، ويتجه إلى جيرانه العرب يحييهم ويطلب منهم "أن نكون أصدقاء "

قال الجار "كيف تظنني أتقبّل عرضه بالصداقة، وأنا أراه يدخل إلى السوق، ببندقيته، ويمر عليه الجنود في طريقهم إلى مواقعهم، أو إلى حائط المبكى، يحيونه، ويعابثونه ويشترون منه؟.. كيف أقبل عرضه بالصداقة وهو يضع صندوق التبرعات هذا ؟ ينتزع لقمة العيش مني، في منطقتي، وأنا لاأستطيع أن أذهب إلى منطقته والسائح الأجنبي، يحس معه بالأمان

والثقة، أكثر مما يحسه معي أنا الفلسطيني الذي يقوم هو بتذكرة السائح، بأن حماس.. الفلسطينية قامت بقتل، أهل هذا الطفل الوهمي.. "

وبالفعل، حينما كنا نقف بالقرب من الدكانة عبرت مجموعة من المجندين والمجندات، (حياه بعضهم) وهم في طريقهم إلى "الحائط" ومعهم أسلحتهم، لأداء القسم.. قسم الولاء، كما عرفت فيما بعد.

وهكذا يرتبط الديني، بالجيش.. برب الجنود.

قال موشى ديان بعد النصر "لو أن الإنسان الذي يملك التوراة، نظر إلى نفسه كشعب التوراة، لكان من الواجب عليه أن يتملّك كل الأراض التوراتية "(جيروزاليم بوست-روجيه غارودي..الأساطير المؤسسة).

إذا ما تجاهلت، دكاكين العطارة، ودكاكين الهدايا والملبوسات والمطاعم الصغيرة، وإذا ما تجاهلت على الأخص - وبقدر كبير من الصعوبة - الوجود المكثف والاستفزازي للجنود الإسرائيليين في شوارع المدينة القديمة ودروبها.. إذا ما تجاهلت كل هذا، فإن القدس القديمة تذكّرني كثيراً بمصر القديمة، وخاصة تلك المنطقة الصغيرة الضيقة التي تجمع بين الكنيسة المعلقّة وجامع عمرو بن العاص، والمعبد اليهودي القديم.

ما يجمع بين "مصر القديمة "و"القدس القديمة "هو ذلك الإحساس الذي تعطيه لك المنطقتان، بتعايش الأديان الثلاثة فيما بينها.

ليس فقط الإحساس الجغرافي، بتلاصق دور العبادة، وليس أيضاً ذلك "الوعي "الإنساني بإمكانية تطبيق هذا التعايش المتلاصق.. لكن الإحساس بنوع خاص من الذبذبة، تلك التي تحيط بالواحد - حينما

يتجرد من عصبيته الدينية – ذبذبة حانية، موحية بالسكينة والسلام.
سلام الدين بمطلقه.. وليس، بخصوصيته.

* * *

أردت أن "أزور "المسجد الأقصى، ومسجد قبة الصخرة قبل كنيسة القيامة. أريد هنا أن أضع خطاً تحت تعبير "الزيارة ".. فهي تعني حميمية لقاء، ولهفته. لاعلاقة لها بالفرجة السياحية.

ساحة واسعة مهولة تربط بين الأقصى، ومسجد الصخرة أو مسجد عمر، الذي بالرغم من صغره بالمقارنة بالأقصى، فإنه يحظى بذات القدر من القدسية والهيبة.

لنبدأ من البداية..

إذا ما دخلت مدينة القدس القديمة (او القدس الشرقية) من باب دمشق، وانحرفت يساراً باتجاه درب "الوادي "ويساراً مرة أخرى لتدخل الجزء الشرقي من طريق الآلام، سينفتح الدرب – فجأة– لتجد نفسك بمواجهة، مسجد قبة الصخرة، ثم باحته المشتركة مع المسجد الأقصى.

باحة ظليلة، معشوشبة (فنحن في شهور القيظ–الشهر السابع) يمرح فيها الصغار، الفلسطينيون بالطبع، مع أمهاتهم، اللاتي يجلسن على الخضرة و يطعمن أو يتسامرن بصوت خافت؛ فنحن، وهن، في باحة مكان مقدس.

على باب الأقصى، توجد حراسة فلسطينية مسلّحة، ويقظة.وبجوار الحرآس يجلس على مقاعد حديدية، رجلان، يراقبان بطاقات الداخلين (من السواح) إلى المسجد. قررت أن لاأعتبر نفسي سائحاً،

فلم أشتر بطاقة، مثلما فعل زملائي.

قلت لمراقب البطاقات "سلامو عليكو.." نظر إليّ مندهشاً، ثم ابتسم مرحباً "اهلين "! سألني "مسلم "؟ فقلت مبتسماً.. "مسيحي ". اقترب واحد من الحراس وقال "من أم الدنيا ".. أشار الرجل المراقب بحركة ترحيب من يده وهو يقول "إتفضل شرّف" وحينما سألني زملائي "السواح " همساً عما دار بيننا من حديث، قلت متصنعاً الجدية "أخبرته أن أسلافي من أقباط ومسلمين ساهموا في بناء المسجد "!

وأنا بداخل المسجد، تذكرّت تلك المعلومة التي نسيتها عن أسلافي في قرية "تندة "الصغيرة في قلب الصعيد، حينما اكتشفت ان لي أقارب مسلمين ينتمون إلى عائلة أمي (التي بها كهنة أقباط) فجزء من العائلة، مثل بعض العائلات القديمة، احتفظ بالديانة القديمة ايضاً، بينما قرر جزء آخر، اعتناق الإسلام في ذلك الزمن القديم أيضاً.. لكن هذه قصة أخرى!

وأنا في قلب المسجد الأقصى، تذكرت صديقي، **محمد عودة** الذي قال لي مرة – منذ بضعة سنوات – "أتمنى أن اصلي مرة واحدة في الأقصى، وأن أزور فلسطين قبل أن أموت "كان ذلك، ذات مرة في رمضان، ونحن على مائدة إفطاره، في شقته الصغيرة بالدقي. مائدة تجمع المسلم والمسيحي، الصائم والمفطر.

أجلس على السجاد واتأمل نقوش السقف وزخارفه. مساقط الضوء تنهمر ناعمة من النوافذ المغطاة بالزجاج الملون المعشّق. أنه يشبه ذلك الزجاج الذي تقوم بصنعه الصديقة **فاطمة الطناني** في ورشتها الصغيرة، بالقاهرة، والذي ثبتته في نوافذ الكتدرائية البباوية المرقسية في حي العباسية.

أخرج إلى الباحة، وأنتعل صندلي، أسير متمهلاً، بين الجزر الصغيرة

من الأمهات الفلسطينيات، المتربعات على الحشائش في ظلال الأشجار. اتجه إلى مسجد قبة الصخرة. أتحادث بالعربية القاهرية مع الحرآس. يرحبون بالمصري الزائر. يبتسمون - بالتبعية - لزملائي..

أهبط الدرج الضيق الذي يقودني إلى أساس الصخرة، يحيط بها غطاء من الزجاج. تضيئه مصابيح كهربية صغيرة خافتة.

تحيط بي عائلات فلسطينية، أتت للتبرك والصلاة ووفاء نذر. الأطفال يتحركون بخشوع يستمعون لشرح الأباء عن قصة بناء المسجد، ولماذا سمي بمسجد الصخرة.

الكبار يتلمسون بأيديهم الزجاج المحيط بالصخرة، يتمتمون أدعيتهم بخفوت، ووجوههم مبتهلة. لعلهم يطلبون الرحمة لأمواتهم أو يقرأون الفاتحة على ارواح شهدائهم.

أتجول حول الصخرة، ثم أصعد الدرج الحجري إلى صحن المسجد، الذي يؤمه الآن زوار من آسيا.. رجال ونساء، يدلفون بهدوء ويؤدون ركعات تحية المسجد.

حينما أخرج إلى الباحة مرة أخرى، أحس بالشمس والقيظ. أتجول قليلاً وأصل إلى "الحائط الغربي "من ناحية سور المسجد. أجده مغروزاً بالأسلاك الشائكة. اتأمله مندهشاً. اسمع صوتاً بالقرب مني يقول "أم الدنيا "التفت فأجد ذلك الحارس وقد تعرّف عليّ. اسأله عن سر الأسلاك الشائكة، فيقول لي أن الإسرائيليين وضعوها، لكي يمنعوا الأطفال الفلسطينيين من أن يتسلقوا الجدار، ويرجمون المصلين اليهود بالأحجار في الناحية الأخرى. والناحية الأخرى، هي حائط المبكى !

* * *

نذهب إلى مطعم صغير داخل أسوار المدينة القديمة، اسمه مطعم المغربي. نأكل شاورمة وسلاطة خضراء وطحينة. أسأل صاحب المطعم عن سر التسمية، فيقول أن أسلافه قدموا من المغرب. يشير إلى درب قريب ويقول لي أنه يفضي إلى باب المغاربة، حيث كان "المغاربة "يتمركزون في هذه المنطقة.. قدموا للعبادة والدرس.

نسير صعداً إلى كنيسة القيامة. المتعبدون والحجاج يقفون في بهو الكنيسة حيث يوجد "قبر المسيح "ولكنه مجلّد بالرخام وتحيط به قضبان حديدية كالأسوار. ساعتها كان المصلون من اليونانيين الأرثوذكس.

أتحرك حولهم، حتى أصل إلى كنيسة صغيرة جداً. لعلها متران في متر ونصف. خلف "القبر "مباشرة. المح الأيقونات القبطية المصرية.. أندهش من فرحتي. أقترب من الراهب -الكاهن، وأحادثه. يندهشِ ولا يخفي فرحته- فلا يوجد حجاج من مصر تنفيذاً لأمر البابا شنودة.

أقول له أني قادم من هولندا. يندهش أكثر إذ يقول لي إن شقيقه يعيش ويعمل في أمستردام. "أحيطه علماً "بأني بروتستنتي يهز رأسه ضاحكاً ويقول إنه "خمّن "هذا من الطريقة التي اقتربت بها من "الكنيسة "(تنبهت أني لم أسجد ولم أرسم علامة الصليب.. البروتستنت لايمارسون هذه الطقوس)..

نضحك كلانا، ونستغرق في حديث طويل حول مشكلة الكنيسة القبطية المصرية مع الكنيسة الأرثوذكسية الحبشية لاستيلاء الأخيرة على كنيسة ودير السلطان العائد للكنيسة المصرية (الموجود على سطح كنيسة القيامة) يقول إن "مذبحه " الصغير هذا مقام فوق "الحجر الحقيقي " من قبر المسيح، الموجود أسفل المذبح.

من الأمهات الفلسطينيات، المتربعات على الحشائش في ظلال الأشجار. اتجه إلى مسجد قبة الصخرة. أتحادث بالعربية القاهرية مع الحرآس. يرحبون بالمصري الزائر. يتبسمون - بالتبعية - لزملائي..

أهبط الدرج الضيق الذي يقودني إلى أساس الصخرة، يحيط بها غطاء من الزجاج. تضيئه مصابيح كهربية صغيرة خافتة.

تحيط بي عائلات فلسطينية، أتت للتبرك والصلاة ووفاء نذر. الأطفال يتحركون بخشوع يستمعون لشرح الآباء عن قصة بناء المسجد، ولماذا سمي بمسجد الصخرة.

الكبار يتلمسون بإيديهم الزجاج المحيط بالصخرة، يتمتمون أدعيتهم بخفوت، ووجوههم مبتهلة. لعلهم يطلبون الرحمة لأمواتهم أو يقرأون الفاتحة على ارواح شهدائهم.

أتجول حول الصخرة، ثم أصعد الدرج الحجري إلى صحن المسجد، الذي يؤمه الآن زوار من آسيا.. رجال ونساء، يدلفون بهدوء ويؤدون ركعات تحية المسجد.

حينما أخرج إلى الباحة مرة أخرى، أحس بالشمس والقيظ. أتجول قليلاً وأصل إلى "الحائط الغربي "من ناحية سور المسجد. أجده مغروزاً بالأسلاك الشائكة. اتأمله مندهشاً. اسمع صوتاً بالقرب مني يقول "أم الدنيا "التفت فأجد ذلك الحارس وقد تعرّف عليّ. اسأله عن سر الأسلاك الشائكة، فيقول لي أن الإسرائيليين وضعوها، لكي يمنعوا الأطفال الفلسطينيين من أن يتسلقوا الجدار، ويرجمون المصلين اليهود بالأحجار في الناحية الأخرى. والناحية الأخرى، هي حائط المبكى !

* * *

نذهب إلى مطعم صغير داخل أسوار المدينة القديمة، اسمه مطعم المغربي. نأكل شاورمة وسلاطة خضراء وطحينة. أسأل صاحب المطعم عن سر التسمية، فيقول أن أسلافه قدموا من المغرب. يشير إلى درب قريب ويقول لي أنه يفضي إلى باب المغاربة، حيث كان "المغاربة "يتمركزون في هذه المنطقة.. قدموا للعبادة والدرس.

نسير صعداً إلى كنيسة القيامة. المتعبدون والحجاج يقفون في بهو الكنيسة حيث يوجد "قبر المسيح "ولكنه مجلّد بالرخام وتحيط به قضبان حديدية كالأسوار. ساعتها كان المصلون من اليونانيين الأرثوذكس.

أتحرك حولهم، حتى أصل إلى كنيسة صغيرة جداً. لعلها متران في متر ونصف. خلف "القبر "مباشرة. ألمح الأيقونات القبطية المصرية.. أندهش من فرحتي. أقترب من الراهب -الكاهن، وأحادثه. يندهشِ ولا يخفي فرحته- فلا يوجد حجاج من مصر تنفيذاً لأمر البابا شنودة.

أقول له أني قادم من هولندا. يندهش أكثر إذ يقول لي إن شقيقه، يعيش ويعمل في أمستردام. "أحيطه علماً "بأني بروتستنتي يهز رأسه ضاحكاً ويقول إنه "خمّن "هذا من الطريقة التي اقتربت بها من "الكنيسة "(تنبهت أني لم أسجد ولم أرسم علامة الصليب.. البروتستنت لايمارسون هذه الطقوس)..

نضحك كلانا، ونستغرق في حديث طويل حول مشكلة الكنيسة القبطية المصرية مع الكنيسة الأرثوذكسية الحبشية لاستيلاء الأخيرة على كنيسة ودير السلطان العائد للكنيسة المصرية (الموجود على سطح كنيسة القيامة) يقول إن "مذبحه " الصغير هذا مقام فوق "الحجر الحقيقي " من قبر المسيح، الموجود أسفل المذبح.

في مقابل هذه الكنيسة الصغيرة توجد "المغارة "التي تم دفن المسيح فيها بعد صلبه.. كما تقول الأناجيل.

أهداني الراهب تذكارات: صلبان خشبية صغيرة، وزيت مقدس، وماء معمودية من نهر الأردن حيث تعمّد المسيح، وزهوراً مجففة من القدس.
وحينما رجعت إلى أمستردام، أعطيت "مجدي " القبطي الذي يعمل في محل الشاورمة الذي يمتلكه أحمد المصري.. أعطيته الصلبان، والزهور، واحتفظت بالزيت والماء لأقدمهما إلى "أبونا "في الكنيسة القبطية في أمستردام، حيث ذهبت ذات مرة لأحضر افتتاح الموسم الثقافي في كنيسته، حينما قدّم للشباب المصري، الدكتور نصر حامد أبو زيد، والشاعر زين العابدين فؤاد الذي كان بالمصادفة في زيارة ترانزيت لهولندا ليلتقي بأبي زيد.

الشمس في طريقها للمغيب، ومدينة القدس القديمة على أهبة الإغلاق، ونحن في حاجة إلى أن ننهي يوم العمل. تفرقنا كل في طريقه.اتجهت أنا إلى محطة الباصات لأرجع إلى يافا. قررت أن أنهي يومي الفلسطيني، بتجنب الاحتكاك بالإسرائيليين إذا ما استقليت الباص المخصص لهم.

ركبت السرفيس المخصص للعرب. تأكدت من وجهته. صبية فلسطينية كانت تقرأ في كتاب. أكدت لي وجهتنا. ابتسمنا لبعضنا بأدب الغرباء ورجعت هي إلى كتابها، وأخذت أنا أستعيد ما رأيته اليوم، وأنظمه في عقلي.

جاء سائق السرفيس وقال شيئاً بالعبرية. التفت إلى المليحة أستنجد بها، لكنها ابتسمت مرة أخرى وتجاهلتني ثانية.

وهكذا كان سائق السرفيس - المخصص للعرب - المتجه إلى تل أبيب (ويافا) يهودي إسرائيلي!

الدخول الى غزة

لأدخل غزة، كان لا بد من الذهاب مع صديقي الهولندي الذي يعمل مساعد خاص في مكتب المنسق الخاص للأمم المتحدة في الأراضي المحتلة (نلاحظ هنا غرام منظمات الأمم المتحدة بالمسميات).. قراري بالذهاب معه في سيارته تأكدت حكمته (كما سأكتشف فيما بعد) فسأدخل القطاع في سيارة تابعة للأمم المتحدة ومرسوم ذلك على جوانبها بالخط الأبيض العريض.

ثانياً، كما قال صديقي، سأوفر مبلغ مائتي شيكل (حوالي سبعين دولار) من نقودي القليلة، ثمن أجرة سيارة تاكسي خاصة تنقلني من القدس أو من تل أبيب، فلا توجد سيارات نقل عامة، ويتحرك العمال والعاملون الذين يعيشون في القطاع وفق ترتيب معقد (إسرائيلي) بتنقلهم من سيارة إلى أخرى، أمام الحاجز وخلفه بعد عبور الحاجز أو المعبر الذي أصبح شهيراً عندما ألتقى عنده لأول مرة ياسر عرفات وبنيامين نتنياهو.. معبر أريز!

ثالثاً، وهذا ما اكتشفته بنفسي، فلقد وفرت على نفسي مواجهة قدر كبير من المهانة والإذلال.. إذا ما قدمت بمفردي، وذلك بوجوب تفتيشي ذاتياً مثل بقية المواطنين والزائرين "غير المهمين!
وهكذا

انطلقنا بالسيارة في حوالي السابعة والربع صباحاً من يافا ومن الشارع الذي نسكن فيه في (الحي العربي) والذي أعادت إسرائيل تسميته مع

مجموعة الشوارع العربية الباقية القليلة. اسم شارعنا "احب إسرائيل"..
أي نعم! والشارع المجاور لنا اسمه "محبة اسرائيل".. في البداية لم أصدق
عيني أو أذني حينما ترجم لي صديقي الاسم العبري (هو قريب من اللفظ
العربي: "أهبو يسرائيل"). بل إن اسم العطفة الصغيرة المجاورة على اسم
حاخام إسرائيلي من شرق أوروبا، كما يبدو من اسم هذه العطفة.

لماذا الاهتمام مني بحكاية الأسماء؟

إسرائيل سبقتني لهذا في هذا الصدد..

لأن موضوع "الاسم" له دلالة "سحرية وطقسية" عند إسرائيل
التوراتية.. يقول آدم التوراتي حينما "بني الرب الإله امرأة من الضلع التي
أخذها من آدم فقال آدم: هذه الآن عظم من عظامي، ولحم من لحمي، هذه
تسمى امرأة فهي من امريء أخذت" (التكوين -٢-).

بل إن الإله اليهودي يغير اسمه من إليوهيم الى يهوه. وغيّر الإله اسم
إبرام إلى إبراهيم "..ولا تسمى إبرام بعد اليوم بل تسمى إبراهيم لأني
جعلتك أباً لأمم كثيرة.. وأما ساري امرأتك فلا تسمها ساري بل سارة"
ثم تحويل اسم يعقوب.. "وبقي يعقوب وحده فصارعه رجل حتى طلوع
الفجر، ولما رأى إنه لا يقوى على يعقوب في هذا الصراع ضرب حق
وركه فانخلع.. وقال الرجل ما اسمك قال: اسمي يعقوب. فقال: لا
يدعى اسمك يعقوب بعد الآن بل إسرائيل، لأنك غالبت الله والناس
وغلبت. وسأله يعقوب عن اسمه فقال: لماذا تسال عن اسمي. وباركه
هناك" (التكوين -٣٢).

أما أهم معالم إسرائيل، أي متحف الهولوكوست - أو المحرقة -
فيتخذ الاسم التالي.. "الاسم. واليد".. باعتبار أن الأسماء لها تواجد

وقوة سحرية تواصل فعاليتها حتى في عدم الوجود الفيزيائي لأصحابها.
هكذا نرى تغلغل الخرافة الأسطورية في العقلية الإسرائيلية.. التي تغير
أسماء الشوارع - والمدن العربية - مثل ما يؤمن العامة بـ"العمل"..
اعتقاداً من إسرائيل، بأن الاسم المفروض سيجعل السكان العرب في
الشارع إياه يستيقظون ذات صباح وقد "أهبوا يسرائيل "بالفعل!

ولم يكن هذا هو أول تصادم "اسموي" إن جاز التعبير مع إسرائيل..
فاسم أبي هو مسعد، وحين كتابته بالأحرف اللاتينية يجب وضع "فاصلة
فرنسية" بعد حرف "الاس" وإلا أصبح "موساد" وما أدراك ما الموساد!

فجنود الحاجز الإسرائيلي الغزاوي - المعبر - بعد أن تلكعوا قليلاً
سمحوا لسيارة الأمم المتحدة بالدخول. كان صديقي قد تجهز للمواجهة،
فأخذ مني جواز سفري الهولندي، وبطاقته هو الدبلوماسية، وقدمهما
للجندي الجالس بتراخ، فنظر فيهما بإهمال متعمد مسرحي، ثم أعطاهما
لبنت مجندة فادخلت المعلومات داخل كمبيوتر، وضعت الجواز والبطاقة
تحت الأشعة الخاصة (لا أعرف اسمها) لتكشف الزيف الذي لا بد من
وجوده.. وإلا فماذا يفعلون هناك؟!

ثم جاءت حكاية الاسم. طلب مني الجندي بإنجليزية - أمريكية بلهجة
بروكلين (حارة اليهود النيويوركية) أن أنطق اسم الوالد بصوت عال فقد
ارتبك أمام الفاصلة الفرنسية التي أصررت أنا على وجودها حينما
تسلمت الجواز الهولندي.

بعد ذلك طلبوا منّا الانتظار في الخارج قليلاً. ليحضر البروكليني ومعه
أوراقنا يتباسط مع صاحبي و خاصة أن هولندا كانت ستلعب "ذاك
اليوم" كرة قدم مع الأرجنتين!

امتطينا السيارة ومررنا بتباطؤ مقصود بعض الشيء أمام الحاجز الفلسطيني (وبالمناسبة يسمون الحاجز هناك "المقسوم".. فالحاجز تعبير لبناني ورثته منذ أيامي هناك).. وهكذا وجدت نفسي - فجاة - بمواجهة العلم الفلسطيني، ورجال فلسطينيين، يحملون الأسلحة، على أرض فلسطين، عند الجزء الخاص بهم على بعد أمتار قليلة من الحاجز الإسرائيلي.. وكدت أصيح برجال الشرطة الفلسطينية "يعطيكو العافية ياشباب" لكن لجمت انفعالي فالجميع هنا لايحبذون الإسراف في اظهار العواطف. لاحظت، أن الجميع هنا يتصرفون بهدوء بارد.. كوول!

وهكذا دخلت إلى غزة ذات صباح صيفي حار صباح يوم الاثنين الموافق ٢٧ يوليو - حزيران -من العام ١٩٩٨ .

وبالمناسبة لم تبخل إسرائيل على غزة بتغيير اسمها، فاصبح ... "آزاه"!

لكن لماذا الانفعال؟ أليست غزة مثل غيرها من المدن - حتى وإن كانت خاصة - يزورها الإنسان وهو يحتفظ بهدوءه البارد ويبدو كوول؟!..

فذات سنة من سنوات الستينات وبالتحديد قبل الهزيمة بكام سنة كان قطار مصري ينطلق مرتان في الأسبوع - على ما أذكر - متبختراً، متوجهاً الى غزة، يحمل على مقاعد عرباته المتارجحة، بوسطة غزة من خطابات وصحف وخلافه، ويحمل أيضا الموظفين الراجعين من الإجازة أو "الماموريات" يحمل زوجات، أبناء وبنات.. وعوداً وتهديدات.. يحمل أيضا مجموعة المهربين المعتادين.. الذين يحضرون بضائعاً من غزة (غالباً مهربة من إسرائيل، ومنزوعة منها العلامة التجارية) لتباع مرة أخرى في الشوارع الجانبية المتفرعة من ميدان سليمان (أيامها) التي اكتسبت شهرة

واسماً "سوق غزة".

فذات سنة ستينية، قبل الهزيمة بكام سنة، اتفقت مع مجموعة من الأصدقاء أن نذهب الى غزة "نبص عليها" حسب تعبيرنا الساذج الرومانسي.. فلم تكن معنا نقود أيامها لشراء "بضاعة غزة "الشهيرة.. نقودنا تكفي بالكاد ثمن بطاقة القطار، وكام سندوتش فول وفلافل (هذا قبل اختراع الشاورمة).

ولكن لسبب لا أتذكره الآن لم استطع السفر. لعلي مرضت. وهكذا سافر أخي ببطاقتي التي كنّا حجزناها قبل السفر بكام يوم حسب الأصول. ورجع يحكي العجب العجاب عن غزة والغزاوية.

ووعدت نفسي بأن أقوم عن قريب وابص على غزة.

لكن الحرب جاءت ومعها هزائمها و.. وراح قطاع غزة من تحت الإدارة المصرية التي تهاونت في الحفاظ عليه، واختفى بالتالي قطار غزة كأنه لم يكن موجوداً من الأصل!

لكن الإدارة المصرية، تحتفظ دائماً بـ "الملفات" وخاصة السياسية، فبعد أن فرطّت، و "قصّرت "حسب التعبير العسكري.. قام "أبونا في المباحث" بنفض الغبار عن ملفات الغزاوية السياسين اليساريين حينما جاءت في مواسمها أيام السجن والاعتقال، و"شرّف" معنا داخلها الغزاوية الذين كانوا يعيشون في مصر ويحملون وثيقة إقامة مصرية مثل معين بسيسو رحمه الله..

وهكذا لم استطع الفكاك من غزة، ولم تستطع غزة أن تختفي من ذاكرتي.. تغطس فترات قد تطول لمدة سنوات، ثم فجاة تقب!

حينما وصلنا إلى مكاتب الأمم المتحدة الفخمة المكيفة الهواء أحس

صديقي بقلقي المؤدب، واتفقنا على أن أقوم بجولة حرة في المدينة، ونلتقي بعد ساعة في المكتب.

قال لي - وهو يعلم مشكلتي مع الجغرافيا - لا تخف، فلن تضيع إذا ما ضعت خذ تاكسي وقل له مبنى الأمم المتحدة جنب قصر أبو عمار (عرفت أنه كان قصر الحاكم العسكري - أو الإداري - المصري -لقطاع غزة).

وهكذا دخلت إلى قلب المدينة التي اكتشفت أنها لم تستيقظ بعد، كنا حوالي التاسعة صباحاً.. وكنت أبحث عن مقهى غزاوي. فأنا عاشق مدمن للمقاهي على مختلف أنواعها "أجلس عليها" واتأمل الشوارع والمدينة وناسها واسرح في ملك الله!

لكن المكان الوحيد الذي لفت نظري، هو كازينو على البحر، اسمه " كازينو ومطعم أبو حصيرة".

أبو حصيرة؟

فأنا أعرف أبو حصيرة المغربي - المصري والذي له مقام بالقرب من مدينة دمنهور- شيخ ولي يتبرك به أهالي الناحية وخاصة النسوة العواقر. يقلن سره باتع!

هو نفسه ابو حصيرة.. الذي طلب بيغن من السادات - أيامها - أن يسمح لليهود بزيارته والتبرك به باعتباره "ولياً يهودياً ". وافق السادات - دون تفكير في العواقب - التي ظهرت مباشرة في صدام عنيف بين أهالي القرية والقرى المجاورة والذين تصدوا للزوار اليهود بالشوم والعصي، وكادت تحدث مجزرة لولا تدخل الشرطة التي ما زالت تتدخل حتى الآن وتغلق المنطقة كلها بكردون مسلح خلال وقت الزيارة اليهودية،

حيث يرقص الزائرون ويشربون الخمر على ضريح الشيخ ابو حصيرة. (استطاع السفير الهولندي الأسبق في مصر أن يلتقط صورة لهذا " الاحتفال "ويضمنها كتابه المعنون بالإنجليزية ... مصر: موالد ومتصوفة وقديسون").

قلت لنفسي، سأدخل إلى ابي حصيرة الغزاوي.. فالرجل يبدو أنه سره باتع بحق وحقيق - فها هو فرع فلسطيني غزاوي له - خاصة وأنا أعلم بوجود وزير يهودي من أصول مغربية اسمه أيضاً ابو حصيرة موجود الآن في السجن بتهمة التربح والفساد!

العاملون القلائل في المطعم - المقهى، نظروا بأدب اليّ، لكن لهجتي المصرية (التي استخدمها بكثرة في ظروف كهذه) شفعت لي. ابتسموا، وقالوا: اهلين وسهلين. شربت شاياً ثم قهوة وأنا اتأمل البحر من خلف النافذة الزجاجية. أخرجت مذكرتي الصغيرة وكتبت فيها: (وأخيراً.. رأيت غزة! وها أنا أنقل - متعمداً - عنوان كتاب مريد البرغوتي، رايت رام الله.. لكني في غزة وأجلس أحتسي قهوتي على البحر ولا أظن أنه- مريد - استطاع دخولها. جواز سفري قوي. خواجاتي. لهذا فمن حقي استخدام العنوان. ها هي غزة المتطورة. الشارع الرئيسي الذي ياخذك من المعبر إلى الأمم المتحدة وشارع البحر هذا حاجة تفرح. اليافطة المعلقة على باب الكازينو تقول إنه مفتوح في عهد جمال عبد الناصر. منذ زمن لم أر اسم جمال عبد الناصر بهذا الوضوح والشجاعة. (وأين؟ في غزة فلسطين) ونحن في السيارة، في طريقنا من يافا إلى غزة لمحت لافتة مرورية، مكتوب عليها "الفالوجة" سالت صديقي "هي دي الفالوجا

بتاعتنا. بتاعة عبد الناصر والحصار؟" أجاب بالإيجاب. وحينما رأى لهفتي المكبوتة وعدني بأخذي إليها "عن قريب" سالني: ما هذا الحب لعبد الناصر وهو الذي سجنك ؟ قلت له بالعاميةالمصرية التي يعرفها بشكل جيد: دي نقرة.. ودي نقرة!. أنا الآن يحيط بي تاريخ غريب الفالوجا.. و هذا المطعم الذي تم افتتاحه في "عهد عبد الناصر "وبالقرب مني مقر ابو عمار تحرسه قوات السبعتاشر، تماماً مثل بيروت مع الاختلاف الجوهري.. نحن في غزة يازلمه!

البحر الهائج والأولاد الذين يلعبون حوله. أولاد فقراء. لعلهم أولاد المخيم.. يذكرني هذا المنظر؛ ببلاج كيلوباترا القريب من بيتنا وبيت أخوالي في الإسكندرية.. بحر هائج وأولاد فقراء في إجازة أو لعلهم مزوغين من المدرسة يلعبون لعبتهم الخطرة وهم على أبواب المراهقة.. لعبة الشجاعة وإثبات الرجولة والتظاهر بعدم الخوف. لعلهم أخوة الأولاد الذين كانوا يقذفون العساكر الإسرائيليين بالحجارة.. لعلهم كانوا يرافقون أخوتهم الكبار ساعتها، ويجمعون الأحجار لهم. عشرات الأفلام التلفزيونية التي كانت تصور العساكر وهم يقبضون على أولاد كهؤلاء ويوسعونهم ضرباً وركلاً، بينما أمهاتهم وأخواتهم يتشبثن بهم ويوسعن العساكر شتماً وجذباً!

وبالمناسبة عليّ أن أفكر نفسي أن اسأل: ماذا حدث "لاطفال الحجارة"؟ لكن أين نحن الآن من هذا كله؟).

ضربت صحبة مع الرجل الخجول الذي قدم لي الطلبات، الذي سألته عن الحساب فقال كالمعتذر عشرة شيكل.. وأردف بسرعة "لو ما معك بسيطة" قلت له معي وشكراً.. وسألته عن حكاية أبو حصيرة

وعن عبد الناصر بعد أن عرف أني بالطبع من مصر..

قال :إنهم الفرع المسلم من أبي حصيرة. قال، يوجد أيضاً فرع يهودي. وقال إنهم قدموا من المغرب من زمان.. من حوالي مائة سنة طلبت منه أن أصوره بالقرب من اللافتة التي تحمل اسم عبد الناصر. وافق مرحباً ووقف منتصباً شامخاً، ينظر الى الكاميرا بجدية (ألم أقل إن أبو حصيرة سره باتع؟ مسلم ويهودي!).

ماذا يستطيع الإنسان قوله، أو فعله، حينما يصل متاخراً - جداً - إلى مكان كان يريد أن يصل إليه من زمان ؟

وما دمت لا تستطيع فعل شيء، فمن الأحسن أن لا تقول شيئا. تزدرد غصتك، فأنت، وبلدك ومنظرّوك وساستك.. تصلون دائماً متاخرين.. مثل شخوص مسرحيات أونيسكو.

تجولت في الشوارع المتقاطعة. لفت انتباهي مجموعة من مكاتب السفريات.حاولت أن أعرف؛ إلى أين؟ لا يوجد شيء واضح. أثار هذا ريبتي. وحينما سألت صديقي العالم ببواطن الأمور الغزاوية، قال هذه مكاتب هامة وتقوم بسفريات حقيقية إلى الأردن والقاهرة وحتى إلى أوروبا.. أي نعم!

بعد ذلك تجولت في سيارة الأمم المتحدة باتجاه مخيم الشاطيء الشهير، وهو "المكان" الذي استقبل اللاجئين الهاربين من مذابح الهاجناه والآرجون (غزة كانت تحت الإدارة المصرية) وتحول المكان فيما بعد إلى مخيم.

البيوت المتساندة على بعضها هي ذاتها البيوت التي في مخيمات لبنان، ورأيتها بعد ذلك في مخيم اليرموك، في سوريا - مع بعض

التحسينات. شعارات سياسية على الحائط.. من فتح، ومن حماس، ومن الجبهة الشعبية.. إلخ. شعارات تؤّبن الشهداء أو تحي ذكراهم.. شعارات تنذر بسوء المآل للخونة.. شعارات بالنصر القريب.

أتجول واقرأ الشعارات، وأحس بثقلها الباهظ على عاتق الصبية والصبيات اللاتي يكبرن وسط هذه الشعارات.. لكن هذا شيء لا بد منه وإلا فكيف تحتفظ الأمة بذاكرتها؟

قال لي صديقي الهولندي - حينما لمحت بضعة صبية ينظرون إلى سيارتنا بتحفز - أحياناً يقذفوننا بالحجارة. تذكرت سؤالي، سألته عن مصير "أطفال الحجارة" فقال لي إنه يعرف واحداً من "الشباب" الذي كان في الانتفاضة، وهو يعمل الآن في مكاتب الأمم المتحدة في غزة. حكى لي كيف أن هذا الشاب كان مكلفاً بتوزيع "منشورات" الانتفاضة، يسافر بها داخل قطاع غزة الذي يضم (دير البلح وخان يونس وجباليا والناصرة وغيرها) ويتسلل خلف الجنود والحواجز الإسرائيلية. وكيف حينما "أتت" السلطة الفلسطينية استطاع الحصول على إذن "ليسافر" إلى القدس، فهو لم يخرج من قبل مطلقاً من القطاع وكيف أن الشاب رجع منزعجاً مهزوزاً من انطباعاته عن "العالم الخارجي". سألته إن كان من الممكن أن يدبر لي لقاء معه فوعد خيراً.

نتوقف على مشارف المخيم. أتردد في التقاط صورة. فمن يريد أن يوجع قلبه أكثر مما هو موجوع؟ وماذا عن أهل المخيم الذين التقط مئات الأغراب صورهم؟ وماذا ستفعل "الصورة ".. هكذا أصابني المخيم، وشعاراته، بالإحباط مع أني قررت أن أحتفظ بالبرود مثل "الآخرين" أو على الأقل أتظاهر به.

هكذا قررت أن أجلس داخل السيارة، وأن أمتنع عن التقاط الصور أو الشعارات التي ما تزال على الجدران..

نذهب ونأكل لقمة في أحد المحلات الصغيرة النظيفة المنتشرة على الشاطيء، ونتأهب بعدها للذهاب إلى رام الله لنحضر حفل استقبال تقيمه ممثلية كندا بمناسبة عيد الاستقلال.

الخروج من غزة، ينطبق عليه المثل القائل "دخول الحمام موش زي الخروج منه".

إجراءات التفتيش أطول وأكثر "غلاسة". نأخذ أغراضنا من السيارة - كتب ومجلات ودوسيهات الأمم المتحدة - ونضعها على الشريط المتحرك الذي يأخذها إلى جهاز الفحص الألكتروني (مثل المطارات) وفي الوقت نفسه يتم فحص السيارة ألكترونياً ويدوياً بعد رفعها إلى أعلى وتفتيشها بدقة من الداخل بواسطة جندي يرتدي قفازات خاصة، (عرفت أن هذه القفازات يتم وضعها في جهاز كمبيوتر خاص يحلل ما علق بها) وبعد ذلك نكرر ذات الدورة المتعلقة بجواز السفر الخاص بي والبطاقة الدبلوماسية الخاصة بصديقي.

إنهم يريدون أن يقولوا لك الرسالة التالية "أنت تدخل مرة أخرى إلى «دولة إسرائيل» قادماً من مناطق «الإرهابيين» الذين يريدون شراً بالمواطنين الإسرائيليين. لن نوفر حتى الدبلوماسيين لسبب بسيط إنهم لا يمثلون بلادهم ولا حتى الأمم المتحدة أمام منطقة «السلطة الفلسطينية» لأن هذه التسمية ببساطة لا تعبّر عن وجود دولة. من لا يعجبه يشرب من البحر"! انتهت الرسالة.

أثناء ذلك جلست على مقعد متهالك (المفروض طبقاً للتقليد

الإسرائيلي أنك هنا لتعاني وليس لترتاح وتدلع نفسك).. جلست أراقب الحركة القريبة مني خلف حائط من الزنك والأحجار ومغطى بسطح من الزنك. قال لي صديقي، هذا هو المعزل الخاص بالفلسطينيين وهم يخرجون أو يدخلون من وإلى غزة. العاملون الذين يتجاوز عددهم الآلاف، يتحركون داخل هذه "الحظيرة" وهو الاسم الذي يطلقه الدبلوماسيون العاملون في غزة عليها. هناك يتم تفتيشهم، والتدقيق في أوراقهم وهوياتهم. يومياً. صباح كل يوم. عند الخروج من غزة إلى إسرائيل. من الساعة الثالثة صباحاً، ومرة أخرى وقت العودة إلى غزة، حوالي الثالثة مساءً.. كل يوم. ثلاثمائة يوم في السنة (ما عدا طبعاً أيام الإغلاق الإجبارية بحجة أو بأخرى).. هذا هو المعبر الرسمي للغزاوية لكي يحصلوا على لقمة خبز.. طوال السنة!

إسرائيل تمنع دخول الميديا إلى الحظيرة. لا يعلم أحد ما يدور داخلها، اللهم إلا من حكايات الغزاوية أنفسهم. لا توجد صورة واحدة، أو تسجيل عن الحظيرة. منطقة عسكرية. إنها الجيتو في أقصى صوره العنيفة التوراتية..

الرب أمر موسى في سفر التثنية.. "متى أتى بك الرب إلهك إلى الأرض التي أنت داخلها لتملكها وتطرد شعوباً كثيرة من أمامك. فإنك تحرّمهم لا تقطع لهم عهداً، ولا تشفق عليهم ولا تصاهرهم. تهدمون مذابحهم وتكسرون أنصابهم وتقطعون سواريهم" (تثنية ٧).

من هنا، فعلى الباحث المعاصر في "الإسرائيليات" أن يضع في الحسبان وبشكل قوي فهم دافع القسوة - العرقية - التي تجد منابعها (المقدسة!) في التوراة.. التي يقول عنها الباحث في علم الأديان المقارن

والأنثربولوجي جون فريزر ".. ويحق لنا أن نتساءل بعد ذلك عن سبب تصوير التوراة للإله والأنبياء على هذا النحو، ثم عن سبب ارتباط دينهم بكثير من المعتقدات الوثنية. فهل يرجع سبب ذلك إلى أن التوراة كتبها مؤلفون حوروا ما شاء لهم التحوير في رواياتهم".

المأساة المعاصرة أن اليهودي "العادي" يؤمن إيماناً عميقاً بالتوراة، وبوعودها وبنواهيها الأسطورية، تغذيه الميديا السياسية المتعصبة، والسياسيون الذين يضعون فوق رؤوسهم الطاقية الدينية ليؤكدوا للمواطن اليهودي البسيط، باستمرار الامتزاج التوراتي بين الدين والسياسة، بين "إسرائيل" الآنية، والشعب اليهودي في زمن المسيح، آنذاك، قبيل الشتات النهائي منذ حوالي الفي سنة!

إن المستوطن المسلح بالدولار الأمريكي وبالبندقية ام ١٦ ويمتطي سيارة الجيب اليابانية، لايعلم زيف ادعاءاته وسخافاتها لأنه يحمل التوراة في يد، وسيف الرب - رب الجيوش - في يد أخرى!

في رام الله التي زرتها للمرة الأولى أيضاً في ذلك اليوم نفسه، أحسست بالفارق الكبير بين المدينتين. فرام الله هادئة منبسطة، غير مكتظة (أكثر نظافة) ولعلها أيضاً أغنى من غزة.. بدأت البنايات الجديدة الأنيقة تنتشر فيها. بنايات من الحجر الأبيض الشهير و تمزج بين الطرازين الفلسطيني البحر متوسطي، والغربي.. لكنه مزج يعتمد على ذوق وحس عاليين.

حفل الاستقبال كان في "كازينو" صغير هو في الحقيقة منتزة لطيف.. ثمة بوفيه وبار، يقوم في الخدمة عليهما شبان فلسطينيون يتحدثون بالإنجليزية.. يكثرون من الابتسام.

هو حفل استقبال يبدو مثل عشرات غيره حضرتهم في سفارات مختلفة وبلاد مختلفة. لكن الذي ميزه – بالنسبة لي على الأقل – وجود ممثلين للسلطة الفلسطينية.. وشخصيات فلسطينية عامة وأكاديميين فلسطينين.. كل هؤلاء يتصرفون بطبيعية وتلقائية فوق أرض فلسطين المحررة (ولو جزئياً) من جنرالات جيش رب الجنود.

قدمني صديقي للسيدة "ليز دوسيت" مراسلة البي بي سي للإذاعة والتلفزيون. والبي بي سي، بالنسبة إليّ في هولندا، وحتى في مصر، هي نافذتي السياسية والثقافية على العالم. قلت لها هذا، وأبديت لها إعجابي الصادق "بتغطيتها" الإخبارية الموضوعية من موقعها. لاحظت أنها اندهشت قليلاً، من رأيي في عملها، ولاحظت أن دهشتها كانت مصاحبة لسرورها الذي أبدته بجلاء. قالت إنها تواجه نقداً "لتغطيتها" يأتيها من جهات متعددة.. لم تفصح، ولم أكن في حاجة للسؤال..

سأذهب مرتان بعد ذلك الى رام الله. مرة لكي التق مع ليانة بدر (عرفت أن محمود درويش – عندما سألت كان وقتها في الاردن) التي رحبت بي حينما قدمت إليها بدون موعد مسبق.. ومرة أخرى بدون هدف سوى التجول في شوارعها والجلوس لحيظات على مقهى.. خاصة بعد أن تعرفت – نظرياً – على رام الله من مريد البرغوتي بعد "أن رآها" مرة أخرى، في كتابه الجميل. ورجعت ثانية لغزة، على موعد مع عبدالله حجازي الفلسطيني الذي كان يدرس معي في وارسو (في السبعينيات: الاقتصاد والعلوم سياسية، وأنا أدرس الإخراج المسرحي) وأصبح هو بعد ذلك نائباً لوزير السياحة في السلطة الفلسطينية، وسهّل لي ولمن معي رحلة سياحية سريعة داخل غزة وإلقاء نظرة طائرة على الآثار المكتشفة،

وعلى "المتحف" الذي يحتل شقة متواضعة في بناية كبيرة!

من الصعب – حتى بعد كل هذا الوقت وأنا أسجل خواطري – أن أصف شعوري بدقة وأنا في حديقة الكازينو في رام الله. صحافيون، ورجال ونساء من الممثليات الدبلوماسية. ممثلو السلطة الوطنية الفلسطينية. نحن الآن في العام ٩٨ بعد حوالي ٣١ سنة من استيلاء إسرائيل على غزة غنيمة حرب، وبعد حوالي ١٦ سنة من غزو إسرائيل لبنان وخروج الفلسطينيين منه، وإعلان بيجن "لن تقوم للفلسطينيين قائمة بعد الآن".. فهل يمكن، أن يصف الواحد شعوره و خاصة بعد أن شاهدت الغزو على لبنان.. ورايت مثل غيري صور وأفلام ووثائق مذبحة صبرا وشاتيلا و قتل أبو جهاد – بواسطة الكوماندوز الإسرائيليين – أمام زوجته وأولاده. رأيت الفلسطينيين في المنافي. رايت اخيارهم واشرارهم. شهدائهم وخونتهم.

هل يمكن أن يكون الواحد موضوعياً هنا؟!

رجعنا الى يافا بعد الغروب بقليل.

رب الجنود.. إله اليهود

المثير للدهشة، كيف تتعامل العقلية العسكرية - الدينية الإسرائيلية مع النصوص الدينية لتبرر مفهومها عن السلام المسلّح (عودة إلى القيم الثقافية الإسرائيلية) فهناك نص توراتي عن السلام الذي سوف يعم الأرض عند مجيء المسيّا. المخلّص بحيث يأتي المسيا - بالطبع - إلى الشعب اليهودي..

يقول النص "ويكون في آخر الأيام أن تقول شعوب كثيرة، هلّم نصعد إلى جبل الرب إلى بيت إله يعقوب.. لأنه من صهيون تخرج الشريعة.. ويحكم بين الأمم ويقضي لشعوب كثيرين، فيصنعون سيوفهم سككاً ورماحهم مناجلاً، فلا ترفع أمة على أمة سيفاً ولايتعلمون الحرب فيما بعد." (أشعياء -٢-).

وقد نحتت إسرائيل الجزء الأخير من النص "يحكم الرب بين الأم..الخ" فوق حجر ووضعته على مكان عال عند ما أطلقت عليه "الجدار الطيب" الذي يطل على لبنان!

وهو - أيضاً! - الشعار المنحوت الذي شاهدته بالقرب من الباب الرئيسي لمبنى الأمم المتحدة في نيويورك، ومعه تمثال هدية من الاتحاد السوفياتي (أيامها)..

هنا نجد جيش "الدفاع" الإسرائيلي يطالب الآخرين أن "يصنعون سيوفهم سككاً ورماحهم مناجلاً" وفي الوقت ذاته؛ يطبّق نظرية الغيتو العسكري على طوال عشرات الكيلومترات، حيث تظهر الأرض المحروقة

(بالفعل وليس مجازاً) الخالية من الأحراش داخل الأراضي اللبنانية المغتصبة وفوقها السلك الشائك الكهربائي الألكتروني تتحرك فوقه الدوريات الإسرائيلية المسلحة بأحدث الأسلحة الأمريكية الألكترونية. ومن الجنب الآخر الكيبوتزات المسلحة والتي تعتبر مراكز المواجهة الأمامية والتكأة التي تتخذها إسرائيل ذريعة لقصف القرى اللبنانية بحجة سقوط قذائف الكاتيوشا على هذه الكيبوتزات.

لهذا.. فإن أسطورة "غالبت الله والناس وغلبت" تكرر نفسها بإعادة خلق اسمها – في دولة – تبريراً لوجودها، وتبريراً أيضاً لمذابحها، تطبيقاً، لأوامر "إلهها" الذي يقول عنه جون فريزر في كتابه، الفلكلور في العهد القديم، التوراة: "صوّر الكاتب المتقدم اليهودي (في التوراة) الإله في صورة حسية فهو يتصرف ويتكلم على نحو ما يفعله الإنسان".

إن الاصطلاح العبري "بيت خون" ومعناه "محل الشقة" في العبرية القديمة، تحول الآن في العبرية المعاصرة إلى "بيت القوة" وهو الشعار الذي يتخذه لنفسه جيش "الدفاع" الإسرائيلي ولم لا!

وماذا عن الفئات والمنظمات التي تطالب بالسلام مع العرب والانسحاب من جنوب لبنان؟

إن المتابع للحركة السياسية في إسرائيل، لا يمكنه تجاهل الشروخ الحادثة في اللوحة العامة التي تحاول شركات العلاقات العامة السياسية تسويقها (شعب واحد وهدف واحد) فالانسحاب المطلوب من لبنان

والذي يطالب به بعض العسكر أيضاً، هو انسحاب من ميدان حرب لم تحقق "سوى الخسائر البشرية. وبالتالي فهو نداء للحفاظ على حياة الأبناء" ونجد فئات أخرى تطالب بـ "السلام" مع الفلسطينيين.. (علماً بأنه ليس هناك حتى اليوم من يطالب بالسلام القائم على العدل.. أي إرجاع الحقوق إلى أصحابها).

ما رأيته من نتائج أوسلو الإيجابية – وهي قليلة- أن يتنفس الفلسطيني الصعداء بعض الوقت وأن يلتقط أنفاسه.. قليلاً!

وهكذا

دخلت – برجلي – إلى "أرض أوسلو".

قضيت يومين في غزة، وذهبت مرة إلى بيت لحم، والضيعات الصغيرة المحيطة بها، ومرتين إلى رام الله، وثلاث مرات إلى القدس.

ركبت باصات الإسرائيليين وتاكسيات وسرفيسات الفلسطينيين.. ثم ذهبت إلى ما قبل "أوسلو" قضيت ثلاثة أيام متجولاً في "فلسطين ٤٨" في حيفا، إميل حبيبي وعكا.. الجزار.

عكا التي استعصت على نابليون، فقتل أسرى الحرب انتقاماً!

وصفد التي فتحت أبوابها لليهود الأسبان الذين طردتهم الملكة إيزابيلا، فاستقروا بها وطردوا الفلسطينيين منها وحولوا مسجدها إلى قاعة لعرض اللوحات!

أليست صفد هي "هاجر؟" وأليست هي أيضاً مصر القديمة التي قدمّت المأوى للقبائل اليهودية، حينما كانت المجاعة، بعد ذلك، حينما "خرجوا" منها سلبوا المصريين ذهبهم وفضتهم وثيابهم؟!

أستطيع أن أقول إني رأيت "أكثر من فلسطين واحدة".. فلسطين في مناطق السلطة الفلسطينية، التي تأخذك إلى أحضانها بسرعة، ترحب بك، ولا تخفي جراحها عنك، بل تتجول بك في المخيمات التي كانت وقوداً للانتفاضة.. تريك - بفخر طفولي وشجاع - علمها الفلسطيني في كل مكان، وتلفت نظرك إلى بقع الجير، والقار تلطخ وتمحي الأحرف والكلمات العبرية (مثلما حدث في سيناء بعد تحريرها عندما زرتها في الأشهر الأولى، حيث تم تلطيخ الإرشادات والكلمات العبرية بالقار).. تأخذك إلى أطفال المخيمات الذين يضجون في الشوارع، وإلى العائلات تستمتع بجلسة البحر على شاطيء غزة الذي حرمّه الإسرائيليون على أهاليها لسنوات طوال منذ الغروب وحتى فجر اليوم التالي.

في رام الله تقام حفلات الاستقبال باسم السلطة الفلسطينية، لاستقبال وتوديع ضيوفها وأصدقائها، يعزف النشيد الوطني الفلسطيني. وفي غزة يقيم ياسر عرفات في مقره الخاص، ويرتفع الآن فوق صاريته العلم الفلسطيني، بدلاً من العلم الإسرائيلي، وتحرسه قوات أمن الرياسة وقوات الفرقة ١٧ كما هو مكتوب بوضوح وفخر.

أما في المدن الفلسطينية الأخرى التي وقعت في الأسر عام ١٩٤٨ وأهمها حيفا ويافا وعكا. في هذه المدن تجولت خائفاً، لم تأخذني هذه الفلسطين من يدي أو تمسح عني خوفي (وقد أعذرتها).. فهي فلسطين مرتابة في الغرباء (حتى الذين يتكلمون العربية القاهرية مثلي).. فلسطين أخرى متكومة على ذاتها. ترى التجمعات الفلسطينية، متمركزة في " غيتو "مفروض عليها، وترى معظم المحال الفلسطينية هناك وقد كتبت لافتاتها بالعبرية فقط وبدون العربية، بل وأسماء أصحابها أيضاً. محلات

قليلة في يافا، وأقل منها في حيفا تكتب على واجهاتها بالعربية.

في هذه المناطق - هذا ما شعرت به وقد أكون مخطئاً! - إن فلسطيني الـ ٤٨ كما يسمونهم هنا - غيرهم - عن فلسطيني الضفة الغربية وقطاع غزة.. علماً بأن هذه المدن الفلسطينية رأت أكثر هجمات الأرغون والهاجناه وحشية وتعيش ما تزال تحت قانون "السبي" الأزلي الذي تطبقه إسرائيل هناك وخاصة بالنسبة للمباني التي يمتلكها الفلسطينيين والتي لا تسمح لهم بتجديدها إذا ما آلت للسقوط، بل تستولي عليها الدولة وتعطيها هدية سبي للغزاة.

لا تعطيك الخرائط الإسرائيلية سوى معلومات مبهمة عن سكان هذه المناطق. ففي المدن الثلاثة الكبيرة تاريخياً وعددياً.. يافا وحيفا وعكا والتي تعيش فيها الأغلبية العربية (والتي ينزح إليها العمال المصريون أيضاً) مثل يافا - التي غيرت إسرائيل اسمها إلى يافو، وأسست تل أبيب على امتداد أراضيها.. تجد الشوارع السيئة الإضاءة والشرطة الإسرائيلية المنتشرة في المدينة وقد احتلت جزءاً من المسجد القديم الكبير في "ميدان الساعة" وعلقت فوق السطح الشمعدان ذي الشمعات السبع (رمز الدولة) بالقرب من المئذنة! بينما تحتل كورنيش المدينة المطاعم والملاهي والفنادق الإسرائيلية في مبان واضحة العمارة العربية!

وفي عكا مثلاً تجد المدينة القديمة ما تزال قائمة بخير وبجوارها وداخلها بعض المحال العربية التي تقدم المأكولات أو الأجهزة الكهربائية.. إلخ. وأزور جامع الجزار، واتأمل قبره وقبر ابنه المدفون بجواره في "مقام" خاص بهما داخل المسجد الذي إذا ما أردت أن تلقي نظرة عليه، يجب أن تدفع بالشيكل الإسرائيلي.. دنيا!

وحينما أتجول في السوق القديم أحس بثقل الحصار النفسي على الأهالي الذين يجلسون واجمين على أبواب دكاكينه شبه الفارغة، فاشيح بوجهي خجلاً، لأني ما زلت سيد مصيري!

وأجلس على مقهى فلسطيني على الكورنيش وأتأمل الخارطة السياحية التي معي والتي تحدد في الطرف الشمالي الغربي من المدينة متحفاً تطلق عليه "متحف البطولة" والذي اكتشف من خلال قراءة النشرة السياحية أنه مقام في مبنى السجن القديم زمن الانتداب البريطاني ولكي تصل إليه عليك أن تسير في "شارع الهاجاناه" الذي يشق المدينة.. وقد تم تدشينه كما تقول الوثيقة بمناسبة "تحرير إسرائيل".

وتخيل، أهالي عكا وهم يسيرون يومياً في شارع الهاجناه، وليست سواها التي قتلت مقاوميهم ومثلّت بأبطالهم، وانتزعت لنفسها سمة البطولة،.. مثلما يقول بايبلي بورتيوس منذ أكثر من قرنين "مرتكب لجريمة واحدة قاتل.. قاتل الملايين يتحول إلى بطل!" لم أستطع أنا الغريب عن المذبحة أن أحمل نفسي على الذهاب في "شارع الهاجناه"، إن تساءلت بأسى وأنا أعرف الإجابة "تحرير؟" من أية سلطة؟.. من الفلسطينيين بالطبع!

ثمة حالة إسرائيلية ثقافية – خاصة بإسرائيل – وهي الاستيلاء على المساجد وتحويلها إلى "منافع مدنية".. حالة لم أرها حتى في أوروبا الشرقية – اللادينية – أو الاتحاد السوفياتي في عنفوانه. فقد بقيت هنالك الكنائس على حالها تستقبل المصلين القليلين، وكذلك المساجد في آسيا الوسطى. صحيح تعرض الدين ورجاله إلى الاضطهاد، لكن تحويل بيوت

العبادة وخاصة المساجد إلى أشياء أخرى لم أرها إلا في إسرائيل.

خذ عندك قيصرية مثلاً..

وصلنا إليها في طريقنا إلى الجليل الأعلى. تجولنا في المناطق الأثرية القليلة، وهي المدينة التي أسسها الفينيقيون في القرن الخامس قبل الميلاد وتعاقب عليها الغزاة حتى جاء القيصر الروماني أوكتاف أغسطس وأعاد بنائها ووسعها. ثم استولى عليها العرب في القرن السابع. استولى عليها الصليبيون منهم ليستردها الظاهر بيبرس في القرن الثالث عشر ويبني بها مسجده. تحول المسجد الآن طبقاً للتقليد الإسرائيلي ليصبح جزءاً من "الشوبنج سنتر" للسياح! ولئلا ننسى "الإنجازات" الحديثة جداً الإسرائيلية للمساجد مثل النفق تحت المسجد الأقصى في عهد حكومة بيريز.

إذا ما رجعنا مرة أخرى إلى أوسلو فإني أستطيع أن أقدم شهادتي. كيف – وللمرة الأولى – غيرّت أوسلو على الأرض بقدر ما تستطيع من علاقة القوة – أو استعراضها – بين الإسرائيلي والفلسطيني.

لقد فرضت المستجدات نفسها على العلاقة بينهما. هذه العلاقة التي تأخذ طابع الندية بسرعة وخاصة فيما يتعلق بالاستفزازت الإسرائيلية. عندما تتعامل الشرطة الفلسطينية، مع الجنود الإسرائيليين، أو المستوطنين المسلحين؛ حينما تتوتر المحاور مع إسرائيل.. فتتخذ القوات الفلسطينية "وضعاً قتالياً".. تصوره الميديا الإسرائيلية بهلع غير المصدق لما تراه الأعين فبعد خمسين سنة من تجريد الفلسطينيين من سلاحهم، ها هم يظهرون مرة أخرى من تحت الرماد – مثل العنقاء – بثيابهم العسكرية الزيتونية اللون وعلى أكتافهم رمز وطنهم واضحاً بألوان العلم الفلسطيني، وفي أيديهم أسلحتهم.. وقد كنت هناك – في غزة – بالقرب من مستوطنة، حينما

حدث وضع مماثل - وهزت صور الجنود الفلسطينيون على الصفحات الأولى في كل الصحف الإسرائيلية الأمان الهش للإسرائيليين، وهم في وضع قتالي بأسلحتهم مصوبة إلى الجنود الإسرائيليين..

أتجول في غزة ورام الله، أرى المشاريع الجديدة وخاصة مشاريع البنية التحتية التي تتم بالتعاون مع الأمم المتحدة والدول والمنظمات المانحة. يندهش الواحد حينما يكتشف مشروعاً مثلاً - تعلن عنه - بفخر - اللافتة المعلقة فوقه بالعربية والإنجليزية: مشروع رصف الشارع أمام المستشفى الأهلي بغزة! أو مشروع إقامة حديقة...

لكن المشروع الذي يحكي عنه الجميع، هو كيف أن أهالي غزة ورام الله استيقظوا ذات صباح ليجدوا أجهزة الهاتف العمومية في الشوارع قد تم تركيبها.. وتعمل بالفعل!

وحينما رأيت الأجهزة أول مرة في غزة، لم أهتم. فالهواتف العمومية شيء طبيعي لي، أنا القادم من الغرب.. لكنهم في غزة لفتوا نظري بأدب، إلى أن الهواتف العمومية عندهم لم تكن بالشيء الطبيعي أبداً.. قبل السلطة.

اهتممت بشكل خاص بالبحث عن الثقافة وخاصة "ثقافة ما بعد أوسلو".. فسألت وتجولت وسمعت عن إنجازات تبدو للوهلة الأولى بسيطة (مثل يوم الأغنية الفلسطينية) وغيرها من الأنشطة الثقافية.. ولكن لن يكون هناك أي قدر من الإيجابية في التعامل مع الحالة الثقافية الفلسطينية دون تمحيص "الحالة الأخرى الإسرائيلية" لتشابك الحالتين في صراع بقاء دموي، ولاشتباكهما أيضاً نتيجة لتواجدهما، في هذا العصر، على أرض واحدة.

الثقافة الإسرائيلية إذا ما أخضعتها للتعريفات الحديثة للثقافة، لن تجد لنفسها موضعاً. فالمنتوج "الثقافي" الإسرائيلي ما يزال في حالة المخاض، وهذا طبيعي بالنسبة لمجموعة من الأعراق المختلفة والتي لا تتكلم لغة الأم مع بعضها البعض بل بلغة تم إحيائها من مواتها - باعترافهم أنفسهم - وهي اللغة العبرية.. بينما تتحدث كل طائفة، باللغة الأم (الروسية، أو العربية أو الأمهرية.. إلخ) في حياتها الخاصة.. بل أن الدولة وافقت على صدور سبعة صحف ومجلات باللغة الروسية، بالإضافة إلى محطتين إذاعيتين، وقناة تلفزيونية بالروسية أيضاً!.. إذن فحينما نقول، أن هناك مجموعة من الثقافات "بلغة الأم" للطوائف اليهودية التي نزحت من أوطانها واستقرت في إسرائيل، لا نكون قد جانبنا الصواب بل أني شخصياً كنت أجهل هذه المعلومة الهامة، والتي لابد أن كتب عنها الدارسون الفلسطينيون ولكني للأسف لم أكن أعرفها.

أريد أن أشير هنا إلى شهادة كاتب يهودي - إسرائيلي - عراقي هو سامي ميخائيل والتي قالها في محاضرة له بالمركز الأكاديمي الإسرائيلي بالقاهرة (في أكتوبر - تشرين ١٩٩٥ وتم نشرها بعد ذلك في مطبوعات المركز في أبريل - نيسان ١٩٩٧) يقول "بعد قدومي إلى إسرائيل، كنت اقرأ بالإنجليزية، وأتحدث بالعبرية، واكتب بالعربية" ويحكي كيف أنه حينما كان يعيش في العراق ويذهب إلى المعبد ويستمع إلى العبرية التي لم يكن يفهمها (باعتبارها لغة الطقس الديني).. ليجد نفسه بعد ذلك في إسرائيل وكيف ينظر إليه "الآخر" باعتباره يحمل صورة العدو العربي! وهذا بالفعل ما لاحظته، حيث تعيش كل مجموعة يهودية - إسرائيلية - عرقية في الغيتو الخاص بها.. في "حارة اليهود" التي عاشوا فيها من قبل

في بلاد أخرى. بدت لي إسرائيل كلها مجموعة هائلة من "حواري" اليهود في دولة الغيتو الكبير!

زيارتي لإسرائيل - فلسطين، ومناطق السلطة الفلسطينية وعرب الـ ٤٨، أكدت لي عدم وضوح الرؤيا حول ما نطلق عليه "التطبيع الثقافي" فنحن نهتم بمظاهر هذا التطبيع: الكتب، والأفلام والمسرحيات، والتبادل الأكاديمي، والثقافي (من زيارات، ومعارض، ومهرجانات.. إلخ) وننسى أن "الثقافة" هي أكبر من هذا بكثير.. جداً وأخطر!

أكدت أيضاً ما كنت مقتنعاً به من قبل: أن إسرائيل تريد الدخول إلينا، ومنعنا من "الدخول" إليها في الوقت نفسه؛ تطبيقاً لنظرية "فيصنعون سيوفهم سككاً ورماحهم مناجلاً".

إسرائيل لا تريد دخول الميديا العالمية، أو العربية، إلا تلك المؤيدة لها.. إسرائيل ترفض السماح للهيئات العالمية بما فيها الصليب الأحمر الدولي، التفتيش على السجون والمعتقلات الإسرائيلية التي تضع فيها العرب من فلسطينيين ولبنانيين.. إسرائيل ترفض اتهامات المنظمات الدولية الشعبية، بانتهاكها للحقوق الإنسانية.

المشهد التقليدي المعتاد في التلفزيونات الغربية، هو مشهد الجندي الإسرائيلي، يدفع بخشونة، المصورين الصحفيين أو يضع يده على عدسة الكاميرا.

هذا مشهد موح ومعبر. تحويل إسرائيل - نفسها - إلى غيتو، لا يسمح لغير الإسرائيليين، من الدخول إليه والتجوال فيه بحرية. أي كما نقول بالعامية "الاستفراد" بالفلسطينيين، والتعامل معهم بالطريقة التي يرون!

إسرائيل تريدنا كخدم، أولاد الجارية، نخضّر لهم الأرض و نبني لهم

المستوطنات، لكي يتفرغوا هم لتطوير آلة الحرب التي سيخضعوننا بها "فلا تقوم لنا قائمة"! هذه هي المقاطعة الحقيقة التي تريدها إسرائيل.. أن نتركها في حالها. وحينما تقرر أن تأتي إلينا علينا أن نرحب بها، وإلا فهناك التهمة الجاهزة وهي معاداة السامية!

حينما رجعت إلى أمستردام قرأت في صحيفة القدس التي تصدر في لندن (١٦ تموز) كيف أوقفت إسرائيل، لمدة ١٤ ساعة المطربة العربية الأماراتية "أحلام" ووفد وزارة الإعلام الأمارتي قبل السماح لها وللوفد بالدخول إلى الأراضي الفلسطينية للمشاركة في مهرجان فلسطين الدولي الغنائي الذي أقيم في بيرزيت.

وتواجه أحلام - طبقاً لجريدة القدس - "مقاطعة من جانب الفنانين العرب بسبب غنائها ضمن فعاليات مهرجان فلسطين" بينما يعلن ياسر عبد ربه، وزير الثقافة والإعلام الفلسطيني "شكره للوفود والفرق العربية لأنهم كسروا بحضورهم طوق الحصار المفروض على الشعب الفلسطيني".

لكن المشكلة، هو وجود طوق أيضاً من جانب بعض القوى الشعبية العربية تحت دعوى رفض التطبيع الثقافي مع إسرائيل، ولا تعلم هذه القوى، أنها إنما تدعّم من الطوق الإسرائيلي على الشعب الفلسطسني.

فلنقاطع إسرائيل ثقافياً، من هنا وحتى يوم الدين.. لكن لماذا نضرب البردعة (الفلسطينية) حينما لا نستطيع ضرب الحمار؟!

وهكذا حملت حقيبتي، بدون دعوة من جهة فلسطينية، وبالطبع بدون دعوة ولا حتى ترحيب من إسرائيل وتوجهت إلى جزء من وطني.

وهل يحتاج المواطن إلى إذن أو دعوة من أحد للدخول إلى وطنه؟

هناك بيت من الشعر، لشاعر فلسطيني، لم تعد الذاكرة الخوانة تحفظ اسمه يقول:

بلادي!
أحبها كما تحب الأم طفلها المشوه!

مأزق الهوية الفلسطينية فى الدولة الإسرائيلية!

هناك تحريم بابوي من الكنيسة القبطية المصرية بعدم زيارة القدس وبالتالي بعدم زيارة الأماكن المقدسة هناك.

وقد أثار هذا التحريم - ولا يزال - ردود أفعال متباينة داخل الكنيسة القبطية المصرية.

لا أحد ينكر على البابا شنودة - وهو رجل حكيم ووطني وسياسي محنك من الطراز الأرفع - حقه البابوي في استخدام سلطاته الدينية..

إن منع زيارة أقباط مصر للقدس للتبرك بالتذكارات المقدسة كما تعلن الكنيسة، إنما يرجع في الحقيقة إلى اكتشاف قيادة الكنيسة للمأزق الذي كانت ستجد نفسها بداخله لو عامت على مودة حكومة السادات أيامها.. إذ ستجد نفسها في عزلة عن التيار الوطني المصري والعربي العام الرافض لكامب ديفيد و ملحقاتها هذا بالرغم من العلاقة السياسية المعقدة التي كانت بين البابا شنودة والرئيس السادات، وعناقهما علناً أمام كاميرات التلفزيون - وبما تركه شيخ الأزهر السابق الشيخ جاد الحق على تكوين حلف ديني - سياسي لمحاربة المباديء الهدامة (قبيل انهيار الاتحاد

السوفييتي!) لكن البابا الذي هو أيضاً سياسي محنك، انسحب من سفينة السادات الغارقة، وتوترت العلاقات بينهما، بتقرّب السادات إلى الجماعات الإسلامية المسلحة، والذي اعتبرته الكنيسة موجهاً ضدها، وتصاعدت حدة التوتر بإعلان البابا شنودة رفضه زيارة القدس (حتى يرجع الحق الفلسطيني إلى أهله) ووصل ذروته بالأمر الذي أصدره السادات في حملة سبتمبر الشهيرة والقاضي بعزل البابا شنودة ووضعه تحت التحفظ في دير صحراوي بعيد. ولم ينل البابا شنودة حريته إلا بعد مقتل السادات.

ثمة حقيقة أخرى غائبة - بخجل - عن الأضواء، في موقف الكنيسة القبطية من "موضوع القدس" هي مشكلة كنيسة دير السلطان المتنازع عليها بين الكنيستين القبطيتين.. المصرية والحبشية، والتي تقول الكنيسة المصرية أن الدولة الإسرائيلية ساعدت الرهبان الأحباش في الاستيلاء على الكنيسة هناك والتي تقول الكنيسةالمصرية بملكيتها لها.

ولن ندخل هنا في تاريخ النزاع وأسبابه، ولا حتى في الحكم الذي أصدرته المحكمة الإسرائيلية لصالح الكنيسة المصرية (لكنها ترفض تنفيذه لأسباب سياسية) ولكني في الحقيقة وعدد كبير من المسيحيين المصريين، نرى أن الدخول بالدين في منطقة السياسة، ليس في صالح أياً منهما. لأنه يجب إعطاء ما لله لله وما لقيصرلقيصر.. لا يجب استخدام الدين - أياً كان وباية ذريعة - لأغراض سياسية.. لأن هذا ينقص من قدسية الدين ويدخله منطقة النقداليومي الدنيوي..

والمثال على ذلك امتطاء الصهيونية، وهي فلسفة دينيوية عنصرية للدين اليهودي، تحقيقاً لنظرياتها الاستيطانية والعرقية، مما جعل البحث

يتطرق إلى "أصولية" التوراة الموجودة الآن بين يدي اليهود، بل وإلى ما أطلق عليه الباحثون الأنثربولوجيون مثل فريزر اصطلاح "الإله اليهودي الذي يحب القتل والانتقام ويسعى إليه".

نحن نعلم حاجة الكنيسة المصرية إلى الحفاظ على علاقاتها المعقدة مع الدولة، ثم مع المؤسسات الشعبية الرافضة لكامب ديفيد، وللتطبيع الثقافي وغيره مع إسرائيل، لكن هذا يوقع الكنيسة المصرية الوطنية، في المحظور الخطر وهو اختلاط ما لقيصر بما لله.. وهذا ما لا نرضاه لها ولا للبابا شنودة الذي يحظى باحترام الجميع.

هذا الموقف البابوي من إسرائيل، ومن "زيارة" القدس، يندرج تحت المواقف الثقافية المسيحية المصرية وتفاعلها مع الثقافة العربية المسيحية والإسلامية في عمومها، وفي خصوصيتها.

في عمومها: هو تشابك الجذور العميق والتاريخي العربي - المصري - المسيحي - الإسلامي الذي يختلف عن المسيحي الماروني.. مثلاً الذي يعتبر جذوره فينيقية وبالتالي العربية، بالرغم من أن الأقباط المصريين يعتبرون أنفسهم أحفاد الفراعنة (ويؤمنون سراً بنظرية معتدلة كثيراً حول النقاء العرقي!) إلا أن تشابك جذورهم الثقافية العميق، الذي أشرت إليه، يؤدي بهم إلى مفاهيم مشتركة ثقافية وإنسانية مع التيار الغالب في الثقافة العربية- الإسلامية.

وفي خصوصها: حالة عدم الاستقرار والأمان النفسي التي يعيشها غالبية الأقباط والمسيحيون الآخرون في مصر، مما جعل "الأمر" البابوي المتعلق بالقدس مقبولاً ومطاعاً من غالبية الأقباط الذين يرون في الكنيسة - في الوضع السياسي والاجتماعي الآني في مصر - ممثلتهم السياسية

والثقافية الرسمية، تقودهم إلى بر الأمان في بحر السياسة المضطرب.. ومن هنا يأتي الخطر، وهو أن تعتبر "الكنيسة" نفسها القيادة السياسية للمسيحيين المصريين، وهذا ما نرفضه نحن، والآخرون.

كما أن الموقف "الآخر" مرفوض أيضاً: موقف الجماعات الإسلامية. اختلاط الديني بالعمل السياسي اليومي، والبشري، القابل للخطأ والتخطيء.. بالتالي للنقد.

لكن ما هي العلاقة بين ثقافة الـ ٤٨ وبين ما ذكرته آنفاً؟

وجدت "العلاقة" في كتيب صغير، حصلت عليه - بالصدفة - خلال تجوالي السريع في ردهات ومكتب ليانا بدر بوزارة الثقافة الفلسطينية.. عنوانه الطويل "الفلسطيني في فلسطين ٤٨ بين صراع البقاء وانقسام الهوية" والمؤلف هو راضي شحادة، الذي يقدم نفسه "أحد مؤسسي مسرح الحكواتي الفلسطيني، ومسرح البلد في الجليل سنة ١٩٧٢ ومؤسس ومدير مسرح السيرة منذ سنة ١٩٨٤" والكتاب يجيب أيضاً عن الأسئلة التي طرحتها - من قبل - حول "فلسطين الأخرى".

يقول ".. وهل إذا ما أصبحت فلسطين العتيدة دولة، علينا إذا أردنا أن نكون جزءاً منها، أن نحمل أمتعتنا، ونترك جليلنا، مثلثنا وشاغورنا ونقبنا وقرانا ومدننا برضانا أو بالهجرة مرة أخرى من أجل الانضمام إليها، إلى تلك البقعة الصغيرة جداً كالجيتو، أم سنبقى في وطننا الأصلي الذي طالما ردد عنه المرحوم إميل حبيبي مقولته المشهورة أن لا وطن لنا سواه، ونستمتع بكوننا نحظى بدولتين نعلن انتماءنا وولاءنا لهما: إسرائيل وفلسطين؟ وإذا خدمنا دولتنا الأولى فهل نكون عملاء وخونة؟، وإذا

خدمنا دولتنا الثانية فهل ستسمح لنا إسرائيل بذلك؟.. علماً بأننا نعيش في إسرائيل التي اعترف بوجودها وحدودها غير المحددة كل الدول العربية وسلطة الحكم الذاتي الفلسطينية"؟.

يورد المؤلف تجربته وتجربة مسرحه من الدعوات ومن الداعين العرب.. في جنوب لبنان "المستقل" وإلى مصر في مهرجان المسرح التجريبي "باسم فلسطين طبعاً لأن النظام المصري عقد إتفاقية صلح مع النظام الإسرائيلي ولكن الشعب المصري يرفض استقبالنا إلا كفلسطينيين من فلسطين بالرغم من أن جوازاتنا وتأشيرات دخولنا إسرائيلية.. نحن لا دولة لنا في الوقت الراهن تدير شؤوننا ونخدم شؤونها في حياتنا اليومية سوى إسرائيل، بلا قافية".

ويكرر المؤلف "ما أصابه" كلما ارتحل إلى بلد عربي "ننظر في عيونهم وكأننا متهمون بجريمة ما، لأننا بقينا في وطننا.. وأصبحنا جزءاً من إسرائيل، مواطنون فيها نحمل بطاقات هويتها وجوزات سفرها وتأشيرات دخولها وخروجها.. تجيز لنا السفر واللقاء مع العالم الخارجي وبالتحديد مع أخواننا العرب".

ولن أستطرد هنا في سرد تجارب المؤلف في المطارات العربية والغربية والخلط الذي يلقاه مع فلسطيني الـ ٤٨ من المزج بين جواز سفره الإسرائيلي وهويته الفلسطينية المسيحية.. لكن يعنيني هنا أن أشير لمجموعة من "المآزق" لا علاقة لها بالمآزق التي يلقاها الفلسطيني - الإسرائيلي (وهذه واحدة من المسميات الرسمية لهم) بسبب تمسكه ببقائه داخل وطنه بل والكفاح من أجل الحصول على بطاقة هوية إسرائيلية منذ العام ٤٨ "قبل أن يلاحقهم القانون الذي سيثبت عدم ملكيتهم لبطاقة

الهوية الإسرائيلية يعني أنهم ليسوا من أبناء هذه البلاد، بل متسللون من الدول العربية".

كما يقول المؤلف.

هذا هو المأزق الأول. أي عدم الفصل الثقافي والسياسي بين "تحريم" التعامل مع يهود إسرائيل.. وبين عرب إسرائيل وبالطبع فالمتضرر الأكبر هو الفلسطيني الذي صمد داخل أرضه ليجد نفسه الآن في سلة واحدة مع اليهودي الإسرائيلي المغتصب.. بالنسبة لنا!

مأزق اللغة اليهودية في "أرض إسرائيل" !

المأزق الثاني هو اللغة.. وقبل أن تكون الثقافة كانت اللغة فقد وجدت أن "اللغة اليومية" والاعتيادية التي يتعامل بها الفلسطيني الثماني والأربعيني هي العبرية حتى يكتشف أن من يتعامل معه مثلي لا يعرفها فيتحول إلى العربية.

وتخيل مواطن يتحدث في بيته، بلغة، يغيرها ما أن يخرج إلى الشارع!

في دراسة طريفة وهامة لعالم الاجتماع المصري المرحوم الدكتور سيد عويس عن تعامل الشعب المصري "القبطي" مع العرب المسلمين الفاتحين لمصر، أثبت، أن المصريين تحولوا ببطء بالغ عن "دينهم المسيحي وعن لغتهم القبطية" إلى الدين الإسلامي واللغة العربية في غضون ثلاثمائة وخمسين سنة. أي أن التحول الكامل لم يتم بين ليلة وضحاه، إنما تم خلال فترة زمنية طويلة. (مع ثورات وهبات من المصريين) نحن نتحدث

هنا عن تاريخ يرجع إلى حوالي ألف وأربعمائة سنة! مع الاختلاف بالطبع حيث لم يعلن الجيش الإسلامي حقه التاريخي والإلهي في أرض مصر، ولم يقم بطرد أهلها من ديارهم.

من هنا جاء المزج البطيء بين اللغتين، ليخلق المصريون على مر العصور لغة شعبية مشتركة، وتمتزج الثقافتان لتنتج ثقافة مشتركة، كان أهم آثارها الملموسة في فن العمارة، الذي اقتبس المشربيات التي كانت تفصل بين الرجال والنساء - وما زالت - في الكنائس، ليطورها الصانع الماهر المستوعب للثقافتين لتصبح على ما هي عليه الآن.. جزءاً هاماً في العمارة العربية الإسلامية..

بعد بضعة أيام من التجوال المكوكي بين مناطق الـ ٤٨، والدولة.. يستطيع غير المتخصص مثلي أن يلمح بوضوح بالغ مدرستين في العمارة.

مدرسة فلسطينية عربية مسيحية وإسلامية، تجدها في البيوت، والكنائس والمساجد.. بيوت بشناشيل "مشربيات" بطابق واحد أو بطابقين. تبدو عليها علامات القدم بوضوح (الإذن بالترميم لا تعطيه الدولة) تحيط بها حديقة صغيرة.. بها شرفات ونوافذها من الخشب.. بيوت رأيتها في بيروت وصور وصيدا وبعض أحياء دمشق القديمة وبعض أحياء القاهرة التي لم "تتغرب" وبعض أحياء الإسكندرية.. بيوت أعرف طريقي إلى غرفها وحدائقها، رغم أني لا أعرف مالكيها ولم - ولن - أدخلها.

المدرسة الثانية هي مدرسة "الماس بردكشن" الانتاج النمطي الذي رأيته في دول أوروبا الشرقية، وقبلها، فيما نطلق عليه في مصر "المساكن

الشعبية" في المرحلة الناصرية. الهدف شريف وإنساني في الحالتين. أوروبا الشرقية دمرتها الحرب، من الضروري إعادة البناء على وجه السرعة. تسكين البشر في علب صغيرة بنيت على عجل حتى يتفرغوا لبناء الاشتراكية، والصناعة الثقيلة!

أما في مصر، فالهدف - النبيل أيضاً - هو بناء سقف فوق رؤوس الغلابة الذين ضاقت بهم العشش.. إعطاء فرصة للطبقة العاملة والبرجوازية الصغيرة أن تحس بآدميتها.. وهكذا تم بناء آلاف المساكن الشعبية في إمبابة وغيرها. مساكن نمطية، قبيحة.

أما في إسرائيل - الأخرى - إن جاز التعبير سيجد الواحد هذه المساكن الشعبية.. وسيجد أيضاً نمط العمارة الأوروبي والأمريكي، الصارم بدون بهرجة، نمط ما بعد الحرب ومشروع مارشال، للسكنى وللمكاتب أيضاً. وسيجد أيضاً النمط المعماري الاستيطاني. أي نمط المستوطنات المعماري. وهي "بيوت" من طابقين في المستوطنات الغنية(!) وعمارات من عدة طوابق في المستوطنات الغلبانة (إن جاز التعبير).. البيوت والعمارات كلها متشابهة ونمطية. القرميد الأحمر على الأسطح.. مولدات الطاقة الشمسية بجوار هوائيات التلفزيون. تحيط بها جميعها أسوار عالية وأبواب حديدية (للحماية من المتسللين الفلسطينيين بالطبع!).. المستوطنات تستطيع أن تكتشفها بسهولة، اذا ما تتبعت بأصبعك الخرائط، أو إذا ما أشار لك واحد من العارفين على واحدة منها. حينئذ تتحرك في جميع إسرائيل وتستطيع - بعين واحدة - أن تحدد أين هي المستوطنات.. ما إذا كانت في غزة، أو في الجولان!

إن "العمارة" جزء أساسي من المنظور الثقافي العام لشعب ما هي أيضاً

الدليل الواضح على الفوارق الطبقية بين أبناء الشعب الواحد. هي أيضاً المؤشر الصادق على عزلة - أو امتزاج - طوائف هذا الشعب بعضها البعض.

في مجتمع الجيتو، ستجد "حارة" اليهود مثلاً، كما ستجد شانتي تاون في جمهورية جنوب أفريقيا. ستجد هذا واضحاً في معمار الكنائس في الولايات المتحدة. كنائس البيض وكنائس السود. تستطيع أن تميز بينهما بسهولة، رب البيض يحب الفخفخة والمعمار المهيب.. وإله السود يحضر إليهم في كنائسه الخشبية أو تلك المبنية على عجل بمواد رخيصة.. وحتى في كنائس البيض و السود، ستجد أنماطة معمارية مختلفة حسب مفهوم كل طائفة الديني الطائفي.

"حواري" اليهود في إسرائيل ستجد حارة اليهود الروس، وحارة اليهود المغاربة وحارة اليهود الفلاشة.. إلخ وداخل كل "حارة" ستجد أهل الحارة يتكلمون بلغة الأم (وليست بالعبرية) وقد وجدت نفسي أمام هذا التشابه المثير للدهشة بين الوضع اللغوي لفلسطيني الثمانية وأربعين، ويهود الثمانية وأربعين أيضاً (سنة تأسيس الدولة) نفس الأزمة اللغوية. على رأي جدتي: طباخ السم.. يذوقه!

والمأزق الذي أشار إليه الفنان المسرحي راضي شحادة حول سؤال الهوية.. لكن الفرق بين المأزق الفلسطيني الثماني أربعيني ونظيره الإسرائيلي، إن "اللغة" عند الفلسطيني لم تمت ويعاد بعثها اصطناعياً من جديد.. مثلما يحدث عند الآخر بل هي لغة الأسلاف (وكانت) لغة الخطاب الرسمي ولغة الشارع، وحينما فرض عليه المستعمر - المستوطن، أن يتكلم لغة المستعمر - كشرط ليستطيع مواصلة الحياة في وطنه - بقيت

لغته الأصلية حية، يبدع بها، يصلي بها، ويحادث عياله بها.. أما الآخر فقد تحدث بكل لغات الأرض المفروضة عليه في ترحاله الطويل.. وبالتالي اندثرت العبرية وأصبحت - فقط - لغة المعبد والطقوس وحينما تم بعثها، كانت مثل اليعازر الذي قام من الأموات.. كان لابد من تحريره من أكفانه! وهكذا كان - وما يزال - حال العبرية.. إنها تحاول التحرر من أكفان القرون الطويلة.

المدهش هنا أن أول من بعثها عام ١٩٨١ حاخام اسمه اليعازر بن يهودا.. بالرغم من احتجاج البعض، بأن "الحديث بها حرام" إنها لغة مقدسة، فكيف يمكن استخدامها في "اليومي"؟

من هنا جاء مأزق الثقافة الإسرائيلية.. والثقافة اليهودية التقليدية بشكل عام.

منذ بضعة سنوات حضرت بدافع من الفضول ملتقى مسرحياً في أمستردام مخصص لمسرح اليديش. ولمن لا يعلم، فاليديش هو اللغة التي اخترعها اليهود في شرق أوروبا. هي مزيج من الألمانية القديمة، والسلافية، والعبرية.

بالطبع كان الحاضرون - في معظمهم - من اليهود الهولنديين الذين وضعوا "السماعات" على آذانهم ليفهموا ما يقال. وقد كتبت عرضاً سريعاً لصحيفة "الحياة" أيامها بعنوان، "مسرح بدون جمهور" باعتبار أن الجمهور المتلقي هو الأساس في العمل المسرحي، الذي قام في عصره الأول الإغريقي باعتباره "احتفالاً جماهيرياً"!

وحينما تساءلت عن "حكمة" الملتقى كانت الإجابة الخجولة من المنظمين، هي جعل الأجيال الحديثة من اليهود أن يتذكروا لغة الجدات

والأجداد. سبب غير مقنع! لكنه في دلالته، يعبّر عن عمق أزمة اللغة، وبالتالي الثقافة، اليهودية -الإسرائيلية.. الثقافة أية ثقافة تتعامل مع اللغة بشكل جدلي يغني كل منها الآخر أو يدمره!

"ماذا يعني تغيير اللغة بالنسبة إلى الفرد أو الجماعة؟ إنه فقدان الخبرات اللغوية واكتساب خبرات جديدة، أي تعلم نطق الأصوات المغاير، ومجموعات كلمات مغايرة وطرائق تبدلها وجمعها والتعود على تقبل لفظ آخر للكلام وتجديد الجهاز اللاقط العاكس، وليس هذا كل شيء، إنه يعني أيضاً إعادة بناء كاملة لتركيب وبنية كل المعلومات الثقافية المتلقاة عن طريق اللغة وتمزيق الصلات مع الماضي التاريخي، مع أجيال لا تحصى من الأجداد ذات قوالب التفكير التقليدية والقيم المتراكمة أو إعادة تركيبها" (دراسات في تاريخ الثقافة العربية. القرون ٥ - ١٥ - أكاديمية العلوم السوفياتية - ترجمة الدكتور أيمن أبو شعر- ١٩٨٩ دار التقدم -موسكو).

ويتحدث المرجع ذاته عن تأثير الفتوحات العربية وعن تأثير الناس الذين بدأوا لأول مرة التكلم باللغة العربية وإدخالهم خبراتهم الكلامية السابقة مما "قوى عملية تطور اللغة العربية".

ويضيف المرجع ذاته "لا يرقى الشك إلى وجود وحدة داخلية للثقافة العربية في القرون الوسطى، ومن هنا فإن المصطلح المشترك لتسميتها في العلم كان ضرورياً. ويؤكد أن اللغة العربية كانت الوسيلة الرئيسية للتواصل والتعبير عن الذات في هذا المجتمع الذي خلق هذه الثقافة. ويؤكد كذلك أنه تحقق بصورة رئيسية عبر اللغة العربية والمعلومات المجسدة فيها تتابع التواصل بين الثقافتين العربية القديمة، وثقافة القرون

الوسطى العربية. ويمكن اعتبار تسمية الثقافة العربية تسمية مشتقة من اللغة إلى حد كبير من كونها مشتقة من أية سمات أخرى. فاللغة العربية الكلاسيكية لم تكن مجرد القشرة الخارجية لهذه الثقافة، بل أسبغت عليها بعض الملامح المميزة، غدت هي نفسها واحدة من أهم العناصر المكونة لها، محددة تخومها التاريخية ورامزة لوحدتها".

نكتشف من هذا النص الأهمية البالغة للغة في تكوين الثقافة، بل وكيف تصبح اللغة - كما هو الحال في العربية - جزءاً هاماً من هذه الثقافة.

ويحدد المصدر السالف، شبه الجزيرة العربية، مع سوريا وفلسطين، الموطن القديم "للساميين" والشعوب التي لها قرابة معهم. ويقول إن اللغات السامية تنقسم إلى ثلاث مجموعات كبيرة، حيث تنتسب إلى المجموعة الشمالية الغربية اللغات التالية: الأمورية، والأوغارتية، والعبرية (العبرية القديمة) والفينيقية والآرامية بتفرعاتها. بينما تدخل في المجموعة الجنوبية الغربية اللغات: العربية، والعربية الجنوبية، والأثيوبية، والتي يشكّل كل واحدة منها عدد من اللهجات.

ويضيف "كانت اللغة العربية الجنوبية هي أول لغة تنفصل عن لغات المجموعة الجنوبية وتحظى بشكل كتابي، يبدأ تاريخها تقريباً منذ القرن الثامن قبل الميلاد وحتى القرن السادس الميلادي".

إذن كيف نستطيع تحديد موقف وهوية "الثقافة الإسرائيلية" داخل - أو خارج - منطقتها الجغرافية، ومنابعها اللغوية؟

سأقتطف عبارات من دراسة قديمة للدكتور طه حسين (الكاتب المصري العدد الأول - ١٩٤٥) بعنوان: الأدب المصري، بين أمسه وغده.

"أدبنا العربي قد عمر بضعة عشر قرناً إلى الآن، واختلفت عليه أثناء ذلك خطوب كثيرة متباينة وجهته ألواناً من التوجيه وأخضعته لضروب من التطور، ولكنه ما زال حياً يستمد حياته وقوته من شخصيته العظيمة.. وأخص ما نلاحظه في حياة أدبنا العربي منذ أقدم عصوره، أنه يتألف من عنصرين خطيرين لا يحتاج استكشافهما إلى جهد أو عناء. أحدهما داخلي يأتيه من نفسه، ومن طبيعة الأمة التي أنتجته. والآخر خارجي يأتيه من الشعوب التي اتصلت بالعرب أو اتصل بها.. فلغته المعربة الفصحى مقوم أساسي من مقوماته أو هي المقوم الأول بين مقوماته".

ماذا عن اللغة التي يعبّر بها مثقفو إسرائيل عن ثقافتهم.. تراثهم، والذاكرة الجمعية، وعن هموم الحياة الآنية؟

في إسرائيل يكتب مثقفوها باللغة العبرية "الحديثة" التي تقرر إحيائها من مواتها بعد حوالي عشرين قرناً من اندثارها.. أي منذ الهزيمة النهائية على يد الرومان، وتبعثر اليهود في الدياسيبورا.. أو الشتات.

كان إحياء العبرية تلبية لمطلب سياسي في الأساس قرره "الآباء المؤسسون" لوعيهم بأن المهاجرين القادمين من أنحاء العالم لا تربطهم ببعضهم البعض أية رابطة سوى رابطة الدين وأسطورة نقاء العرق، كانت إسرائيل ستصبح تكراراً لأسطورة برج بابل حينما توحد البشر الأقدمون وقرروا بناء برج يطاول السماء، فقرر الرب أن "يبلبلهم" ولم يكن ذلك إلا عن طريق تفرق ألسنتهم "فلننزل نبلبل لغتهم حتى لا يفهم بعضهم لغة بعض".

ولهذا كان لابد من لغة موحدة تجمع الروسي واليمني والأمريكي والمكسيكي.. وهي في الوقت ذاته لغة التوراة و"الكتب المقدسة" اليهودية.

هنا تم المزج بين السياسي والديني، باعتبار أن العبرية لغة مقدسة "اللغة التي خاطب بها الرب موسى وكتب بها الرب بإصبعه الوصايا العشر..".. ولما فرغ الرب من مخاطبة موسى على جبل سيناء أعطاه لوحي الوصايا وهما من حجر مكتوبين بإصبع الله (الخروج -٣١-).

ومع أن المخطوطات الأقدم التي عثر عليها تعود إلى حوالي ألف سنة مضت. أقدم مخطوط عبري هو مخطوط حلب ويعود الى حوالي ٩٥٠ ميلادية، ثم مخطوط لنينغراد الذي كان نسخة من مخطوط حلب سنة ٨٠١ ميلادية.. ثم مخطوطات البحر الميت عام ١٩٤٧ التي يعود زمن بعضها إلى ما قبل المسيح.

وماذا عن تواصل الجذور.. هذه الجذور التي انغرزت في أراضي أوطان مختلفة وعلى فترات متباينة منذ الشتات الأخير؟

فهناك عائلات موجودة في إسرائيل، وبقيتها موجودة في الوطن "الآخر"، تتزاور، وينتقل أفرادها - ببعض السلاسة كما فهمت - بين البلدين - الوطنين.

وهنا هذه المعلومة المعروفة عن اعتبار إسرائيل محطة هجرة مؤقتة - ترانزيت - خاصة للمهاجرين من شرق أوروبا، يدفعهم الحلم القوي بالهجرة والاستقرار في الغرب وأمريكا على وجه التحديد حيث ستختلط "لغاتهم" الأصلية، بأخرى مكتسبة وجديدة، أي تعلم النطق "بأصوات مغايرة والتعود على تقبّل لفظ آخر للكلام وتجديد الجهاز اللقط العاكس..، وتمزيق الصلات مع الماضي التاريخي.. إلخ".

إن أقدم المخطوطات العبرية هو مخطوط حلب ويعود إلى حوالي

٩٦٠ قبل الميلاد.. ألا يثير هذا نوعاً من التأمل حول اللغة أو اللغات التي كانت مستخدمة في كتابة التوراة قبل الفترات السابقة لهذا المخطوط والتي تؤكد الترجمة الحديثة للتوراة، الأناجيل الصادرة من "جمعية الكتاب القدس في لبنان" في العام ١٩٩٥ بأن الترجمة قد تمت من عدة لغات بينها العبرية التي تم بها ضبط مجموعة "أسفار العهد القديم - التوراة" حوالي عام ٩٠ بعد الميلاد. وهناك "الترجمات الأخرى لليهود " خارج فلسطين وعلى الأخص في الإسكندرية البطالسية "فترجموا التوراة إلى اللغة اليونانية". ويؤكد ناشرو النسخة المعاصرة من التوراة والأناجيل أنهم كانوا يرجعون إلى اللغة الآرامية (السريانية).. للتأكد من النص.

كما يؤكد الناشرون أيضاً أن نصوص العهد الجديد تمت كتابتها في حينها- في النصف الثاني من القرن الأول الميلادي باللغة اليونانية "التي شاعت آنذاك في حوض البحر المتوسط " النتيجة البسيطة هي "انقطاع" تواصل اللغة العبرية منذ حوالي ألفي سنة، وبالتالي انعدام ارتباطها العضوي والنفسي، بالمجموعات المهاجرة المختلفة التي تحاول بعثها.

أيام فلسطينية ـ ١

الاشتراكية بين الحلم والسلك الشائك

أولاً

الكيبوتزات

.. كفر بلوم!

الفكرة "الرومانسية" عن الكيبوتز، أنه مكان لتطبيق الاشتراكية بشكل عملي.. كل حسب قدرته، ولكل حسب حاجته!

وقد بدأ الكيبوتز في الظهور على أرض فلسطين منذ السنوات الأولى للقرن العشرين، ومع انتشار الأفكار والنظريات الاشتراكية في أوروبا، واهتمام المثقفين بها، وخاصة الذين كانوا يعيشون في ما كان يطلق عليه "العالم السلافي" روسيا وأوروبا الشرقية حالياً.. نتيجة للهجرات التي بدأت مع الحملات الصليبية في القرن الحادي عشر. موجات متعاقبة من الهجرة اليهودية فراراً من الاضطهاد.

حتى جاءت النازية وبدأ الاضطهاد المنظم - العرقي - لكل ما هو ليس آري: اليهود، ولحق بهم الغجر، لينضم إليهم "أعداء الرايخ" من يساريين وماركسيين ونقابيين وديموقرطيين، والمثليين الجنسيين!

بين كل التيارات التي شكلت النسيج السياسي اليهودي، كان التيار الأوروبي هو السائد في الهجرة إلى فلسطين، القوة الدافعة الفلسفية والعسكرية لصنع إسرائيل و "إخراجها" بالشكل الذي هي عليه الآن.

بالإضافة إلى الطائفة اليهودية التي كانت تقيم في فلسطين منذ الأيام الأولى للإمبراطورية العثمانية، والتحق بها بعد ذلك يهود المشرق من مصر وسوريا والعراق، من شمال إفريقيا ومن اليمن. شكلت هذه الطائفة تياراً اكتسب لنفسه اسم اليهود الشرقيين، وكان يشكل نسبة النصف مع اليهود السفارديم.. والنصف الآخر كان من الإشكيناز. (الترجمة لاصطلاح كيبوتز تعني: مع بعض.. أو معاً).

كيف يتشكّل الكيبوتز

يحصل الوافدون على قطعة أرض، عادة ما تكون قريبة من قرية فلسطينية (بالتأجير، أو بالاستيلاء. حسب الظروف السائدة وقتها) ويقيمون فوقها مساكن بدائية وتساعدهم الوكالة اليهودية، والصندوق القومي اليهودي في منحهم الحيوانات والأدوات اللازمة للعمل، وتمدهم بالبذور والأسمدة وتساعدهم في تسويق منتجاتهم.. وشيئاً فشيئاً، ينمو الكيبوتز، ويتسع، لكنه في الوقت ذاته يتحول إلى "معسكر عمل" مكتف بذاته ومنعزل.. يقيم أبراج المراقبة والأسوار الشائكة حول حدوده، ويسلّح أفراده.. أي يتحول إلى غيتو يهودي مرة أخرى!

.. يذكرني هذا برواية "مزرعة الحيوانات" لجورج أورويل.. حينما قررت حيوانات المزرعة التمرد على أصحاب المزرعة الذين كانوا يعاملون الحيوانات بقسوة، فكانت الثورة. لكن "النظام الحيواني الحاكم" سار في

حكم المزرعة والمزارع المجاورة التي استولى عليها بالقوة.. سار في حكمه بطريقة ديكتاتورية دموية!

وقد كانت شخصيات رواية أورويل تبرق في ذهني وأنا أتابع بدهشة "تطور" الكيبوتز..

مثلاً؛ لما كان الكيبوتز يقوم في العادة على مشارف أرض عربية زراعية - أو فوقها بالقوة - فإنه يتخذ لنفسه، في الغالب اسماً عربياً محرفاً.. مثل كفر، أو كريات وهي ليست سوى "قرية" مثل "كريات أربائه" وهي قرية أربعة.. إلخ

كذلك تحول الكيبوتز مع قيام إسرائيل إلى "مفرزة أمامية" مسلحة على الحدود بين"الدولة" وأعدائها من المناطق الفلسطينية (مثل الضفة الغربية قبل حرب ٦٧) أو الحدود المصرية والسورية والأردنية واللبنانية.

ثمة خلط تقع فيه الميديا العربية وهو عدم التفرقة بين المستوطنة.. والكيبوتز.

الأولى تقام بالتحديد على أرض فلسطينية - أو عربية - تم الاستيلاء عليها بالقوة، مثل مستوطنة "ميت ياميت" السيئة الصيت التي بناها المستوطنون - بمباركة الدولة بالطبع - على أرض مصرية في سيناء قبل التحرير وتم هدمها بعد ذلك بواسطة الجيش الإسرائيلي حتى لا يستفيد بها المصريون!.. كذلك المستوطنات المقامة في الجولان، والتي ستصبح جزءاً أساسياً - وصعباً - في التفاوض حينما يأتي الوقت.. مع سوريا.

والفكرة الأساسية من تأسيس المستوطنات، هي الاستيلاء نهائياً على الأراضي الفلسطينية، أو استخدامها كورقة تفاوضية مع الجيران العرب، التي بنيت المستوطنات على أرضهم!

المستوطنون - عادة - يتكونون من الجماعات المتعصبة دينياً والتي تؤمن بأسطورة " أرض إسرائيل" ونلاحظ أن القتلة الشهيرين، مثل باروخ غولدشتاين الذي قتل المصلين المسلمين الفلسطينيين في الحرم الإبراهيمي، أسس وعاش في المستوطنة السيئة السمعة في الخليل.

بالإضافة إلى المزج بين الفكرة الرومانسية للرواد الأوائل.. المستوطنون الكولونياليون في العالم الجديد (أمريكا وأستراليا) وتوسيع رقعة السكّان اليهود الإسرائيليين داخل كثافة سكانية عربية وتطبيق فكرة الغيتو المصغّر داخل الغيتو الأكبر.

أما الكيبوتز فإنه يقوم بدور مشابه لدور المستوطنة و لكنه يحظى بسمعة رومانسية، لا تحظى بها المستوطنة التي تنال لنفسها صيتاً في العنف يمارسه المستوطنون على الفلسطينيين الذين كانوا - وما زالوا - يقيمون على أرضهم الأصلية منذ زمن سحيق، مثل المستوطنة الشهيرة في الخليل "كريات أربعة" التي لا يتجاوز عدد "سكانها" ثلاثمائة وخمسين شخصاً، وسط بحر من الفلسطينيين يتجاوزون الخمسين ألفاً وتقوم إسرائيل بحماية هذه الجزيرة المنعزلة من المستوطنين، بفرق من الجيش والشرطة والدبابات!

إذن فالكيبوتز، هو الرائد في مجال الاستيطان "الذكي" لكن الحالة الرومانسية و"الاشتراكية" التي انتحلها لنفسه، جعلته رمزاً - مضللاً - عن قصد لذات المهمة التي تقوم بها المستوطنة بشكل أكثر فجاجة.. فالكيبوتز ليس سوى "الكشافة" ونقطة الارتكاز المتقدمة.. والمسلحة أيضاً حتى أسنانها وإن كانت ما تزال ترتدي ذات الثياب القديمة الرومانسية، تحمل ذات الأسماء.

في الخمسينيات، شاع وسط اليساريين العرب "تحليل سياسي" مفاده أن "الكيبوتز" هو التطبيق العملي والرائد لخلق طبقة عاملة زراعية، تطبّق الاشتراكية، خاصة أن الحزب الحاكم في إسرائيل أيامها كان حزب العمل. وظل هذا الاعتقاد في يقين الكثير من اليساريين العرب، متناقضاً في الوقت نفسه مع سيل المعلومات المنهمر حول عنصرية الدولة الصهيونية.

بمراجعات بطيئة ومؤلمة، اكتشفنا (اليساريون العرب) أكذوبة الكيبوتز، وضلال الديموقراطية الاشتراكية الإسرائيلية، خاصة بعد هجوم حكومة حزب العمل الإسرائيلية في العام ١٩٥٦ على مصر بالتعاون مع حكومة جي موليه - الاشتراكية الفرنسية - وحكومة إيدن.. وتظهر الصيغة الكولونيالية التقليدية للكيبوتز في مراحله الأولى في أسلوب استخدامه للأيدي العاملة المحلية (الفلسطينية) وكان المليونير اليهودي إدوار روتشيلد أول من طبّق على نطاق واسع استغلال الأيدي العاملة الرخيصة في الجزائر، وطبّق ذات الأسلوب في فلسطين.

ولم ينته استخدام الفلسطينيين في الكيبتز إلا بعد وصول أعداد كافية من المهاجرين اليهود إلى فلسطين.

وقد شاهدت، في الكيبوتز الذي قضيت في "فندقه" ليلة في طريقي إلى الجولان، شاهدت التطبيق العصري -إن جاز التعبير - لأسلوب استخدام الأيدي العاملة الرخيصة، وذلك بجلب المتطوعين من الشباب الغربي، وحتى من بيض جنوب أفريقيا للعمل فترة الصيف.. أو بشكل شبه دائم.

ترددت في البداية حينما عرض زملائي من التلفزيون الهولندي أن

نقضي الليلة في كيبوتز.. فقد وصلنا في المساء إلى منطقة الجليل حينما انطلقنا في الصباح - غير المبكر - من حيفا.

ترددت لعدم راحتي النفسية. فأنا حتى الآن لم اقض الليل في "مكان" إسرائيلي!

لكني حسمت ترددي. ففي النهاية؛ كنت أريد أن أرى الكيبوتز من الداخل.. ولعلي واحد من القلائل العرب الذين أتيحت لهم هذه الفرصة.. فالكيبوتز يقبل فقط المتطوعين، الذين ذكرت جنسياتهم.. كما عرفت بعد ذلك. وهو واحد من الأماكن المحرمة على الفلسطينيين تماماً مثل المستوطنة.

الكيبوتز الذي أقمت فيه، اسمه كفر بلوم.. وكما عرفنا في اليوم التالي - بالصدفة - القصة المدهشة وذات الدلالة العميقة للعقلية الإسرائيلية في اختيار الاسم.

بعد أن قضينا الليلة وأفطرنا، قررنا أن نتجول بعض الوقت في الكيبوتز - بناء على طلبي - للتعرف على نشاطه وجغرافيته.

التقينا بالقرب من البيوت السكنية، والتي تبعد مسافة لا بأس بها عن الفندق السياحي بسيدة عجوز قالت أنها من اسكتلندا.

البيت الخشبي الذي تقيم فيه يشبه البيوت التي تبنى على عجل في مناطق الكوارث. بيت من طابق واحد، ومنقسم إلى "شقتين" وأمام كل شقة حديقة منزلية صغيرة لا تتجاوز مساحتها بضعة أمتار. المكان كله يوحي بالانقباض، خاصة وقد رأينا ونحن نتجول المخابيء المخصصة لأعضاء الكيبوتز في حالة الغارة عليهم (من السوريين بالطبع!) مخابيء مموهة ومرقمة.

ثم ظهرت هذه السيدة فجأة بالقرب من باب مسكنها ومعها دراجتها (ذات ثلاثة أطر). ابتسمت محيية، واقتربنا منها نحن سألها واحد منا عن دلالة اسم "بلوم" فأجابت ضاحكة " أوه.. هذه غلطة قديمة لم نتمكن من تصحيحها منذ الأربعينات".

والحكاية أن هذه السيدة في أيام شبابها في الأربعينات، تركت قريتها الصغيرة في اسكتلندا، وذهبت إلى لندن بحثاً عن عمل هناك عرفت بخبر الوكالة اليهودية (أيامها كان من الممكن السماح لغير اليهود بالعمل في الكيبوتز نتيجة للنقص الشديد في اليهود المهاجرين) وهكذا وجدت نفسها مع مجموعة من البشر على أرض فلسطين يحدوهم جميعاً الحلم الرومانسي في تحقيق الاشتراكية على الأرض كما قالت بذلك منشورات الوكالة اليهودية.

جاء وقت اختيار الاسم.. فاقترح أحدهم اسم "بلوم" وهو يهودي (كان رئيساً لوزراء فرنسا في الحرب العالمية الثانية) وقد تواترت الأنباء بالقبض عليه وإعدامه.

"وهكذا".. قالت السيدة "اخترنا اسم بلوم، ثم عرفنا بعد ذلك أنه لم يتم القبض عليه أو إعدامه، وإنه كان مختفياً وحياً يرزق"، ومع ذلك لم نغيّر الاسم !".

أدهشتني القصة في ذاك الصباح الجليلي الرائع، وأخذت أفكر - صامتاً - في دلالتها.

شابة اسكتلندية ترمي بها ظروف البحث عن عمل - بالإضافة إلى رومانسيتها بالطبع - على أرض فلسطين.. على أرض لأناس لا تعرفهم ولا تعرف عنهم شيئاً سوى ما تقوله لها الوكالة اليهودية. تتزوج

وتنجب (كما قالت لنا) ويموت زوجها، وتدفنه هنا في مقبرة الكيبوتز، وتواصل العيش في كيبوتز يحمل اسماً جاء اختياره نتيجة لخبر غير صحيح. يكتشفون الحقيقة بعد ذلك، لكنهم يواصلون ما بدأوه دون تصحيح!

الوكالة اليهودية "تجند" الراغبين في العمل.. المتعطلين والبسطاء الرومانسيين وتلقي بهم فوق أرض فلسطين، يبنون حياتهم على.. كذبة. وحينما يكتشفون الحقيقة، يرفضون تصحيحها.

كفر بلوم.. والكفر في لغتنا العربية، هو المكان السكني - وغالباً - الفلاحي، لمجموعة من الفلاحين وغالباً ما يكونوا من عائلات قليلة وغالباً ما يمتون لبعضهم بصلة القرابة أو النسب أو كليهما، يعيشون في "الكفر" الذين ولدوا فيه، ومدفونة في باطن أرضه عظام أسلافهم، وبالقرب من مجرى المياه، ستجد في الغالب مقاماً أو أكثر لولي الكفر وشيخه.. الذي اتخذ الكفر اسمه منه.

عشرات "الكفور" التي أعرفها في ريف مصر. زرتها في مواسمها.. أي موالد شيوخها وأوليائها، وشربت الشاي والقهوة، وطعمت، مع الأهالي البسطاء.. الذين لم يغادر معظمهم الكفر منذ ولادتهم حتى يومهم الأخير. لم يستولوا على أرض أحد وأما الأبراج الوحيدة المقامة في الكفر فهي أبراج الحمام!

كفر بلوم يقول عن نفسه في النشرة التي توزع مجاناً عند التسجيل في الفندق: الجليل! حيث ما تزال المياه تتدفق بحرية!

أية مياه؟! فهناك مياه نهر الأردن وهناك مياه نهر بانياس وهناك أيضاً مياه نهر الحصباني.

هذه هي مناطق الحرب المقبلة وأسبابها.. حروب المياه كما يتنبأ الخبراء العسكريون الاستراتيجيون!

فلنلق نظرة أخيرة موثقة على كيبوتز كفر بلوم من واقع الوريقة التي حصلت عليها من "الاستعلامات"

"اتخذ الكيبوتز اسمه تذكاراً لـ "ليون بلوم" وهو يهودي واشتراكي ورئيس سابق لوزراء فرنسا. وقد تأسس عام ١٩٤٣

"وقد انتظر الرواد الشباب لمدة خمس سنوات حتى استطاعوا الحصول على الأرض والميزانية اللازمة للمستوطنة. وحينما بدأوا العمل في وادي الحلة لم تكن هنالك سوى مستنقعات مليئة ببعوض الملاريا، ولم تكن هنالك طرق أو أشجار أو بيوت، ومعظم الأراض كانت مغمورة بالمياه

"واليوم فإن مساحة كفر بلوم هي ١٢٢٥ أكر ونحن ننتج ١٢٠٠ طناً من الفواكه على مساحة ١٠٠ أكر من البساتين وننتج أجود أنواع القطن على مساحة ٧٠٠ أكر ونمتلك ٥٧٠ رأساً من الأبقار والأغنام المدرة للبن تنتج ٢٠٧ مليون لتر سنوياً. ومن الدواجن ننتج ٦٠٠ طن من اللحوم للبيع في السوق، ونحن نزرع عباد الشمس انتاج الزيت، وننتج الجريب فروت الأحمر المطلوب في الأسواق الأوروبية. وبالنسبة للفندق؛ بدأنا ستة غرف فقط ليصبح عندنا الآن ١٠٩ غرفة مجهزة بالتكييف والتلفزيون والتسهيلات الأخرى.

"وعدد أفراد مجتمعنا هنا ٦٠٠ شخص منهم ٣٠٠ عضو، ٢٠٠ طفل ويوجد حوالي ١٠٠ مقيم بشكل مؤقت بما فيهم المتطوعون للعمل الذين قدموا من خارج البلاد.

"ويوجد عندنا مدرسة أولية عدد تلاميذها ٣٥٠، ومدرسة ثانوية عليا

عدد تلاميذها ١٣٠٠ ومسرح عدد مقاعده ٦٥٠ مقعد وثلاث مكتبات وأرشيف ومتحف ومعبد".

أما ملاحظاتي فهي: الكذبة المتوارثة حول وصول "الرواد" إلى أرض بدون شعب! وعدم ذكر الحقيقة حول بلوم.. وبالطبع لا توجد سيرة عن المخابيء والعدو المتربص. وهكذا "ازدهرت وترعرعت" هذه "المستنقعات" بفضل الرواد الذين اعترفت الورقة أنهم "بنوا مستوطنة".. وكما هو معروف أن المستوطنات تقام عادة على أرض فلسطينية مأهولة وخاصة أن مساحة كفر بلوم مهولة!

وبالطبع فإن المتطوعين يشكلّن ثلث عدد الكيبوتز.

قال واحد من الزملاء الهولنديين إنه في صباه الغابر البعيد قدم إلى إسرائيل ليعمل متطوعاً في كيبوتز.

ما قاله كان مفاجأة للجميع. أمطرناه بالأسئلة.

قال: كان الكيبوتز في ذلك الزمان (في السبعينات) ما زال يمثل للشباب الغربي الغاضب على المؤسسة الحاكمة وخاصة أيام حرب فيتنام.. كان الكيبوتز، بل وإسرائيل كلها تمثل الطريق الرومانسي الوحيد للحرية. الحرية السياسية في إسرائيل واحة الديموقراطية وسط الصحراء العربية الديكتاتورية. والحرية الجنسية في مرحلة انهيار المنظومة الأخلاقية الغربية المتشددة بسبب حرب فيتنام، وظهور الهيبيز كاحتجاج على "المؤسسة".. ثم خذ عندك أيضاً الواحة الاشتراكية في الكيبوتز وسط أدغال العالم الرأسمالي - البترو دولاري.

وهكذا أتى صاحبنا ومعه آلاف مثله بين السادسة عشر والعشرين بنات وصبيان يدفعهم حلم الحرية والتمرد. يخضرون الصحراء في

النهار، ويمارسون الحب ليلاً تحت ضوء القمر، والحارس يقف فوق البرج يراقب البدو المتخلفين الذين يريدون تحطيم كل هذه الأشياء الجميلة.

حينما كنا نتعشى في حديقة الكيبوتز، المكتظة بالسواح (كنا نقترب حثيثاً من الويك إند اليهودي) تجاذبنا أطراف الحديث مع البنات اللاتي يقمن بخدمة الموائد. واحدة "بيضاء" من جمهورية جنوب أفريقيا، يمتلك والدها مزرعة لتربية النعام (لأغراض تجارية) جاءت إلى إسرائيل، لتعمل في الكيبوتز (بلقمتها) ومصروف جيب شهري ٢٥٠ شيكل وهو مبلغ أقل من مائة دولار(علماً بأن إسرائيل تفوق الولايات المتحدة في ارتفاع الأسعار نتيجة للتضخم. فنجان القهوة العادي بحوالي ثلاثة دولارات).

وبنت أخرى من ولاية صغيرة في الغرب الأمريكي.. وهكذا يعملن لمدة ثلاثة شهور وهي شهور الصيف و"الموسم" ليرجعن إلى بلادهن بخبرات مختلفة. الاثنتان قالتا (همساً) أنهما لن تواصلان العمل هنا في إسرائيل. واحدة سوف تواصل السفر حتى الهند، والأخرى إلى أفريقيا.

البنات اللاتي ينظفن الغرف يتحدثن بالروسية. الرجال والشباب الذين يعملون في الحديقة يتحدثون بلغات أوربية مختلفة. المشرفة على المطعم إسرائيلية وكذلك العاملون في أمن الفندق وفي الاستقبال.

قال لنا الزميل الذي عمل في الكيبوتز: إن تطور الوضع الاقتصادي فرض على معظم "الكيبوتزات" أن تقدم خدمات فندقية.. كجزء هام من الاستثمار، لأن التجربة العملية أثبتت فشل الكيبوتز في الاستقلال الاقتصادي معتمداً فقط على المنتجات الزراعية. وطبقاً لمعلوماته، فهناك عدد قليل فقط من الكيبوتزات، تحقق ربحاً من الزراعة أو من التصنيع

الزراعي وتصنيع أشياء لا علاقة لها بالزراعة (هناك أكثر من كيبوتز يصنّع العدسات المجهرية!) والتمويل الأساسي يأتي من الدولة، التي تعفي المنتجات الكيبوتزية من الضرائب، وتقدم قروضاً كبيرة طويلة الأمد بدون فوائد.

وإذا علمنا أن هناك معركة بدأت مؤخراً بين السوق الأوروبية وإسرائيل حول منتجات الضفة الغربية، والكيبوتزات المقامة على أراضي الاحتلال (علماً بأن السوق الأوروبية، تقدم لإسرائيل معاملة خاصة) وإن هذا الاختلاف سببه "صحوة" الضمير الأوروبي المفاجئة الذي قرر "مقاطعة" هذه المنتجات وبالتالي كان رد فعل نتانياهو الرسمي "صيحة الحرب على أوروبا!" هذه المقاطعة تعني أن السوق الأوروبية والغربية بشكل عام كانت تدعم فلسفة الكيبوتز وفلسفة إقامة المستوطنة الزراعية على أراض الجولان التي تقع تحت الاحتلال، ذلك بشراء منتوجاتها الزراعية باليد اليمنى، وتأييد حق سوريا في استرجاع أرضها - باليد اليسرى! تطبيقاً لقول المسيح "لا تجعل يدك اليمنى تعرف ما تقوم به اليسرى" وكان المسيح يقصد شيئاً آخراً حول عدم التباهي بالكرم والعطاء!

لو تمت مقاطعة هذه المنتجات، فسيكون هذا أحد عوامل الضغط الاقتصادية الهامة على حكومة نتانياهو. أقول، لو!

حينما وضعت حقيبتي في السيارة لنرحل عن " كفر" بلوم، الذي يحيط به الأسلاك الشائكة وأبراج المراقبة، والذي ما يزال يدعّي الاشتراكية بين أفراده، رجعت بذاكرتي إلى سور برلين - فقد رأيته في "ازدهاره" - حيث تم بنائه لحماية الاشتراكية الضعيفة خلفه. لكن الناس خلف السور لم تتحمّله، رغم مزايا الاشتراكية التي خلفه، فحطمته حطمّت الحلم

الرومانسي الذي دفع عدد من الناس حياتهم في سبيله وعدد آخر حياتهم من أجل هدمه! قلت لنفسي - معزياً - هذه ميزة أن يعيش الواحد أكثر من نصف قرن!

دروز الجولان

ما أن تغادر السيارة "كفر بلوم" ونطل على "المطلة" ورأس الناقورة اللبنانية.. وننطلق مسافة قصيرة حتى نبدأ في الصعود إلى الجولان.

انتابني شعور غريب، فها أنا أطل على الأراضي السورية المحتلة من ناحية إسرائيل.

في العام ١٩٩٦ كنت في دمشق، وصعدت إلى الرابية التي تشرف على المدينة، وتوجد بها بضعة مقاه، وقال لي مرافقي، لو دققت النظر فسترى المدافع الإسرائيلية في الجهة الأخرى!

وها أنا في "الجهة الأخرى" أطل على سوريا. على الأقل أعرف أين سوريا، والطريق إليها.. من الناحية الأخرى.

معي خارطة شبه تفصيلية أصدرتها مصلحة المساحة الإسرائيلية العام الماضي فقط. أهميتها أنها تحدد مناطق السلطة الفلسطينية طبقاً لما هو مكتوب على الخارطة "الإتفاق الداخلي الإسرائيلي الفلسطيني في ٢٨/٩/٩٥ وبها "المنطقة أ" و "المنطقة ب" بالإضافة إلى خطوط وقف إطلاق النار العام ١٩٦٧، و"خطوط فض الاشتباك بين القوات عام ١٩٧٤" و" الخط الإسرائيلي المتقدم" و"الخط السوري المتقدم".. عرفت بعد ذلك أن معناهما "حدود" إسرائيل والتي هي الخطوط التي توقفت عندها القوتان المتحاربتان فإسرائيل لم تعلن حدودها مع سوريا حتى يتم

التوقيع على معاهدة سلام. حدود إسرائيل هي ما وقفت عنده قواتها! ثم "الخط الإسرائيلي – الأردني لمعاهدة السلام بين البلدين" و "نهاية قطاع غزة " (نهاية وليست حدود!) و "منطقة المستوطنات الإسرائيلية" و"الطريق الموازي لمنطقة المستوطنات" وهو الطريق الذي لا يسمح سوى للإسرائيليين بالمرور عليه!

في البداية.. كانت لبنان

انطلقنا صعداً إلى مستوطنة شمعونة "كريات شيمونا" لنتجاوزها إلى المطلة على "الحدود" اللبنانية حيث ترى الباصات التي ينظمها الصليب الأحمر الدولي لأهالي المعتقلين في معتقل الخيام السيء السمعة. وهذه السيارات موجودة باستمرار داخل معسكرات الجيش الإسرائيلي، تحت رقابته الدقيقة و"حسب مزاجه" أيضاً.. يسمح أو لا يسمح بالزيارة (التي يكون قد تم الاتفاق عليها مقدماً بين الطرفين) ينتظر الأهالي في وقدة الشمس، أو زمهرير البرد.. ينتظرون الإذن.

من المطلة ننطلق صعداً باتجاه الشمال الشرقي لندخل المنطقة الدرزية السورية التي كثيراً ما يهب أهلها ضد سلطة الاحتلال التي تحاول أبداً نزع هويتهم السورية وأن تفرض عليهم الجنسية الإسرائيلية.. محاولة خبيثة للمفاوض الإسرائيلي!

القرية فقيرة، وتحتفظ بقوة بملامحها الدرزية.. الشياب وهندسة البيوت.. واللغة، والملامح بالطبع.

اشترينا كرزاً طازجاً من ولدين يقفان على جانبي الطريق الضيق الخطر لضيقه وازدحام السيارات عليه.

هبطنا من مجدل شمس إلى مسعدة، ومنها إلى القنيطرة. توقفنا للراحة و"لطلة" على ما يقع على امتداد البصر.

خلفنا الجبل الشامخ، عليه أبراج المراقبة الإسرائيلية بالرادار والأليكترونات.

أمامنا – تحتنا بالتحديد على مسافة نصف كيلومتر تقريباً – حطام مئذنة مسجد القنيطرة، والبيوت التي ما زالت علامات النيران السوداء عالقة على أحجارها المتناثرة. بالقرب من الحطام يوجد المركز الرئيسي في المنطقة، لقوات الأمم المتحدة للفصل بين القوات المتحاربة.. مخيم ومعسكر ضخم.. سيارات وشاحنات وعربات جيب ومكاتب يرفرف عليها علم الأمم المتحدة.

ثمة نصب من الحجر (في الجانب الذي أقف عنده) مكتوب عليه باللغتين العبرية والإنجليزية ;كيف الضغط على زر لتستمع " لنبذة وافية عن الجولان والقنيطرة (الكنيتارا) وبالمجان"!

ضغطنا على الزر فجاءنا الصوت النحاسي الذي يشبه صوت المذيع في أفلام الحرب الوثائقية الدعائية.. صوت متباعد آلي، مدع وقاس.

* * *

لم يقل الصوت لنا شيئاً لا نعرفه. قال إن سوريا انسحبت من القنيطرة بعد "أن وضعت الألغام في المسجد والبيوت.. ونتيجة لقرار وقف إطلاق النار أعطت إسرائيل القنيطرة إلى سوريا".

نظرت إلى زملائي متسائلاً أريد أن أتأكد مما سمعته وخاصة كلمة "أعطت".. أكدوا لي ما سمعته.. وبالطبع ابتسمنا لسماعنا حكاية أن

القوات السورية فجّرت المسجد والبيوت..

لكنه لم يقل لنا - الصوت - التعليمات التي أصدرها "رب الجنود" بالنسبة للأسرى والتي هي:

"ومتى أتى بك الرب إلهك إلى الأرض، التي أنت داخلها لتملكها، فإنك تحرّمهم، لا تقطع لهم عهداً ولا تشفق عليهم، ولا تصاهرهم. تهدمون مذابحهم، وتكسرون أنصابهم وتقطعون صواريهم" (التثنية ٧-).

جاء سواح في سيارتين. ثمة عربة نصف نقل متوقفة منذ أن وصلنا تبيع بعض المنتجات السياحية البسيطة يمتلكها درزي في الستين (أو هكذا يبدو بشاربه الأبيض الكث) السواح كانوا يتحدثون العربية بلهجة غريبة عليّ. بنتان وقفتا تتأملان العقود والأساور الزجاجية تسألان البائع - بالعربية الغريبة اللهجة - عن السعر. لم أتحدث معهما أو مع الرجال المرافقين. فماذا أقول ونحن هنا في هذا الموقع؟ "يوم جميل وصحو؟"!

بعد أن غادروا سألت الدرزي - بالعربية - إذا ماكانت عنده قهوة أو مرطبات. أجاب بالنفي لكنه عرض عليّ أن يعزمني على فنجال قهوة من ترمسه الخاص. قبلت. سألني السؤال التقليدي من أين.. فقلت له. سألته بحذر؛ كيف الحال أجاب بحذر أيضاً "ماشي الحال" لم نتطرق في الحديث. سألته إن كان يستطيع الذهاب إلى "الشام" أجاب أن أولاده قد قاموا بزيارتها أكثر من مرة. أما هو فلا يستطيع. تطوع هو بالشرح. قال أنه تجنّد في الجيش الإسرائيلي واشترك في الحرب. لم أستطع اكمال شرب الفنجال الصغير. أحسست بغصة في حلقي. كان هو يتكلم ببعض الأسى (باستهانة أيضاً).

حينما أخبرت زملائي بحوارنا، اندهشوا وقال لي أحدهم "هذا شيء

نادر هنا في المنطقة الدرزية. لقد أرتكب حماقة بلهاء".

بعد ذلك بأيام، تذكرت هذا الكهل الدرزي حينما كنت أتحادث مع ليانا بدر في رام الله وذكرت لي عرضاً إن هنالك حوالي أثنتي عشر ألف "متعاون" فلسطيني مع إسرائيل وأن هناك بند في إتفاق أوسلو يشترط على السلطة الفلسطينية عدم ملاحقتهم، بل إن إسرائيل تبني لهم الآن مستوطنة خاصة بهم.. "غيتو" - تطبيقاً للتقليد اليهودي العريق - لتكومهم فيه ذات يوم قريب!

من المؤكد أن هذا الدرزي من المتعاونين ومن المؤكد أيضاً أنه من المنبوذين في قريته.. يقف بسيارته المتهالكة على مشارفها.. يبيع التذكارات للسواح الذين يتفرجون على المئذنة المحطمة والبيوت المحترقة في القنيطرة.. أية حياة تعسة!

من القنيطرة دخلنا في طرق جانبية صغيرة، أحياناً تلامس "الحدود" المكهربة والمراقبة الكترونياً، وأحياناً تبتعد عنها بين وقت وآخر وعلى مسافات متقاربة، تبرز لنا "أنصاب" أقامها الجيش في "ذكرى من سقطوا في المعارك مع القوات السورية" والمعروف أن القوات السورية حاربت هنا ببسالة. هذه هي ميادين المعارك إذن! أرض "محروقة" جرداء كالحة، ومقبضة. لا تختلف كثيراً عن ميادين المعارك التي رأيت بقاياها في سيناء وممراتها. الدبابات المحترقة والمنكفئة على جنازيرها. الخنادق المحفورة في الجبل والمواقع الحصينة المهجورة. عشرات سيارت الجيب، لم يبق منها سوى هياكلها المعدنية الصدئة، بعد أن ابتلع الموت أو الصحراء أو كلاهما البشر الذين كانوا فيها.

أي قدر من الأفلام الوثائقية السينمائية، يمكنها أن تعطي هذا

الإحساس بالأرض اليباب.. بالقفر الذي امتلأت أجواءه بصيحات الألم وبالنداءات والتوسلات الأخيرة.

تعرجنا في طريقنا غرباً وجنوباً نريد أن نقترب من بحيرة طبرية (نبتعد عن أرض الأشباح هذه) أو كما تسميه الخارطة بحر الجليل الذي تطلق عليه الخارطة "يم كينيريت" أليست هي كلمتنا العربية "اليم"؟

نريد أن نلامس "الحدود" الأردنية في أغرب نقاطها.. نهر الأردن، الذي تقسمه الخارطة في منتصفه بالطول، كعلامة للحدود بين البلدين!

المنطقة موحشة ومهجورة، إلا من دوريات عسكرية إسرائيلية، أو سيارة جيب لمستوطن مسلّح. وبين وقت وآخر نعبر عن بعد مستوطنة مسورة بأسلاك شائكة وجدران حجرية عالية، يعلوها برج مراقبة.

تصيبني الدهشة حينما أرى قطيعاً من الماعز والأغنام، وجد لنفسه "معبره" الخاص به تحت الأسلاك الكهربية الشائكة، يعبر من سوريا أو الأردن إلى الأرض التي كان يرعى فيها قبل الاحتلال.. تقوده أشياء غامضة في خلايا دماغه وذاكرته البالغة الخصوصية.

وصلنا إلى مخاضة صغيرة بالقرب من المنبع المتواضع لنهر الأردن، والذي كنت لم أره لولا صياح الزملاء خبراء قراءة الخرائط.

تذكرت ساعتها الميلاد الأسطوري الصاخب لنهر النيل (آبي، كما يسميه الأحباش وهو اسمه الفرعوني) وأنا في الطائرة الهيلوكبتر العسكرية لجيش منجستو هيلا ماريام قبل هزيمته المدوية وهروبه. كان قسم الدعاية قد استضاف مجموعة من الصحافيين كنت واحد منهم، وذلك لنرى كيف تم تحرير أسمرة (من أهلها بالطبع!) قالوا لنا لكي يزيدوننا حماساً فقدناه بعد اكتشاف أكاذيب النظام إننا سوف نشاهد اللحظة

الخالدة، والمكان الأبدي لمنبع النيل من جانبه الحبشي.. النيل الأزرق.. وبالفعل رأيت ما لا يمكن وصفه إلا باستعارة ما كتبه منذ أكثر من نصف قرن الكاتب النمسوي أميل لودفيج في كتابه الرائع "النيل"..

"يولد كقصيدة من رذاذ صاخب وعجيج مياه أتي بها السحاب من سماء جبال القمر".

بالقرب من المخاضة توقفت السيارة لنشاهد "المعمدانيين" الذين يأتون كل يوم أحد من أقاصي الأرض (بعد أن يجتازوا بنجاح أسئلة المستجوبين الإسرائيليين في المطارات المختلفة) ليمارسوا ذلك الطقس الغامض، الذي بدأه "يوحنا الشهير بالمعمدان" في نهر الأردن، كما يقال في هذا المكان(!)

تقول الآية "وجاء يسوع من الجليل ليتعمّد على يد يوحنا.. وتعمّد يسوع وخرج من الماء.. فرأى روح الله يهبط كأنه حمامة وينزل عليه".. إلخ.

ولعل الصابئة اتخذوا من "المعمدانيين" طقس الماء فبنوا معابدهم على جداول المياه الجارية. وبالمناسبة فإن طقس الماء طقس "ديني" تطهري قديم قبل اليهودية وقبل المسيحية.. هو طقس فرعوني حيث كانت "البحيرات المقدسة" في قلب المعابد تستمد مائها، ويهبط إليها الفرعون والكهنة ليتطهروا قبل أداء فرائضهم. مثل البحيرة المقدسة الشهيرة في معبد الأقصر..

أريد أن أشير هنا، إلى أن أرض فلسطين مليئة حتى حافتها بالتذكارات التي تعتبرها البشرية من كافة الأديان والمعتقدات.. مقدسة بالنسبة لها؛

الديانة الإبراهيمية والمسيحية، والإسلام، حتى المعتقدات الأخرى مثل البهائية يوجد لها في حيفا "المركز العالمي للبهائية" وفي عكا يوجد "قبر البهاء وضريحه".

وها هو نهر الأردن مهما كان من شأن منبعه، هو النهر المقدس للعديد من الطوائف المسيحية وخاصة طائفة المسيحيين السود، التي تستخدم في أغانيها وابتهالاتها جملة "لنعبر نهر الأردن ونلقي بأحمالنا على الرب".

نحاذي نهر الأردن بعض الوقت ونرى على الجانب الأردني، البيوت والقرى والضيعات الأردنية. هنا تختلط الأرض بشكل طبيعي هنا يستطيع الواحد أن يفهم، العبور العظيم التراجيدي لعشرات الآلاف من الفلسطينيين "عبور نهر الأردن" في انتظار العودة التي طالت وهم يحملون مفاتيح بيوتهم في مناديلهم.

يستطيع الواحد أن يفهم أيضاً "نفسية" هذه الأرض - إن جاز التعبير - هذه الأرض كان يتحرك عليها، وفوقها الأسلاف، بحرية وبدون حواجز، دارت فوقها معارك - أصبحت تاريخية فيما بعد، مثار فخر أو مبعث خجل - غزاة من البرابرة.. مغول وتتر، ومسيحيون يحملون علامة الصليب والإنجيل، فرنسيون، وبريطانيون وجميعهم يدعون أنهم قدموا لتحريرها! مثل آخر الغزاة الذين يحتفلون هم، أيضاً بيوم تحريرها.

وبالطبع.. صلاح الدين.. ثم الفالوجة.

يستطيع الواحد، أن يفهم هذا الصراع الدموي على أمتار قليلة مربعة. فكل متر يعني لأصحابه شيئاً خاصاً لا يمكن التنازل عنه.

هذه الحدود المتلاحمة - ولا أقول المتلاصقة - بين لبنان وسوريا والأردن.. وفلسطين ومصر.

فالمسافر بالسيارة من القاهرة، يستطيع في غضون خمسة ساعات (قمت بالرحلة عدة مرات) أن يصل عبر الطريق البري و نفق الشهيد أحمد حمدي تحت قناة السويس وعبر الممرات في سيناء حتى آخر نقطة بأرض مصرية في الجنوب على هذا الجانب وهي طابا.. وإذا ما اتجهت إلى المعبر الذي هو عبارة عن بضعة مبان للحدودين من الجانبين ستجد نفسك داخل فلسطين في دقائق.

وفي أقصى الشمال المصري ستجد نفسك أيضاً عند معبر رفح الذي لا يبعد عن القاهرة أكثر من ست ساعات ومنه إلى غزة..

هذا بعكس حدود مصر الجنوبية مع السودان الذي تفصلها عنه صحاري ومياه نهر النيل.. أو الصحراء الغربية مع ليبيا وهي حدود طويلة أيضاً.. تقوم الصحراء الغربية الكبيرة بدور الحاجز الطبيعي بين المدن والعمران!

هذا التلاحم بين الحدود اللبنانية والسورية والأردنية يفضي بك، إذا ما توجهت جنوباً بميل إلى الغرب، إلى المدينة التي لا تنازعها شهرة، مدينة في العالم.. لاسياسياً ولا دينياً ولا تاريخياً.. القدس. رغم أن مساحة المدينة القديمة المقدسة لا تتجاوز الكيلومتر المربع الواحد!

يندهش الواحد أيضاً من قصر المسافات التي تربط بين القدس والقنيطرة مثلاً..

فمع الاستراحات القصيرة في الطريق، أكثر من مرة، وجدت نفسي في القدس قبيل الغروب (كنّا مقابل القنيطرة في الظهيرة) متجهاً إلى

الفندق اللطيف التاريخي "أميركان كولوني" ذي الطراز العربي الباذخ لنلتقي بالصديق الهولندي وعائلته، حيث أمضوا ليلتهم في بيتهم الآخر الصغير في غزة، وينتظروننا الآن -أنا بالتحديد - لكي استقل معهم السيارة في طريق عودتهم إلى منزلهم في يافا.

هكذا وصلنا - في أمان الله! - إلى الأميركان كولوني، لنحتسي مشروباً بارداً.. كانت الحرارة قد وصلت إلى أكثر من خمسة وثلاثين درجة.. ولنسافر بعدها إلى يافا (لمدة أقل من ساعة) لأستريح.. أتجهز لرحلة الغد. دخولي للمرة الأولى في حياتي - وفي هذه الرحلة - أراضي السلطة الفلسطينية.. المحررة!

على الأقل لاحظت هنالك، بعد ذلك،، عدم الوجود الاستفزازي للجنود الإسرائيليين. سوف يرى الواحد الجنود الفلسطينيين، والعلم الفلسطيني، ولن ترى أبداً كلمات أو إشارات إرشادية أو تعليمات بالعبرية!

هي المنطقة " أ " والتي تعرّف بأنها "مسئولية إشراف فلسطينية على الشئون المدنية، والأمن الداخلي، وحفظ النظام العام".

أما المنطقة "ب".. فهي "مسؤولية فلسطينية على الشؤون المدنية وحفظ النظام العام على الفلسطينيين، بينما تشرف إسرائيل على أمن الإسرائيليين".

هذه هي أوسلو على الأرض. على أرض فلسطين.

أيام فلسطينية ـ ٢

غزة

أيام الدراسة الجامعية، القاهرية، كان لي زميل غزاوي "يقرض" الشعر. أذكر شطرة واحدة من قصيدة له تقول "غزة ولها في القلب غزة" حاولت أن أتذكر اسمه الآن.فشلت. اختفى فجأة أثناء الدراسة. وها أنا اليوم - الآن - في غزة (وفي القلب غزة) بالفعل. أني أعاني من هذا الشعور المقبض الذي يصيبني بالأسى ؛ أني وصلت متأخراً إلى هذه المدينة البالغة الخصوصية. وصلت متأخراً أكثر من ثلاثين سنة !الحكاية بدات قبل حرب السبعة وستين بسنوات قليلة، أعتقد بعد الإفراج عني وعن بقية زملائي من معتقل الواحات في عام أربعة وستين كان معنا في المعتقل بعض الغزاوية، أذكر منهم المرحوم الشاعر معين بسيسو. الإدارة المصرية أيامها قررت اعتقال اليساريين والماركسيين المصريين، وإعتبرت الماركسيين الغزاوية، تبعها أيضاً مادامت غزة تحت الحكم الإداري - العسكري المصري منذ ايام الانتداب البريطاني على فلسطين.

قررنا أنا ومجموعة من الزملاء السفر إلى غزة لنطل عليها.. لأن غزة أيامها كانت مشهورة في السوق السوداء و الرمادية المصرية لسبب خارج عن إرادتها، السبب أن المهربين المصريين، كانوا يحضرون بضاعة من غزة ويبيعونها في الشوارع الجانبية القاهرية بالقرب من ميدان طلعت حرب (مؤسس النهضة الاقتصادية المصرية).. لكن لم أذهب إلى غزة، وظللت

طوال ثلاثين سنة أحوم على تخومها القريبة والبعيدة ولا أملك أن أدخلها.

وهاأنا اليوم أدخلها في عربة تابعة للأمم المتحدة! لكي نصل إلى غزة لابد من المرور عبر شبكة الطرق القديمة. علينا إذن أن نسافر من يافا الساحلية باتجاه الجنوب الغربي على الطريق الرئيسي الموازي للساحل ومدنه الشهيرة مثل أشدود، وعسقلون. وهو طريق سريع، يستخدمه الدبلوماسيون والإسرائيليون - عدا العرب -! لأنه يمر بمجموعة من المستوطنات وبالتالي على العديد من الحواجز ونقاط التفتيش العسكرية الإسرائيلية!

غيّر الإسرائيليون اسم غزة. لم يفتح الله عليهم كثيراً. أصبح اسمها "أزاه " فالعبرية تفتقد كثيراً من الحروف الصوتية الموجودة في العربية مثل العين والغين والسين.. الخ

الحاجز الذي اقتربنا منه بتمهل هو حاجز "أريز " الخارطة إياها تحدد غزة بخط أخضر سميك. تسميه "نهاية قطاع غزة " ولا حدود، ولا اوسلو. مجرد نهاية.هذه "النهاية "من الشرق تطل على بير السبع، وعلى صحراء النقب الشهيرة لوجود مفاعل "ديمونة "الذري بها. لكنها من الغرب لا تنتهي بل تتواصل مع مصر بواسطة رفح المصرية التي تتعانق مع شقيقتها رفح الفلسطينية في أقصى الجنوب الغزاوي.

ذات سنة وأعتقد أنها ١٩٨٣ بعد عودتي من لبنان قاد صديقي الرحالة المهندس أحمد هشام قافلة من السيارات المتهالكة باتجاه سينا باتجاه شرم الشيخ التي كانت وقتها، مجرد قرية - متهالكة أيضاً - قبل تحويلها إلى منتجع سياحي خمس نجوم. وقدنا سيارتنا المتهالكة باتجاه الشمال إلى العريش حيث اتجهنا إلى رفح، وقفنا بعض الوقت بالقرب

من الحاجز الذي يفصل بين الرفحين. من جانبنا كانت مجموعات من الأهالي تحاول التحادث - المستحيل- مع مجموعات أخرى تقف في الناحية الأخرى من الحدود.. في رفح الفلسطينية. عرفنا ان هذا طقس يومي من الصياح المتبادل يمارسه الأهل والأصدقاء عبر الحدود. وقتها كان العلم الإسرائيلي يعلو برج المراقبة في الناحية الأخرى من الحاجز.لم يعد الآن بالتأكيد.

البنت الإسرائيلية التي استجوبتني في مطار أمستردام سألتني عن المناطق التي سأزورها. قلت لها ضمن ما قلت "غزة "سألتني إذا ما كنت سأذهب من هنالك إلى مصر، فأجبت بالنفي.لماذا.. سألتني عن سبب عدم ذهابي ؛ قلت لها، أني عادة أزور مصر في الشتاء.

قال لي فرديناند معابثاً قبل أن نقترب كثيراً من الحاجز العسكري : تستطيع أن تخطف رجلك وتذهب إلى رفح ومنها إلى مصر .قلت له: لكن مازلنا في عز الصيف وعلى كل حال مين عارف..ربك كبير. كنت مشغولاً بمراقبة السيارات التي أخذت تبطيء الآن لتتوقف أمام الحاجز العسكري على معبر آريز، ليترك الجنود الإسرائيليون بكسل وبطء متعمد، ليتناولوا الأوراق "الثبوتية "كما يقول أهل فلسطين، ويتمخطرون باتجاه المكتب، ليرجعوا بنفس الخطوة، يسلمونك الأوراق وتتحرك السيارة بضعة أمتار لتقف مرة أخرى أمام جنود آخرين، ليعاينوا في الأوراق مرة أخرى، ويطلبوا من فرديناند أن يأتي معهم إلى المكتب وبقيت في السيارة أتفرج على ما يحدث ليأتي فرديناند ضاحكاً، يطلب مني النزول والتوجه معه إلى المكتب.حينما يرى توجسي يقول ؛ إنهم مرتبكين أمام اسمي خاصة أن جوازي هولندي. الحكاية وما فيها أن اسم

الوالد "مسعد "ولابد من توخي الدقة حين كتابته بالحروف اللاتينية، وإلا تحول إلى "موساد! "لابد من وضع فاصلة لاتينية، بعد حرفي الـ A اللذان أصر عليهما.

في غرفة المكتب تجلس مجندة (بالمناسبة أعمار الجنود تبدأ من الثامنة عشر) لايتجاوز عمرها العشرين، مثل زملائها ايضاً. وجميعهم في الكاكي لأن قانون التجنيد الإجباري ينطبق عليهم.

الغرفة ليس بها مقاعد. هذا مقصود بالطبع، لأن المطلوب هو أن تقف طوال الوقت الذي تجيب فيه على الأسئلة. المطلوب ان تحس أنك متهم وأنهم يحققون معك. المطلوب أن تحس أنك اقل منهم. لكن على مين!؟ فصديقي المدرب على التعامل معهم منذ سنوات بعيدة حينما كان يعمل في قوات الطوارئ في لبنان والآن بصفته "ديبلوماسي " أمم متحدة، يعمل في غزة منذ أكثر من ثلاث سنوات ويعبر الحاجز خمسة أيام في الإسبوع ذهاباً وإياباً.. يعرف اللعبة والملعوب!

وأنا خرّيج سجون.

ركبنا السيارة مرة أخرى باتجاه الحاجز الفلسطيني، حيث يجلس"الشباب "على راحتهم، فوقهم العلم الفلسطيني خفاقاً وتحته صورة أبو عمار وفي أيديهم سلاحهم. تباطأت السيارة و صاح صاحبي بالعربية "يعطيكو العافية "أشاروا له بالعبور وقال واحد منهم "بالسلامة! "

هكذا ببساطة.. ادخل منطقة السلطة الفلسطينية من خلال بابها الثاني.. الفلسطيني.

الطريق الجميل المعبّد من الحاجز إلى الداخل، على أحدث طراز.قال

لي : في البداية لم تكن هناك طرق. بعد وصول السلطة بدأ العمل – حقيقة – في البنية التحتية.الطريق اسمه شارع الأمم المتحدة، لأنه يقودك مباشرة – عبر بعض التعرجات البسيطة – إلى مجمّع مبان الأمم المتحدة، التي كانت في تلك الساعة (حوالي الثامنة والنصف) مثل خلية نحل.

قادني فرديناند عبر الممرات، بقدمني إلى زملائه "كاتب وصحافي من مصر "فينظرون بدهشة مؤدبة وفضول مكتوم، ويبتسمون ويرحبون بي بالعربية والإنجليزية والفرنسية.

ونحن نصعد إلى الطابق الثاني حيث عمله، لمحت على الدرج مجموعة من الصور الفوتوغرافية والتي تصور فلسطين القديمة قبل الانتداب، وأثنائه :مكتب البريد. رجال الشرطة فوق جمالهم. فتيات يحملن المياه من النبع..الخ. قال لي إن هنالك مصوراً أرمنياً، مازال أولاده وأحفاده يتوارثون المهنة، عنده هذه الصور وما يزال الاستديو تبعه في القدس الشرقية. من نافذة مكتبه أشار إلى سور عال وقال ؛ هذا مقر أبو عمار. كان في السابق مقر الحاكم المصري. قلت في سري :دنيا !اتفقنا أن أتركه لعمله وان أخرج أتمشى في المدينة وأرجع بعد ساعة.

طمأنني أني لن أتوه (وهو الذي يعرف علاقتي بالاتجاهات) وقال إذا ما ضعت، إسال عن قصر الختيار!

وهكذا بدأت يومي الأول في منطقة السلطة الفلسطينية بالتمشي على مهلي في غزة، وليست لي خطة سوى هدف وحيد أن أجد مقهى. على مفارق الشارع كان هناك حاجز فلسطيني، وعليه لافتة :قوات أمن الـ ١٧ من عاش في بيروت يعرف أمن السبعتاشر المرهوب الجانب والموكل اساساً بحماية أبو عمار. شممت البحر. ترددت قليلاً، هل انحرف لليمين

أو اليسار. قررت اليمين، لأن اليسار لم يوح لي بحركة أسواق أو مقاه. صدق حدسي، فأهل اليمين يعرفون الاستمتاعات البسيطة بالحياة.

ظهرت بالفعل مجموعة من "الكازينوهات "وهي ذات التسمية التي تصادفها في الإسكندرية إذا ما سرت على الكورنيش. مبان مبنية داخل لسان البحر تقدم المشروبات الخفيفة في الصباح والأرجيلة وبعض الأكلات البسيطة، لبدء السهرة في المساء، لكن بالطبع حسب الأصول بدون تجاوز الخطوط الحمراء. سرت على مهلي لم أحسم أمري. اسم كازينو ظهر لي فجأة حسم الموقف.

"كازينو ومطعم أبو حصيرة " "ابو حصيرة "هذا له حكاية معنا في مصر وخاصة أهل دمنهور- محافظة البحيرة. ثمة ضريح لولي هناك اسمه ابو حصيرة المغربي. سره باتع، يقضي الحاجات لأصحابها الذين يسالونه بتواضع وإيمان، وخاصة النسوة العواقر. بعد معاهدة السلام بين السادات وبيغن، قال الأخير للأول "عندي طلب يارئيس " فأجابه هذا "غالي والطلب رخيص يارئيس الوزراء ".. كان الطلب البسيط الرخيص هو السماح للإسرائيليين بزيارة الولي الشيخ أبو حصيرة، فقد اكتشفوا أنه ولي يهودي. وعندما توافد أول فوج من الحجاج اليهود " كانوا يرتدون الثياب السوداء إياها ومعهم زجاجات من الخمر "ودخلوا مقام الشيخ هاجت البلد وهجم رجالها ونساؤها على الحجاج يريدون الفتك بهم وكاد أن يحدث ما لاتحمد عقباه لولا تدخل الشرطة، فجاءت العقبى معقولة وإن كانت غير حميدة. هناك صورة نادرة للحجاج الإسرائيبين فوق ضريح الشيخ ابو حصيرة الدمنهوري وهم يذبحون معزة (أو تيساً) فوق الضريح، التقطها السفير الهولندي الأسبق لمصر

وضمنّها كتابه "مصر: موالد ومتصوفة وقديسون" قلت لنفسي، وتدبرون فتضحك الأقدار. هاهو أبو حصيرة يظهر في غزة، سألتقط صورة للمبنى واللافتة من الخارج وأعطيها لصاحب الكتاب الموالدي لعله يفرح. وقلت لنفسي - أيضاً - سأعطي نسخة أخرى من الصورة لمحمد عودة. والصورة ستكون اللافتة المعلقة تحت الاسم والتي بها ما يلي : وضع حجر الأساس في عهد الرئيس جمال عبد الناصر. فإذا جاء أبو حصيرة إلى غزة، فلم لا يجيئ - أيضاً - جمال عبد الناصر، المكان بالتأكيد معروف الجنسية والديانة والهوية ! توكلت على الله ودخلت. هو نسخة من كازينوهات إسكندرية وخاصة في تلك المنطقة التي يقيم فيها أهلي أو بقاياهم على وجه الدقة. مناطق كيلوباترا وسيدي جابر الشيخ. النوافذ الزجاجية الكبيرة تطل على البحر المتوسط الذي بدأ يشتهر الآن بين بحور العالم بقذارته التي تراها واضحة الآن على الشاطيء وفي المياه الضحلةالتي يلعب فيها أولاد لعلهم في عمر ابني الصغير أي ثمان سنوات. على "النصبة " كان هناك رجل في منتصف العمر يجفف أكواباً وأطباقاً. حييته "صباح الخير "مؤكداً مخارج اللهجة القاهرية نظر إليّ مندهشاً، لكنه أخفى دهشته (لعله تذكر أن العامل الممتاز درجة أولى في كازينوهات مماثلة لايجب أن يظهر دهشته) وحياني بأدب ومجاملة. جلست على مقعد بالقرب من نافذة تشرف على البحر أحاول جاهداً أن لا أتذكر إسكندرية أو سيدي بشر. أكرر لنفسي "أنا في غزة.. أنا في غزة يازلمة "! وبالفعل نجحت في لم "شعثي "وطلبت قهوة مغلية ع الريحة، وأخرجت مذكرتي الصغيرة وقلمي وبدأت اخربش كتابتي الخاصة بها. سالته إن كان لامانع عنده أن

أصوره بجوار لافتة عبد الناصر أجاب مبتسماً "بالعكس "!

وهكذا انقضت الساعات الغزاوية الأولى في أعمال مفيدة وتبعث على الدهشة. تحركت باتجاه مقر الأمم المتحدة. منذ ايام..أعني بعد أسابيع من عودتي و"انكبابي "على كتابة هذه الأوراق دق تليفوني ذات صباح في أمستردام، وإذا به "نيكولاس بيخمان " السفير الهولندي صاحب الكتاب "مصر.. موالد.. "الخ، ويعمل حالياً ممثلاً لبلاده في مقر الناتو في بروكسل. بعد التحيات والسلامات حكيت له عن أبو حصيرة الغزاوي. لم يخف الرجل دهشته البالغة حينما سمع بالحكاية. وعدته أن أرسل له الصورة إياها. تبادلنا بعض الأخبار الخاصة. بين وقت وآخر، كان يقول باللهجة القاهرية "موش معقول..ابو حصيرة كمان في غزة؟!")

غزة ظهراً

قمنا بجولة بطيئة بالسيارة باتجاه "مخيم الشاطيء" وهو واحد من المخيمات التي نالت شهرة عالمية لتصدره أبناء الانتفاضة، وكذلك مخيم جباليا. البيوت الوهمية هي، هي، إن كانت في منطقة الكولا في بيروت، أو عين الحلوة في الجنوب أو تل الزعتر، أو مخيم اليرموك في سوريا. مخيمات، بيوتها الواهية الوهمية تتساند على بعضها. بيوت من الخشب أو الحجر وأحياناً من الصفيح. من طابق أو طابقين، ليست بها ضرورات الحياة من صرف صحي، أو فراغات بسيطة، تسمح لساكنيها ببعض الخصوصية. جاء اللاجئون هرباً من مناطق الحرب والمذابح في الـ٤٨، إلى غزة "الملجأ والملاذ "حينما كانت تحت حكم الإدارات المصرية التي

تعاقبت عليها. بنوا أعشاشهم المؤقتة التي تحولت تدريجياً إلى أماكن إقامة دائمة، طالت لتصبح نصف قرن. الشوارع داخل المخيم ضيقة ومن الظلم إطلاق صفة شوارع عليها (تذكرني أيضاً بما نطلق عليه - نفاقاً وتأدباً - في القاهرة اسم المناطق العشوائية) تضيق لتعصرك داخلها ولا تسمح لغريب لايعرف مداخلها ومخارجها بحرية الحركة. مصائد وفخاخ أصابت الجنود الإسرائيليين بالذعر والهستريا، فيطلقون النيران بدون تمييز. "شوارع "المخيم ليس على جدرانها مساحة خالية. الشعارات المختلفة من التنظيمات الفلسطينية تملأ الجدران :حماس، وفتح، والجبهة الشعبية..إلخ. جميعها شعارات غاضبة تتوعد سوء المصير للخونة والعملاء وتبشّر الشهداء بجنة الخلد، وتذكّر الأحياء بدينهم الأبدي لمن مات في سبيل المبدأ. أن تعيش ما تبقى من أيامك تحوطك شعارات الوعد والوعيد، وأنت ذاهب إلى المقهي لتلعب عشرة طاولة، أو راجع من السوق تحسب في ذهنك ماذا أنفقت وما تبقى في جيبك، أو جالس على عتبة دكانك تنتظر الزبائن الذين لن يأتوا ؛ لهو شيء ثقيل على النفس مهما كانت هذه النفس شجاعة وصابرة وحمّالة اسيّة، ومهما كانت وماتزال هذه الشعارات ضرورية وصادقة..، فما بالك بالأولاد والصبايا، وهم يحملون على أكتافهم الغضة مسؤلية حياتهم وحياة الوطن ايضاً! بعض الصبية في سن المراهقة رمقوا سيارتنا بعداء وتحفز، رغم علامات الأمم المتحدة الواضحة على جانبيها ومقدمتها.سألت فرديناند عن إمكانية رجم السيارة فقال : إنها إمكانية موجودة دائماً،وهو لايلومهم، فمن يواصل العيش في ظروف كهذه لاتستطيع إلا أن تعذره وان تتفهّم غضبه. جرنا الحديث - بالطبع - إلى المستقبل، هنا، بعد مجيء السلطة ووعود

لم تتحقق، وأحلام كانت أكثر من القدرات. سرحت في حكاية "انتظار المخلّص "وعن العواقب الوخيمة لنتائج هزيلة كان حالموها ومنتظروها، يتوقعون الكثير. مثل مسرحيه "الكراسي "التي ارتاح النقاد وصنفوها عبثية، وهي في رأيي واقعية بألوان قوس القزح.الخطيب يأتي بعد طول انتظار ليلقي خطبته. يأتي إلى قاعة خالية، ويغمغم مثل شخص أخرس بـ "لغة "غير مفهومة.. رجعنا مرة أخرى إلى الشاطيء. جلسنا على مقهى و "كازينو "مختلف عن "أبو حصيرة "أكلنا لقمة، ورجعنا مرة أخرى إلى مكاتب الأمم المتحدة المكيفة الهواء والآمنة.

قلت إني سأذهب إلى الحديقة الصغيرة الملحقة بالمكاتب والتي لمحتها في جولة الصباح. كنت أريد أن اختلي بنفسي بعض الشيء، وأن أمدد ظهري العجوزالذي يتأثر بسرعة بالرطوبة بالإضافة طبعاً إلى ذراعي. تمددت على أريكة بسيطة تحت فراندة مفتوحة. هدوء حقيقي يوحي بوحدة محببة، ونسيم عليل وهواء بليل وأصوات عصافير وكل ما كنّا نقرأه في كتب المطالعة القديمة ونكتبه في كراسات الإنشاء دون أن نعي وجوده الحقيقي او قيمته الغالية النادرة. أغمضت عيني وسرحت في ملك الخالق.

غزة عصراً

ايقظني صديقي، وذكرني بواجباتنا تجاه المجتمع الدبلوماسي الدولي - مسؤولياته هو - تجاه العيد القومي لكندا الذي تقيمه الممثلية الكندية في رام الله. إذن فلنذهب إلى رام الله - تلك التي "رآها "مريد البرغوتي وكتب عنها كتابه الجميل "رأيت رام الله"

رام الله ـ مساءاً

الطريق من غزة إلى رام الله مختلف تماماً عن الطرق المؤدية إلى غزة وأنت قادم من يافا. نحن نتحرك الآن باتجاه المنطقة "أ "والتي تحددها الخارطة بأنها "مسؤولية فلسطينية بالنسبة للشؤون البلدية،والأمن الداخلي، والنظام العام - "علماً بأني لم أعرف ما هو المقصود بالنظام العام-وعلينا أن نعبر، لكي نصل إلى هناك أراضي "الدولة "وبالتالي قد تم تفتيشنا بدقة متناهية (وضع السيارة على الجهاز الفاحص، ووضع متعلقاتنا تحت الإسكانر الذي تجده في المطارات ووضع القفاز الذي كان يرتديه "المفتش "وتلمس بها أجزاء معينة من السيارة في جهاز كمبيوتر خاص يكشف عن المتفجرات الخ !) وهكذا عبرنا مرة أخرى طرق مستوطنات باتجاه شمالي شرق لكي ندخل مرة أخرى إلى أراض السلطة.

الجو مختلف تماماً هنا. مختلف من كافة النواحي. البلد تقدم نفسها بأبهة، (بعكس غزة التي تقدم نفسها بعبلها أي كما هي بدون مساحيق تجميل) من حيث كمية الأشجار والحدائق والخضرة بوجه عام البيوت التي رأيتها تبدو أكثر ثراء، وأناقة ومعمار حديث رأيتها من الخارج وحالة البناء متواصلة. يبدو أن أهل رام الله، مصاريهم، أكثر من الغزاوية. ذهبنا إلى مكان الاحتفال في حديقة واسعة وأنيقة لـ "كازينو "نسيت اسمه ولكنه لايترك في ذاكرة الواحد الكثير. قدمني فرديناند بطريقته المعتادة "كاتب وصحافي مصري "الخ.. تجولت بين الناس الذين قدموا. بعضهم من الفلسطينين، وأمم متحدة، وسلك دبلوماسي وميديا. تعرفّت على ليز دوسيت التي كنت أعرف اسمها وصوتها من البي بي سي.

هاهي إذن حفلة دبلوماسية. تبدو مثل عشرات غيرها حضرتهن في أماكن مختلفة وأزمنة مختلفة. نوع الناس، أنواع الأكل والشراب، نوعية الحديث الذي لا يودي ولا يجيب على رأي السيدة جدتي. لكنها أيضاً مختلفة جداً لأنها ببساطة على أرض السلطة الفلسطينية، وتقيمها دولة غربية كانت حتى وقت قريب – مثل غيرها من دول الغرب – تميل بثقلها الدبلوماسي والبشري والمادي باتجاه إسرائيل عيني.. عينك. رغم أن مؤشر الميل لم يتغير كلية – وهذا مستحيل – إلاّ أنه بدأ يتخذ اتجاها متوازناً بقدر الإمكان وببطء شديد. في طريقنا إلى الخارج – فلم نقض أكثر من ساعة – شكرنا مضيفتنا الكندية الدبلوماسية بذات الأدب الذي شكرتنا هي به أيضاً، وانطلقنا في طريقنا إلى يافا.. التي أصبح لها – أيضاً– في القلب غزة!

اليوم الثاني عشر

رام الله

استطعت تحديد موعد مع ليانة بدر الكاتبة الفلسطينية في مكتبها في وزارة الثقافة الفلسطينية حيث تعمل. قدمت لي وصفة تفصيلية، كيف أصل إليها من القدس التي لابد من الرحيل إليها إن كنت أريد أن أصل إلى مدن ومناطق السلطة الفلسطينية مستخدماً الطرق والمواصلات المسموح لها بالحركة في هذه الاتجاهات. أعرف ليانة بدر منذ الأيام البيروتية لكلينا. التقيتها بعد ذلك في سوريا بعد "خروج "المقاومة من لبنان. كنت التقيها بعد ذلك، إذا ما تقاطعت طرقنا في أمستردام أو القاهرة، مثل المرة الأخيرة في مؤتمر الرواية.

جاءني النصح من كل جانب أن استقل سيارة سرفيس فلسطينية.

امتطيت الباص اليافاوي – المفروض أنه يعمل بدون تمييز عنصري – باتجاه محطة الباصات المركزية. قبل أن نصل إلى وجهتنا، توقف الباص ليدخله مسلح – ظاهر للعيان سلاحه –ويتمعّن في الركاب، ويشير إلى اثنين (رجل وإمرأة في منتصف العمر. يبدو أنهما فلسطينيان ولكن من الصعب تحديد ذلك لأن الحوار السريع الذي دار كان بالعبرية) ويسوقهما بهرولة خارج الباص. لم يعلّق أحد. وحينما سألت بعد ذلك أهل العلم أفادوني أن هذا إجراء أمني يقوم به الإسرائيليون بشكل مستمر داخل وسائل المواصلات وبالتحديد الباصات التي تبدو وكأنها قلاع متحركة، مزودة بأجهزة اتصال لاسلكية وراديو إرسال واستقبال بالإضافة إلى الحراسات المسلحة داخل الباص. كنت قد أصبحت خبيراً – الآن – بالباصات الإسرائيلية، فقد ذهبت قبل ذلك بمفردي إلى القدس، لكن هذه زيارتي الأولى – بمفردي – إلى منطقة السلطة الفلسطينية. قررت أن أركب سرفيس فلسطيني من محطة الباصات. السرفيس ايضاً به ذات الأجهزة، ولكن لاتبدو به الحراسة المسلحة.الجميع هنا يتحدثون العبرية إلا إذا سألتهم بالإنجليزية – التي لايعرفونها جيداً – أو بالعربية. نزلنا في منطقة اسمها باب العامود (عمود أبشالوم) لكني لم أعرف طريقي إلى سرفيسات الضفة (كما يسمونها) سألت شاباً – يبدو أنه فلسطيني – عن الطريق. قال إنه ذاهب إلى هناك ونستطيع ان نمشي سوياً.

وبالفعل سرنا حوالي عشرة دقائق حتى وصلنا إلى بغيتنا. الأجرة رخيصة – ثلاثة شيكل– والباص مثله مثل المئات غيره في القاهرة. متهالك من كثرة الاستخدام لكنه يفي بالغرض. يتآلف ركابه بسرعة، ويتبادلون السجائر والحديث مع بعضهم البعض. وهو بالتالي يتوقف

حسب رغبة الركاب فلا توجد محطات ثابتة. تنفست الصعداء فأنا الآن في وسطي ومحيطي الاعتيادي المألوف!

إذا ما دققت النظر في الخارطة، ستكتشف بدون عناء، أن رام الله وقد أعطتها اوسلو اللون البني الفاتح، موجودة وسط محيط من اللون الأصفر، والذي تعرّفه الخارطة بأنه "المنطقة "ب"، وأنها مسؤولية فلسطينية في الشؤون البلدية والنظام الاجتماعي للفلسطينيين ومسؤولية إسرائيل لأمن الإسرائيليين "ورام الله حظها أحسن قليلاً من الخليل، فالأولى تخنقها البقع الصفراء والتي تراها بوضوح على امتدادها شمالاً، أما الخليل، فهي في وسط البقع الصفراء تحيط بها من جميع الجوانب. أريحا، كانت أوسلو بها رحيمة، فلم تحيطها بأية بقعة.

وهكذا أخذني السرفيس من يافا الساحلية الغربية، واتجه بي جنوب - شرق إلى القدس، التي أخذني السرفيس منها - مرة أخرى - باتجاه شمال غرب.. إلى رام الله.

نزلنا في ميدان كبير واسع هو "ساحة المنارة " ومنها سرت حسب الوصفة باتجاه "طريق بيرزيت "عابراً الشارع الضاج العاج بالبشر والسيارات، وعربات الكارو التي تجرها الحيوانات، الدكاكين التي تبيع الف صنف وصنف. انحرف في الشارع الثالث على اليمين، لأجد بناية كبيرة من سبعة طوابق، عليها لافتة "وزارة الثقافة "

اكتشف أن الوزارة تبدا مكاتبها - واستعلاماتها - من الطابق الثاني، حيث كان الاتفاق أن أخبرهم بوصولي فيتصلوا بليانة الخ. لكن المصعد معطّل، وأنا مجهد وقد حرنّت ولاأستطيع صعود الدرج العالي حتى الطابق الثاني. تطوع موظف طالع لفوق أن يخبرهم في

الاستعلامات..الخ. انتظرت ولم تأت نجدة. بعد ربع ساعة توكلت وأمري على الله وصعدت الدرج حتى الطابق الثاني الذي يشبه في ضجيجه وعجيجه ساحة المنارة. تمت الاتصالات الضرورية، أعطوني مقعداً - بصفة استثنائية - أجلس عليه في غرفة ضيقة مكدسة بالمكاتب والموظفين الذين كان يجلس اثنان منهم على طاولة مكتب واحد. قلت لنفسي لعلي أخطأت العنوان لأجد نفسي في واحدة من بنايات وزارة الثقافة المصرية في وسط البلد. بالتأكيد ليس القصر الفاره على نيل الزمالك الذي يحتله الوزير.

جاء وقت المرواح وعلى الواحد ان يعرف أن "الموظفين في الارض" في أي مكان في العالم وخاصة عالمنا تربطهم ببعض روابط خفية، في اختفائهم طوال أوقات العمل، وظهورهم فجاة بمنتهى الحماس ساعة الانصراف بسجلون اسماءهم في الساعة الميقاتية. ها نحن مرة في وسط القاهرة. هرول الموظفون في "مكتبي" وهم يلقون لي بالتحية على عجل. بقي واحد منهم ينظر إلي مكسوفاً. جاءت البنت الاستعلاماتية وقال لها بصوت مسموع إنه يريد ان "يسكّر "باب المكتب. قالت له أن يترك المفتاح معها، لكنه رفض بحسم، فهذه مسؤوليته التي لن يفرّط فيها لواحدة استعلامية. أنقذت الموقف - مثل افلام حسن الإمام - ليانة التي هبطت بواسطة المصعد الذي انصلح حاله فجأة، وحملتني معها إلى الطابق الأخير، على ما أظن حيث مكتبها.

عرفتني بالشاب - الأربعيني على الأقل -!منذر عامر الذي يشرف معها على إصدار وتحرير مجلة "دفاتر ثقافية "الشهرية والتي أعطوني منها بضعة أعداد، كما تناولت بنفسي نسخة من كتاب "المسرح الفلسطيني في فلسطين

٤٨ بين صراع البقاء وانقسام الهوية تأليف راضي شحادة "(وبالمناسبة، وبعد عودتي لأمستردام، وانا أكتب انطباعاتي عن الرحلة، كانت دفاتر، وكتاب شحادة خير معين لي في توثيق العديد من المعلومات التي كنت أعرفها بشكل مرسل أو تقديم معلومات جديدة تماماً بالنسبة لى)

ثم ذهبنا لنتغذى في مطعم "الطابوق الفلسطيني " الذي تديره مجموعة من الصبايا المليحات الجادات.

دار الحديث بالطبع عن فلسطين التي قدمت إليها ليانة مثل غيرها من المنافي المختلفة. جاء صديق لليانا وذهبنا جميعاً نحتسي كوباً من الشاي في بيتها. بعد ذلك أقلني الصديق الذي أتم دراسة الطب في الإتحاد السوفييتي، ورجع مع زوجته الروسية إلى رام الله حيث أهله، يريد أن يقدم ما يستطيع لشعبه. تطوع ان يأخذني في طريق عودتي بسيارته إلى مستوطنة قرب الخليل حيث مقام - قبر "النبي صموئيل" لأنه كما قال، هناك معركة يؤججها المتعصبون اليهود المستوطنون هناك ضد الفلسطينيين الذين يرغبون في زيارة النبي صموئيل الذي يجلونّه.

بالفعل ذهبنا إلى قرب مدخل المستوطنة، ورأينا مجموعة من المستوطنين يسدون الطريق بالتراكتورات ومعهم أسلحتهم. قررنا العودة. تركني قرب الحاجز (أو المقسوم كما يقولون هنا) معتذراً للمرة الثانية بعد حادثة المقام بأنه لن يستطيع توصيلي للقدس لأن سيارته لاتحمل التصريح الخاص بذلك والذي تعطيه السلطات الإسرائيلية. وقفت أشير لتاكسي أو سرفيس أن يأخذني. التاكسي الوحيد الذي توقف لي، بعد أن تمعّن سائقه في، تركني لايلوي على شيء. شرح لي فلسطيني، كان يقف على مقربة مني، بأن السائق إسرائيلي وبالتالي فهو لن يأخذني معه لسبب بسيط أني

قلت "القدس "بالعربية !وأخذني إلى حيث يقولون القدس بالعربية.. تاكسيات فلسطينية، تعبر من خلف المقسوم في الخرابات والمدقات، لأنها غير مصرح لها رسمياً بدخول القدس التي دخلناها رغم ذلك !في يافا رفضت كل الإغراءات من فرديناند ان "نكزدر "حسب تعبيره كنت أريد أن آخذ دشاً - بارداً - وأن أضع جلابيتي فوق جسدي وأن أجلس في الفراندة استمتع بلحظات الغروب الأخيرة. أي أن أقضي بقية اليوم بشكل بيتي، مثل الموظفين الذي رايتهم في رام الله او أخوالي - رحمهم الله- حينما كانوا من موظفي الدولة في مصر.

اليوم الثاني عشر

غزة - مرة أخرى

قررت الذهاب مرة أخرى إلى غزة التي أحسست أني لم أشبع منها، وخاصة أني نجحت في الاتصال بعبدالله حجازي الذي لم أره منذ سنوات، وأغراني بجولة سياحية سريعة في غزة. وهكذا كررت طقوس الاستيقاظ المبكر.. الخ. معنا اليوم ضيف هولندي صديق لفرديناند جاء من هولندا هو وابنته في زيارة سريعة، سياحية لإسرائيل، بعد أن زارها زيارات عمل متعددة، لأنه يعمل في الخارجية الهولندية مسئولاً عن قسم الشرق الأوسط. بالنسبة للبنت المسكينة (١٨سنة) كانت هذه زيارتها الأولى للشرق الوسط كله. لم نرد ان نفاجئها ببعض الحقائق الصادمة منذ اليوم الأول، وهكذا عقدنا نحن الرجال اجتماعاً سرياً وقررنا ان تأتي معنا إلى غزة، تتفرج على آثار عبدالله حجازي، وأن تأخذ الأمور على مهل.

كانت مفاجأتها كبيرة عند حاجز أريز الغزاوي، خاصة للمعاملة المهينة

"(وبالمناسبة، وبعد عودتي لأمستردام، وانا أكتب انطباعاتي عن الرحلة، كانت دفاتر، وكتاب شحادة خير معين لي في توثيق العديد من المعلومات التي كنت أعرفها بشكل مرسل أو تقديم معلومات جديدة تماماً بالنسبة لي)

ثم ذهبنا لنتغذى في مطعم "الطابوق الفلسطيني" الذي تديره مجموعة من الصبايا المليحات الجادات.

دار الحديث بالطبع عن فلسطين التي قدمت إليها ليانة مثل غيرها من المنافي المختلفة. جاء صديق لليانا وذهبنا جميعاً نحتسي كوباً من الشاي في بيتها. بعد ذلك أقلني الصديق الذي أتم دراسة الطب في الإتحاد السوفييتي، ورجع مع زوجته الروسية إلى رام الله حيث أهله، يريد أن يقدم ما يستطيع لشعبه. تطوع ان يأخذني في طريق عودتي بسيارته إلى مستوطنة قرب الخليل حيث مقام - قبر "النبي صموئيل" لأنه كما قال، هناك معركة يؤججها المتعصبون اليهود المستوطنون هناك ضد الفلسطينيين الذين يرغبون في زيارة النبي صموئيل الذي يجلونّه.

بالفعل ذهبنا إلى قرب مدخل المستوطنة، ورأينا مجموعة من المستوطنين يسدون الطريق بالتراكتورات ومعهم أسلحتهم. قررنا العودة. تركني قرب الحاجز (أو المقسوم كما يقولون هنا) معتذراً للمرة الثانية بعد حادثة المقام بأنه لن يستطيع توصيلي للقدس لأن سيارته لاتحمل التصريح الخاص بذلك والذي تعطيه السلطات الإسرائيلية. وقفت أشير لتاكسي أو سرفيس أن يأخذني. التاكسي الوحيد الذي توقف لي، بعد أن تمعّن سائقه في، تركني لايلوي على شيء. شرح لي فلسطيني، كان يقف على مقربة مني، بأن السائق إسرائيلي وبالتالي فهو لن يأخذني معه لسبب بسيط أني

قلت "القدس" بالعربية !وأخذني إلى حيث يقولون القدس بالعربية.. تاكسيات فلسطينية، تعبر من خلف المقسوم في الخرابات والمدقات، لأنها غير مصرح لها رسمياً بدخول القدس التي دخلناها رغم ذلك !في يافا رفضت كل الإغراءات من فرديناند ان "نكزدر" حسب تعبيره كنت أريد أن آخذ دشاً - بارداً - وأن أضع جلابيتي فوق جسدي وأن أجلس في الفراندة استمتع بلحظات الغروب الأخيرة. أي أن أقضي بقية اليوم بشكل بيتي، مثل الموظفين الذي رايتهم في رام الله او أخوالي - رحمهم الله- حينما كانوا من موظفي الدولة في مصر.

اليوم الثاني عشر

غزة - مرة أخرى

قررت الذهاب مرة أخرى إلى غزة التي أحسست أني لم أشبع منها، وخاصة أني نجحت في الاتصال بعبدالله حجازي الذي لم أره منذ سنوات، وأغراني بجولة سياحية سريعة في غزة. وهكذا كررت طقوس الاستيقاظ المبكر.. الخ. معنا اليوم ضيف هولندي صديق لفرديناند جاء من هولندا هو وابنته في زيارة سريعة، سياحية لإسرائيل، بعد أن زارها زيارات عمل متعددة، لأنه يعمل في الخارجية الهولندية مسئولاً عن قسم الشرق الأوسط. بالنسبة للبنت المسكينة (١٨سنة) كانت هذه زيارتها الأولى للشرق الوسط كله. لم نرد ان نفاجئها ببعض الحقائق الصادمة منذ اليوم الأول، وهكذا عقدنا نحن الرجال اجتماعاً سرياً وقررنا ان تأتي معنا إلى غزة، تتفرج على آثار عبدالله حجازي، وأن تأخذ الأمور على مهل.

كانت مفاجأتها كبيرة عند حاجز أريز الغزاوي، خاصة للمعاملة المهينة

لاثنين من الدبلوماسيين. وقفنا مرة أخرى في المكتب الصغير. سأل الولد المجند صديقنا "زيارة عمل.. فأجاب "ابداً سياحة " ثار جدل سريع بالعبرية، خاصة وأن مجندة مستجدة قررت ختم الجواز الدبلوماسي الذي لايتم ختمه في أي بلد وبالذات في معبر أريز وأنت داخل غزة التي ما تزال إسرائيل تعتبرها من أراض الدولة. شخط فيها المجند الأعلى رتبة، وأرجعت الجواز وهي زعلانة!

بالفعل أرسل عبدالله حجازي سيارة السياحة في الموعد المتفق ومعها دليل نشط يجيد الإنجليزية ويعرف الأصول. أخذونا إلى مكان لحفريات حديثة بالقرب من "دير البلح ". رثيت لحالهم، ففي مكان الحفريات يوجد أكثر من هيكل عظمي أثري، مكشوف للتراب والشمس وعوامل التعرية بالقرب من خيمة متهالكة يجلس فيها خفير. شرح لنا الدليل القيمة الأثرية والتاريخية للحفريات، ثم أخذونا مرة أخرى إلى غزة لكن إلى الجانب الأخر حيث يوجد المتحف الفلسطيني. مجرد شقة صغيرة في الطابق الثاني في بناية. هنا أحسسنا جميعاً بالغضب. هنا تاريخ البلد القديم، في غرفتين.. هل هذا معقول !?سألنا الرجل الطيب، قال المشكلة في الميزانية. حينما التقيت عبدالله قلت له عن انطباعي. فقال إن إسرائيل نهبت الكثير من الآثار، وانهم يبدأون من الصفر في كل شيء. المصاري والكادر. تجولنا قليلاً في المدينة. شكرناه.

رجعنا إلى فرديناند، إلى سيارة الأمم المتحدة، وإلي المعبر والغلاسة التي أصبحت جزءاً من الروتين اليومي. برق في ذهني خاطر فاجع. تخيلت نفسي أعيش هنا (كموظف أمم متحدة محترم) أعبر يومياً من المقسوم إياه لمدة كام سنة. قلت لنفسي، مستحيل. تغور دولارات الأمم المتحدة

(الكثيرة) ولاأتعرض يومياً لشيء كهذا. أيقظني فرديناند من كابوسي ليلفت نظري إلى "الحظيرة "التي كنت قد رأيتها في المرة الأولى. وهي المكان الذي يعبر منه في الذهاب والإياب أهالي غزة، يومياً، في سبيل لقمة العيش. وصل إلى إذني ضجيجهم الخافت من حلف الجدران الحجرية والتي يعلوها سقف من الزنك يضاعف حرارة القيظ ولا يرحم من زمهرير الشتاء ومطره. خجلت من نفسي، خاصة وأنا أتحرك بكرامتي، رغم كل السخافة التي يبديها الجنود، فنحن في النهاية "أمم متحدة "وأهالي غزة - في النهاية ايضاً- يعمل معظمهم من أجل لقمتهم - عند المحتل الذي يفتح عليهم بوابة الرزق عبر الحظيرة أو يغلقها كما يريد.

اليوم قبل الأخير

رام الله والقدس مرة أخيرة

صديقنا الهولندي عنده موعد مع حنان عشراوي (التي رأيتها واستمعت لها في الأيام الأولى لوصولي في ندوة في جمعية الشبان المسيحيين في القدس) لهذا ذهبنا جميعاً نوصّله إلى رام الله حيث تقيم، ونشرب فنجال قهوة، ونتركه لنذهب إلى الأميركان كولوني ننتظره هناك لنقوم بجولة وداعية - بالنسبة لي وأولية بالنسبة للبنت - في القدس. وهكذا جلسنا بقضنا وقضيضنا (بعد أن سلمت نفسي مرة أخرى إلى مجموعتي التلفزيونية) نشرب قهوة ونأكل لقمة خفيفة في مطعم صغير أنيق في رام الله، ونلقي نظرة أخيرة على المدينة التي بدأت من ناحيتنا هنا هادئة وأنيقة ونظيفة. التقطت بضعة صور للحديقة المقابلة، و"لتندة" المطعم الذي يقول عن نفسه "مطعم البيت الفلسطيني" ثم توكلنا في

سيارتنا "البتراء" التي لاتقف الحدود العسكرية بحواجزها ومقسومها، عقبة أمامها.. نتوجه إلى المدينة التي هزمت الزمن وبقيت - رغم القدم الهمجية -أنوفة، عفيفة، ذات كبرياء خاص بها.

دخلنا المدينة العتيقة هذه المرة أيضاً من باب دمشق. سرنا على مهلنا في الدروب الصاعدة الهابطة الملتوية، نخرج من "حي" لندخل آخر دون وعي أو إحساس بذلك ما عدا "الحي اليهودي" الذي تتكدس فيه الحراسات المسلحة من جنود ومتعصبين مدنيين.ومع أنك واجد حدوده واضحة على الخارطة، إلا أنه في الحقيقة ليس كذلك، مثله مثل بقية "الأحياء" متداخلة في بعضها. باب دمشق يقودك مباشرة إلى الحي المسيحي وأشهر معالمه كنيسة القيامة، لتجد نفسك مباشرة في الحي الأرمني، وإذا ما تمشيت قليلاً باتجاه الشرق - دون أن تشعر - متتبعاً الدروب الضيقة، أو خطفت عينيك مكتبة قديمة، ستجد نفسك فيما تطلق عليه الخارطة "الحي اليهودي" وهو، حتى في الخارطة أصغر هذه الأحياء.. إنه بالفعل حارة اليهود التي تجدها في بعض المدن والعواصم العربية مثل القاهرة والتي مازالت باقية باسمها القديم.

يوجد معبد يهودي "حديث" داخل الحارة، وبجواره مطبعة ومكتبة من الواضح أنها مخصصة للكتب الدينية اليهودية.وخارج الحي اليهودي، وحسبما تقول الخارطة يوجد متحف "برج داوود" داخل المنطقة الأرمنية وخارج "الحارة".لم نزره.

ذهبنا لزيارة "كنيسة ودير السلطان" ومن المدهش لايوجد له ذكر حتى في الخارطة التفصيلية. هو والدير والكنيسة الصغيرة الملحقة به،

تتنازع على ملكيتهما كل من الكنيسة المصرية والكنيسة الحبشية، منذ فترة طويلة. ومع أن المحكمة الإسرائيلية المختصة في هذه الأمور أصدرت حكماً لصالح الكنيسة المصرية، إلا أن تنفيذه لم يتحقق بسبب "تقاعس" السلطات الإسرائيلية عن ذلك.

ولكي نصل إلى الدير الموجود على سطح كنيسة القيامة، يجب الدوران حول الكنيسة، والوصول إلى "حارة مسدودة "يقف في نهايتها الباب القديم المهيب للدير. يجلس على عتبة الباب، كاهن مصري طاعن في السن. تنسدل لحيته البيضاء الكثة حتى صدره.حييناه وطلبنا الإذن بالدخول فأشار برأسه موافقاً (تحدثنا معه في البداية بالإنجليزية) وصعدنا الدرج الضيق القديم الحجري حتى السطح. هناك أمام "قلاية" من القرون الوسطى كان يجلس كاهن إثيوبي كهل يقرأ في كتاب قديم بصوت خافت بما خمنت أنه الكتاب المقدس باللغة الأمهرية (القلاية هي الاصطلاح المصري القبطي عن الغرف الصغيرة الضيقة التي يعيش بداخلها الرهبان في الأديرة الصحراوية. ولابد أنها اكتسبت اسمها من سياط الشمس الصحراوية التي تقلي من يعيش بداخلها) حييناه وطلبنا الإذن. هز رأسه موافقاً. القلايات تحتل الجانب الأيمن من السور. بابها واطيء، ولكي تدخله لابد أن تحني جسدك كله. ثمة فرن قديم واضح أنه لصنع الخبز والقربان. من الناحية الأخرى باب يفصل بين المنطقة السكنية الأخرى التي تعيش فيها الراهبات الإثيوبيات.لم ندخلها.جاءت مجموعة من الحجاج المؤمنين ليصلوا فوق السطح. كانوا يتحدثون باليونانية. قاموا بفروضهم من صلاة وترتيل، وخرجوا. وحينما خرجنا وراءهم تحدثت مع "ابونا" الجالس على عتبة الباب بالعربية القاهرية. تمعّن فيّ بعينيه الكليلتين من خلف العوينات السميكة سألته إن

كان من الممكن التقاط بعض الصور له. جلس معتدلاً، وأخرج صليباً عاجياً من جيبه الداخلي ورفعه. سألته "من كام سنة انت هنا يابونا"؟ أجاب " كتير.. موش فاكر "اكتفيت بهذه الإجابة. شعور غريب يتملّك الواحد وهو يغادر القدس "القديمة "إلى المدينة الأخرى - الحديثة -التي تنتحل لنفسها الاسم ذاته. مدينة لاطابع لها.. مجرد مبان حديثة، وفنادق، وشوارع كبيرة، ومواقف للباصات، ومقاه..الخ ليست لها طابع لأنها لاتنتمي إلى حقبة ما بناها بناؤون مختلفو المشارب والمدارس والملل، فلم يعد لها طابع!

بعض معلومات مركزّة عن القدس

* قرار التقسيم الصادر عام ١٩٤٧ ينص عن وضع خاص لمدينة القدس يطلق عليه "كيان منفصل "عن الدولتين المقترحتين.

*بعد حرب حزيران - يونيو ١٩٦٧، أعلنت إسرائيل ضم القدس الشرقية والتي كانت تحت الحكم الأردني إلى القسم الغربي الذي وضعت إسرائيل يدها عليه منذ العام ١٩٤٩ ، واعتبرت ان "المدينة الموحدة، هي العاصمة الأبدية لإسرائيل "

* في عام ١٩٨٠ . أصدر الكنيست قانوناً يعلن فيه أن القدس عاصمة إسرائيل

* وفي ١٩٧٧ قرر مجلس النواب الأمريكي الاعتراف بـ"القدس الموحدة عاصمة لإسرائيل "وتم تخصيص عدة ملايين من الدولارات لبناء السفارة الأمريكية هناك.

* خطة إسرائيل لتهويد القدس، هي توسيع "حدودها "أي جعلها تتسع حتى عام ٢٠٢٠ لحوالي مليون نسمة بزيادة حوالي أربعمائة ألف عن عدد

سكانها الحالي وأن تتضاعف مساحتها من ١٢٣ كم مربع إلى حوالي ٦٠٠ كم مربع مع زيادة عدد المساكن المخصصة لليهود بحيث يتم الحفاظ على تفوقهم الديموغرافي هناك بنسبة سبعة إلى ثلاثة.

* طبقاً للتعداد الرسمي الإسرائيلي الأخير فقد ازداد النمو السكاني "العربي" في القدس الشرقية - القديمة - بنسبة تسع وعشرين بالمائة، فقد كان عددهم العام ١٩٦٧مائتين وست وتسعين ألف ليصبح "اليوم " ستمائة وثلاثين ألف.

*في عام ١٨٩٠ . كانت مساحة القدس داخل جدران المدينة القديمة، هي كيلو متر مربع واحد. وبعد ما يقرب من مائة سنة أصبحت المساحة الآن ثمان وثلاثين كم مربع. فقد كانت مساحة "القدس الأردنية " ست كيلومترات حينما ضمتها إسرائيل، مضيفة إليها الأراض التي استولت عليها من الضفة الغربية لتصبح مساحتها الحالية مائة وثلاث وعشرين كم مربع

هل هذا هام بدرجة أو بأخرى ؟ قبل زيارتي للقدس لم أكن بقادر على تفهم "هذا "بشكل عملي. كنت أستطيع بشكل نظري أن أعارض تهويد القدس وتحويلها إلى "مدينة إسرائيلية " لكن بعد تجوالي بها، وبإسرائيل - فلسطين، استطعت أن أعي فداحة المصيبة الحاصلة وتلك التي ستحصل أيضاً !فلا يمكن تصور وضعاً إنسانياً وسياسياً غير ان تكون القدس مدينة لها "كيانها الخاص "خارج التوازنات السياسية والديموغرافية أو عدم توازناتها. تاريخ المدينة الطويل الدامي والحافل والأسطوري ايضاً يجعلها خارج الزمن، وبالتالي خارج هذه الحقبة البائسة من تاريخنا.

في الحقيقة هي مدينة تستحق منّا ومن العالم أن ندافع عن تفردها وخصوصيتها وأن تبقى كما شاء الله وشاءت الأحداث، المتحف الحي "للتاريخ الطبيعي للبشرية عبر أديانها الثلاث "

اليوم الأخير.. أو لعله قبيله بساعات

قررت أن أبقى اليوم في يافا. ليس لي مزاج للخروج من البيت سوى في طريقي إلى المطار. أريد ان استجم جسدياً وذهنياً من حركة مستمرة وصور متداخلة، وانطباعات متباينة.أن أرتب حقيبتي بهدوء. أن ألقي نظرة على أكوام الوثائق والأوراق، وأن "أصفيها "بحيث لاأحمل سوى المهم. أن ألقي نظرة أخيرة على النوتة قبل مصادرتها في المطار إن أوقعني حظي اللئيم مع من هو أكثر لؤماً. تمشيت في حديقة البيت. قمت مع الولدين الصغيرين، برشها بكميات مهولة من المياه ختى نغسلها ونرطّب الجو اللاهب. ضحكات الصغيرين الصافية، أنستني مؤقتاً هواجسي ومخاوفي. قبعت مع فنجال قهوة في الظل أقرا في رواية بوليسية، حتى أبتعد متعمداً عن التفكير في السفر واحتمالاته. مشتاق لأمسترادام وإلى غرفتي والكمبيوتر القديم، ومكتبي والبيت كله الذي أعرف رائحته والذي يثير أعصابي بضجيج الأولاد وضيوفهم في معظم الوقت، لكني أحس - صادقاً- أنه ليس لي سواه، واني محظوظ - بعد أن شاهدت ما شاهدت - أن يكون لي جواز سفر "محترم "ومدينة أرجع إليها، أتحرك في شوارعها وبين أحيائها بدون حواجز أو تصريح عسكري..أن يكون لي بيت له جيران طبيعين يلعب أولادهم مع أولادي في شارع له اسم طبيعي. ليس إسمه "أهفو يسرائيل "مثلاً !

الفصل الثاني

ثقافتان تحت الحصار

في انتظار المخلص

أولاً :ثقافتان تحت الحصار

ثقافة..ما بعد أوسلو

وماذا عن تلك التي قبل أوسلو ؟!

نشـرت مـجلة دفـاتر "الفلـسطينيــة "التي تصـدرها وزارة الثـقافـة الفلسطينية؛ والمشرف العام على التـحرير ورئيس التحرير :محمود شـقير ويشـرف عليهـا، ليانة بدر ومنذر عـامر وحسـني رضوان. نشـرت خطاباً بعث به إميل حبيـبي، إلى عز الدين المناصرة حينما كان حـبيبي في مدينة براغ، والرسـالة مؤرخـة بتاريخ ١٢- ٢- ١٩٧٩ .. أهمـية هذه الرسـالة، أنها تـوضح رؤية إميل حـبيبي- منذ حـوالي عشـرين سنة- لدور الأدب، وعـلاقـته بالمقـاومـة ؛ من خـلال قراءتـه النقديـة لمخطوط رواية بعنوان.. "أوراق عبـاد الشمس "..التي كتـبها "أخونا الأديب الثـائر علي حسين خلف "كما يسميه حبيبي، في خطابه للمناصرة الذي يبدو أنه الذي دفع بالمخطوط لحبيبي، وطلب منه أن يجيب على اسئلة أو تساؤلات (هذا غير واضح في الرسالة) كانت تلح على المناصرة

يقول حبيبي في الرسالة:

"تسألني مـا الذي دفعني للشيـوعية. دعني أجـري بعض التغيـير على

السؤال، أولاً ما الذي دفعني إلى الانتماء التنظيمي إلى الحزب الشيوعي؟
الجواب يثير الدهشة. وقع في يدي قبل أربعين عاماً بالضبط رواية بقلم الكاتبة الأمريكية ذات الميول الرجعية بيرل باك، اسمها "هذا القلب الأبي "عن امرأة لها زوج وأطفال تحبهم وحياتها رتيبة، إلا أنها كانت تهوى النحت، وتملكتها هذه الهبة السماوية حتى وقعت بين أمرين :إما زوجها وأولادها وحياتها الرتيبة، وإما أن تحترف هوايتها. وفي يوم من الأيام حزمت أمتعتها وتركت بيتها وزوجها وأولادها، وسافرت إلى باريس لتصبح نحاتة شهيرة. وأما أنا - وكنت ضائعاً بين الأدب والسياسة - فقد حزمت أمتعتي وصرت عضواً في الحزب الشيوعي "

ويواصل كاتب الرسالة حديثاً عن اسئلة المناصرة "صدقت بقولك ان الأجوبة هي كتاب جديد، وهذا ما جئت من أجله إلى براغ..كتبت المتشائل وفي نفسي أن أنقل لكم خبرة جيلي، وهي خبرة مأساوية لكنها مفيدة، وفي نفسي أنه ما يزال لدينا بعد، ما نقوله لكم، ولهذا حزمت أمتعتي وسافرت إلى باريس، وأما أسئلتك فقد جعلتني أعيد النظر فيما خططته من تأليف.. وهاأنا مستمر في إعادة النظر فيه شهراً بعد شهر "

وعن الرواية المخطوط، يكتب حبيبي "..والمؤلف كاتب ذو موهبة وحساسية، ولكنه بعيد بعداً سحيقاً عن واقع الحياة في بلادنا فهو مثل كثيرين غيره، يحمّل حكام إسرائيل أكثر مما يستطيعون أن يحملوا، وهو في الوقت نفسه، يحمّل شعبنا في إسرائيل، أكثر مما يستطيع أن يتحمّل "

ويقدم إميل حبيبي في هذه الرسالة خلاصة فهمه وخبرته، وحكمته أيضاً، عن الميكانزيم الذي يتحرك به ومن خلاله حكام إسرائيل ويعلّق على حبكة الرواية، حينما جعل المؤلف قرية "عباد الشمس "تهب ثائرة،

بعد أن اقترف عساكر إسرائيل مجزرة أثناء جنازة في القرية، فيكتب:
"إن حكاّم إسرائيل أذكى من اقتراف مجزرة في جنازة، وشعبنا في إسرائيل هب ويهب، لمقاومة الظلم حينما يكون هذا الظلم أقل بكثير من ظلم مجزرة في جنازة.. "

والكاتب الذي يحمّل حكام إسرائيل أكثر مما يستطيعون أن يحملوا، يتجاهل تأثير هذا التضخيم على ضحايا حكاّم إسرائيل. لقد واجهنا، في السنوات الأولى، وخصوصاً بعد مجزرة كفر قاسم، شباباً كانوا يقولون : (لانستطيع مقاومتهم لأنهم لايترددون عن اقتراف أية مجزرة).. هذا الكاتب،يستخف بتأثير الرأي العام المحلي والعالمي.. "ولاحظنا، منذ وقت طويل أن غالبية الكتاب الوطنيين الفلسطينيين يستحون، لماذا؟ من تصوير شعبنا الفلسطيني على حقيقته وهو أنه ضحية مؤامرة عدوانية فظيعة - إمبريالية وصهيونية (ولنقل الآن رجعية عربية أيضاً) وإن جريمة المعتدين على شعبنا هي جريمة مضاعفة: لقد نكلوا بهذا الشعب حتى قبل أن يبدي أية مقاومة لهم"

وينتقد حبيبي فيلم (كفر قاسم)لأنه- كما يقول - "يقع في هذه الغلطة، حين يتوهم أن مجزرة كفر قاسم جاءت عقاباً على مقاومة كفر قاسم. إنما الحقيقة المأساوية وذات الدلالة الثورية الكبيرة، هي أن الاختيار وقع على كفر قاسم لأن أهلها صدقوا الوهم الذي مفاده أن السير مع الحائط الواقف "يكفيهم شره.لم تظهر في كفر قاسم قبل المجزرة أية مقاومة، ومنعوا أي نشاط سياسي وطني في داخل قريتهم لاشيوعي ولا غيره. لذلك اختار الجزارون هذه القرية من دون قرى المثلث الحدودية الأخرى. والشعب تعلم هذا الدرس، فاستطاع بنضاله الجماهيري

المكشوف وبأوسع وحدة صف وبالتلاحم غير المنقطع مع القوى الديموقراطية اليهودية، أن يكف يد الجزارين، فكان (يوم الأرض) الجواب على مجزرة كفر قاسم "

ويواصل إميل حبيبي رؤيته السياسية والأدبية :

"إن المستوطنات أو المستعمرات اليهودية تمنع العرب من الاستيطان فيها حتى العرب الرجعيين والمتعاونين. هذا بالإضافة إلى أن الصراع في إسرائيل ليس صراعاً بين قرويين مظلومين من جهة وبين مستوطنين يهود من جهة أخرى. الواقع في إسرائيل أدهى وأمّر إن العرب المظلومين يجابهون نظاماً رجعياً حاكماً له قوانينه وجيشه وبوليسه، وكل هذه الأجهزة الرسمية موجهة ضده "

.. ويقول حبيبي في انتقاده للرواية المخطوط، حينما يتخيل الكاتب " تهمة "حرق مستعمرة تلصق بالمواطنين الفلسطينيين، لكي يقوم الجيش بهدم بيوت العرب. ".. فالمسؤلون الإسرائيليون لايحتاجون إلى "تهمة " حرق مستعمرة لكي يهدموا بيوت العرب، بل يهدمونها بحجة البناء غير المرخص ..

أهمية هذه الرسالة لاتعط فحسب الضوء على الرؤية الأدبيةالواضحة والمحددة لإميل حبيبي وكيفية تعامل النص الأدبي مع المعطيات اليومية لشعب تحت الاحتلال.. بل ايضاً على المواقف السياسية لأميل حبيبي التي جّرت عليه – وخاصة في سنواته الأخيرة العديد من الحراب والسهام. فقد استمر يقاتل حتى النهاية دفاعاً عن ما يؤمن به، وخاصة في التعاون مع ما يطلق عليه "القوى الديموقراطية اليهودية "بمواجهة تيار كبير يرى

أن مجرد قيام دولة إسرائيل لايسمح بوجود "قوى ديموقراطية يهودية " فيها.. بالإضافة طبعاً لقبوله جائزة إسرائيل الأدبية، ورغم أنه تبرع علناً في حفل كبير بقيمة الجائزة (كما قال لكاتب هذه السطور حين التقيته في إمستردام قبل سنتين من وفاته) لمؤسسة الدكتور حيدر عبد الشافي الخيرية للاطفال، فإن ذلك لم يمنع السهام الطائشة العمياء أن تصيبه في مقتل في ايامه الأخيرة التي أحس فيها بالمرارة والخذلان من اقرب الناس إليه.

والحقيقة أن اختياري للرسالة ونشر المقتطفات الهامة منها، كان بسبب أن مجلة "دفاتر "قد فتحت حواراً واسعاً مع العديد من المبدعين الفلسطينيين حول "الأدب الفلسطيني وسؤال النكبة "قدمت فيه شهادات عديدة وهامة، ووجدت فيها شهادة عز الدين المناصرة تحت عنوان "فلسطين :خمسون نكبة ومقاومة :قصيدة الأونروا، قصيدة المقاومة وقصيدة العولمة "والشهادة منشورة بتاريخ حزيران يونيو١٩٩٨ والمؤكد أن المناصرة نفسه هو الذي أعطى "دفاتر "رسالةحبيبي له والمنشورة تحت عنوان "بمناسبة الذكرى الثانية لرحيله "

وهكذا بعد أكثر من عشر سنوات على الرسالة،وجريان مياه مثيرةوكثيرة تحت جسر اللنبي ؛ ورحيل إميل، وظهور "أوسلو " ونتائجها. أثارت فضولي شهادة المناصرة والتي بعث بها من عمان. يقول فيها ".. وهكذا بقي ثلاثة ملايين فلسطيني في فلسطين وعاش أربعة ملايين في المنفى، وما زالت المأساة متواصلة وما زلنا غير قادرين على قراءة أعماق نكبتنا، فالغريق ليس لديه متسع للقراءة وإذا ما حدثت القراءة فهي تقرأ سطح الأشياء، ربما كتبنا حرفاً واحداً من حروف أبجدية

المأساة فالعذاب السري والعلني للفلسطيني في فلسطين والمنفى ما زال سرياً والشهادات الحقيقة لم تكتب بعد... "

ويضيف المناصرة في فقرة أخرى ".. في ظل حياة قاسية في فلسطين وحياة أشد قسوة في المنفى، أو العكس عاش الشاعر الفلسطيني، ولم تكن مأساة فلسطين بالنسبة للشاعر الفلسطيني مأساة سياسية. إنها مأساة وجودية، وبالتالي فإن النظرة لقصيدة الشاعر الفلسطيني من زاوية سياسية يفسد منهجية البحث "

ويحدد المناصرة ما يراه اتجاهين خاطئين – يسميهما – إشكالية الشعراء الذين أطلق عليهم لقب شعراء أرشيف النكبة والمقاومة. وينتقد الناقد الذي يتحدث عن موضوع النكبة والمقاومة "كأرشيف لمئات الشعراء بالتركيز على الموضوع نفسه دون دراسة نصية "

ويعتبر المناصرة "إن إلغاء، ومحو التفاوت الإبداعي بالقصائد بالتركيز على (موضوع النكبة والمقاومة) أمر أساء إلى الشعر الفلسطيني الحديث. سبق أن قلت في منتصف السبعينات (إن قداسة القضية الفلسطينية لا تحمي الرداءة الشعرية) "

ويهاجم عز الدين المناصرة الرؤية النقدية لكل من غسان كنفاني ويوسف الخطيب ورجاء النقاش وغالي شكري "لوقوعهم في الخلط بين السيرة الذاتية للشاعر(المقاومة) وبين نصوص الشاعر(درجة الشاعرية) ومعاملة شعر المقاومة كحالة أيديولوجية سلباً وإيجاباً "

ويسخر المناصرة من نوع الأسئلة التي تم طرحها عند وصول ياسر عرفات إلى فلسطين، بل ويعتبرها كيدية "لم يكد الرئيس ياسر عرفات يضع قدميه على أرض غزة حتى انهالت علينا الأسئلة من الصحافيين

العرب (ما هو تصوركم لحالة الأدب الفلسطيني في ظل السلطة الوطنية ؟.. وما هي الإضافات الجديدة في الأدب بعد مرحلة الثورة ؟.. وبعد دخولكم في مفاوضات واتفاقات مع إسرائيل،هل انتهى أدب المقاومة ؟).. بل طرحت أسئلة كيدية ووقف بعضهم ليقول إن رواية المتشائل سطحية، مع إن هذا البعض كان يسبح بحمد الرواية في يوم من الأيام "

ويعتبر المناصرة "هذا الترصد جاء نتيجة صراع وجودي، هو لوجود فعلي لتيار عربي رسمي لايرغب بولادة الدولة الفلسطينية المستقلة. لم نقل يوماً بانفصال الشعر عن الحياة بكافة تجلياتها بل العكس لم ننكر في يوم من الأيام (خصوصية القصيدة ودرجات شعريتها) وقوانين الشعر "

ويحلل المناصرة "موضوعات "الشعراء الفلسطينيين واهمها "التصاق الشعر الفلسطيني آنذاك (١٩٤٨ - ١٩٦٧) بموضوع النكبة.. التي هي فعل حياتي وموضوع مثل أي موضوع مقدس أو هامشي هام أو غير هام.. أما القصيدة فهي ليست من جنس النكبة كموضوع، لأن النكبة (فعل حياتي) والقصيدة (فعل لغوي).. "

ويعتبر المناصرة أن نوعاً من الشعر الفلسطسني هو منظور قصيدة النكبة، يتمركز على شكوى الزمان والحنين الرومانتيكي اللفظي إلى المكان، يمكن أن يسمى قصيدة وكالة الغوث (الأنروا) التي كانت وما زالت، كما يقول "رمزاً أسود لعذاب الشعب الفلسطسني، بفض النظر عن (خدماتها)، فهي رمز موضوعي سياسي، ساهم في تدمير الشخصية الفلسطينية وكينونتها تحت شعار (اصمتوا نحن نمنحكم الحليب والخيام) ولا أعتقد أن قصيدة النكبة خرجت عن هذا المفهوم، إلا ببعض قصائد (المقاومة اللفظية الشعاراتية).. لقد خربّت وسائل الإعلام والأحزاب

والحكومات (القصيدة والشاعر) بدلاً من قراءة نصوص الشعر الفلسطيني الحديث، والحكم عليه من داخل النص، وليس من خلال الولاء للسلطة الفلسطينية أو المعارضة لها "

وأعتقد أن هذا التلخيص المطول لخطاب إميل حبيبي، ولشهادة عز الدين المناصرة تسلط الضوء على الرؤية الإبداعية، وبالتالي المعارك النقدية المصاحبة لها على الساحة الفلسطينية التي تمور بعملية خلق جدلي على مستو عال وراق، تؤكد حيوية خاصة بهذا الشعب وبمبدعيه رغم " النكبة "التي ما تزال أثارها العملية تبقى حية مثل رؤوس الميدوسا!

وما دمنا فتحنا ملف (الثقافة والنكبة، والثقافة وما بعد اوسلو) عليّ هنا أن اعترف واعتذر.. فقد انسقت وراء التيار الحماسي الذي اخذ يبحث عن (ثقافة ما بعد أوسلو) وينبع حماسي من صبيانية رومانسية لمراقب من على البعد. لكن رؤيتي لواقع الحال، وحصولي على شهادت المناصرة وراضي شحادة، ومحمود درويش (شهادات منشورة في مواقع مختلفة) بل وتجوالي في طول البلاد وعرضها وتأملي لأحوال الناس هناك من فلسطينيين وإسرائيليين، وسفري إلى الحدود (التي هي ليست بحدود!) ورؤيتي للمهانة التي تمارسها الأجهزة الإسرائيلية على الفلسطينين والعرب - والصمود- اليومي للمواطن البسيط - مجرد ان تفتح دكانتك في القدس أو تنتقل يومياً من غزة لتعمل في الأرض المحتلة - كل هذا جعلني اكتشف الفخ الذي كنت سأدخله برجليّ، لهذا فأنا مدين للفلسطينين من مفكرين وعاملين بسطاء - وغيرهم لا أعرفهم - بهذا الاعتذار !

وإذا رجعنا إلى قراءة شهادات ملف "الأدب الفلسطيني وسؤال

النكبة "نجد أنفسنا أمام حالة ثقافية عربية خاصة. خذ عندك رؤوس الأقلام فقط من الملف :

"تأكيد على وحدة الثقافة في إطار التنوع "

"المثقف الفلسطيني لم يلتقط أنفاسه بعد "لرسمي أبو علي ،

"ذاكرة جماعية يتحدث فيها الصوت بحنجرة المجموع "لفيصل دراج،

"فلسطين هي كل موضوعات الإبداع "لرشاد أبو شاور،

"القصة القصيرة وأسئلة النكبة "لغريب عسقلاني،

"أن تكون الذاكرة الوطنية أو لا تكون "لأنطوان شحلت،

"هل نجحت قصتنا في رواية تاريخنا "لحبيب بولس

"سؤال النكبة في الرواية الفلسطينية "لعزت الغزاوي

و "ماالذي تحقق ?وما الذي لم يتحقق "?لفاروق وادي،

و"من رصد الهموم الذاتية إلى الكتابة الحداثية "لنبيه القاسم.

وهناك بالطبع الكثير من الشهادات والدراسات والأبحاث التي تدور كلها حول الذاكرة والنكبة.. ومستقبل الكتابة، بعد التقاط الأنفاس أو خلالها.

نحن هنا أمام حالة نادرة في ساحة الإبداع العربي. أقصد استجلاء " الذاكرة الجمعية "وصيانتها، وتنقيتها من الشوائب.

هذا أمر مفهوم بالنسبة لشعب حاول أعداؤه - وما يزالوا- طمس ذاكرته، بهدف قطع جذوره بماضيه وبالتالي لشرذمته.

وخلال تجوالي في فلسطين، كان من أهم مالفت نظري هو محاولة إسرائيل المستمرة لـ "محو "الأسماء العربية للمدن والقرى والكفور

الفلسطينية وإعطائها اسماء عبرية توراتية، أو إطلاق اسماء الصهاينة المؤسسين عليها.

سأورد هنا مقتطفات من كلمة محمود درويش في الندوة التي أشرت إليها وعنوانها "عالم جديد ورؤى جديدة - "المصدر السابق"

"وهنا يتجلى الأثر التدميري المتواصل للاحتلال المستمر فبالإضافة إلى تدمير البنية الثقافية التحتية، يحاصر الاحتلال ثقافتنا بمتطلبات الدفاع الأولي عن البقاء الجسدي، أمام بولدوزرات الاقتلاع المادية والفكرية "

ويعتبر درويش أن هذا الموقف الدفاعي قد حاصر الثقافةالفلسطينية بحيث "لن تتمكن الثقافة الفلسطينية على ما يبدو في حقبة سلام إسرائيلي كاذب من الانفصال عن تاريخية ثقافة المقاومة إلا فيما يتعلق بتعبيرات لغوية واستعارية وجمالية يقتضيها طول الطريق وقلة الزاد.. "

ويتنبأ درويش بأن الأدب الفلسطيني "يبقى أسير تعريفه الثقافي المتواضع، باعتباره أدباً وطنياً بالمعنى الضيق للكلمة، فيصبح الضحايا الضعفاء، مسؤولين ثقافياً وإبداعياً عن التحجّر في مكانة لايستحقون ما هو أرقى منها.."

ولأن العربية - كما يقول طه حسين - هي "مقوم أساسي من مقومات الأدب العربي، أو هي المقوم الأساسي الأول بين مقوماته"

ولأن اللغة - أية لغة - في تركيب الثقافة كأحد عناصرها المكونة، إذن فإن خاصية اللغة لابد، أن توجد في وصف أية ثقافة - كما يقرر معهد الاستشراق في إكاديمية العلوم السوفياتية- لوجدنا أن إسرائيل كدولة انشغلت منذ البداية على قضية اللغة:

اللغة العبرية، واللغة العربية.

قامت إسرائيل - الدولة، بإحياء الأولى من مواتها، وأخرجتها من دهاليز المعابد التي عششت فيها خلال ألفي سنة، لتحولها إلى لغة التعامل اليومي ولغة التخاطب الأدبي. وفي الوقت ذاته حاولت أن تهدم اللغة العربية، وأن تحصرها في المخيمات والبيوت الفلسطينية، لعلمها بأهميتها، في ربط الشعب بعضه ببعض ودورها في القيام بحفظ الذاكرة الجمعية.. أقول حاولت، لكنها لم تفلح، واضطرت في النهاية أن تفرضها في مدارسها، على الطلبة اليهود الإسرائيليين.

وقد رأيت في يافا وحيفا وعكا نتائج قهر اللغة العربية، حيث تبحث العين طويلاً عن أسماء المحال مكتوبة بالعربية، اللهم بضعة محال صغيرة، تقف صامدة أمام سيطرة لغة الاحتلال.

المثير - أيضاً - هو الوجود المعنوي والمادي المحسوس للثقافة الفلسطينية، بماضيها، وحاضرها، وإرهاصات مستقبلها، رغم الخيام والمخيمات والمنافي والمصادرة والحجر والإبعاد.. - لو أردنا التبسيط - لقلنا إنها ثقافة "المنفى والغربة "هي موجودة في عمق الوجدان الثقافي الفلسطيني.. ولكنها بالطبع، أعمق وأغنى بكثير من هذا التجريد !

وفي الوقت نفسه تجد اثراً واضحاً لما يسميه آمنون راز "ثقافة الغربة، ونفي المنفى "في الثقافة الإسرائيلية، ظهرت على"أرض الميعاد وذلك أن مصطلح نفي الغربة يحمل في ثناياه خلاصة الأيديولوجيا الصهيونية، ومنه تتفرع التوجهات المختلفة للحضور الثقافي الإسرائيلي، اليهودي - الصهيوني، ويقف هذا المصطلح محوراً مركزياً في رؤية شاملة، تضع تعريفاً للهوية الذاتية، وتبلور مفهوم التاريخ والذاكرة الجماعية ليهود

إسرائيل. "(ارمون اراز).. وهكذا نجد وجوه من "التشابه "في الثقافتين، مع وجود تمايز واضح أيضاً بينهما، وخاصة في علاقة الثقافة الفلسطينية المتصلة أبداً باللغة العربية، وبالمكان، واستدرارها من منابع الذاكرة الجمعية. في حين أن مأزق الثقافة الإسرائيلية، يتمركز حول انغلاقها على نفسها لأنها نابعة من "الدين اليهودي "المغلق على ذاته، و مصادره الثيولوجية والأسطورية، وأهمها "نفي الآخر "بالإضافة طبعاً للأسباب التي أشرت إليها من قبل وهي أن الوافدين اليهود منذ الأربعينات وحتى الآن، وفدوا وهم يحملون ثقافة الغيتو في الغرب وثقافة "حواري اليهود " في الشرق.. وهي ثقافة انعزالية بعكس الثقافة العربية الفلسطينية المنفتحة على الكون.

اللغة هنا، هي حجر الزاوية في تواصل الثقافة الفلسطينية العربية، وفي ضمور الثقافة الإسرائيلية - اليهودية. لكن لانهدف هنا إلى المفاضلة بين الثقافتين وإلا وجدنا أنفسنا نتزلق إلى "ثقافة "المنزلق اليهودي - الإسرائيلي؛ النقاء العرقي- الثقافي !

إن اللغات "اليهودية "المحلية في المناطق التي - كان - يهود الهجرة إلى فلسطين يعيشون فيها، هي الإفراز الطبيعي لمزج لغة الشعب الأصلي مع اليهود الوافدين. وهكذا ظهرت لغة "اليادیش في أوربا الغربية " وهي اللغة المستمدة من اللهجة الألمانية العليا وكلمة يادیش نفسها تحريف واضح لكلمة يهودي بالألمانية وهي التي ستصبح أهم لسان بين ألسنة اليهود التي لاحصر لها "(جمال حمدان - اليهود - كتاب الهلال -١٩٩٦) وانقسمت بعد ذلك إلى يادیش شرق أوروبي، وآخر غرب

أوربي.. بل إن الفلاشة في اثيوبيا يتكلمون لغة أخرى مختلفة تماماً.

ولهذا كان قرار الدولة الوليدة بإحياء اللغة العبرية، واستخدامها لغة التخاطب الرسمية كخطوة أولى وهامة في "خلق " شعب موحد وفدت شراذمه من تسعة مراكز (ولغات) رئيسية.

وظهر الجيش، كرديف لوظيفة "اللغة" ليصبح رمزاً لوحدة اليهود في إسرائيل، رغم أن طائفة "الحرديم " الدينية اليمينية ترفض الانصياع للخدمة العسكرية.

والمتأمل لهذه المعطيات، إي علاقة الجيش بتوحيد اليهود - الإسرائيليين ولعبه دوراً سياسياً يزداد أهمية باستمرار، يستطيع أن يكتشف المأزق الثقافي الإسرائيلي، الذي وجد نفسه يربط بين تفريغ الأرض عسكرياً واحتلال أراض الغير بالقوة، وبين الدعاوي التوراتية الأسطورية المتعلقة بـ "أرض إسرائيل وشعب إسرائيل "وما يطلق عليه البرفيسور أمنون راز أستاذ التاريخ اليهودي في جامعة بئر السبع بأنه "تفسير للأسطورة الدينية، كأسطورة قومية وتحولها إلى مصدر شرعية السيطرة على البلاد، وإن العسكرتاريا الإسرائلية، تتمتع بتاثيرات مبدئية في بلورة الثقافة "المعرّفة "بأنها علمانية ".

وقد لفت نظري في النشرة التي تصدرها "الوكالة اليهودية لإسرائيل " - والتي تعمل منذ سبعين عاماً على جمع الأموال وتزايد الهجرة إلى إسرائيل - إعلانها أنه "بمناسبة مرور خمسون عاماً على إنشاء إسرائيل، كانت الوكالة هي القوة الدافعة لهذه الوحدة الخاصة التي تربط يهود العالم ببعضهم "وتحدد النشرة أعداد اليهود الذين هاجروا منذ العام

١٩٤٨ وحتى الآن وتؤكد "يتوق اليهود الآن - الذين طال صمتهم - أن يتكلموا بلغة أسلافهم ولهذا تفتح الوكالة الباب لبرامج خاصة لاسترجاع ذلك الميراث المفقود "

هذه شهادة دامغة تدحض كل تلك الإدعاءات المتعلقة "بالثقافة الإسرائيلية " بالمفهوم الحديث والعلمي للثقافة بإنجازاتها المختلفة والمتنوعة في جميع مجالات الحياة، مثل الموسيقى والرقص والغناء والثياب والطعام والعلاقة بالآخر بالإضافة طبعاً للمسرح والقصة والرواية والشعر..أي باختصار رؤية متكاملة للعالم والكون من خلال الخلق الإبداعي والرموز الحياتية..الخ

أي أن الوكالة تفتح الباب والفصول الدراسية لتعلم لغة "الوطن" للمهاجرين الذين لاتربطهم بهذا "الوطن "سوى رابطة الدين.ليست هناك ذاكرة جمعية خاصة بهذه الأرض او التجارب الإنسانية المرتبطة بها عبر العصور. ونجد المحاضر أوري رام في جامعة بن جوريون في بئر السبع يربط بين "ابتكار تقاليد "التجأت إليها الهوية القومية الإسرائيلية على نسق هويات قومية أخرى "من خلال عملية أدلجة واختيار وتكييف وتقوير وإعادة كتابة وحتى تشويه في حالات متطرفة مواد من الماضي التاريخي ومن الريبرتوار الثقافي وذلك لخدمة النخب التي تقود "

بل إننا نجد أن البحث عن الهوية، في بعض الفترات، أدى إلى تقليد الثقافة العربية، وهو ما انعكس على سبيل المثال في ارتداء الحرّس أبناء الهجرة الثانية القفازات بأيديهم (مقال آمنون راز - الأستاذ بجامعة بئر السبع وترجمة محمد حموة غنايم - مجلة الكرمل -العدد٥١)

بل إن إسرائيل- في بحثها المحموم عن هوية، تستولي على المطبخ

العربي الشرقي، الشعبي، فتعتبر الفلافل "أكلة إسرائيل القومية "كما يقول الكارت بوستال الذي اشتريته من هناك"

وإذا ما أردنا أن نتمعّن في موقف الثقافة الإسرائيلية من الآخر، فسأقدم مثالاً واحداً - بشكل مؤقت - !يواجهه "الآخر "غير اليهودي معبراً عن ميكانيزم، لايمكن تزييفه أو الادعاء بعدم وجوده.

مطار تل ابيب،وأنت خارج يعطيك اللمسات الأخيرة للعقلية الثقافية الإسرائيلية المؤمنة بالتفوق والنقاء العرقي. هذه العقلية التي يصفها البروفيسور آمنون راز بفلسفة "نفي الآخر "وهي الفلسفة التي قامت عليها نظرية "العودة إلى أرض بلا شعب "هناك في المطار تواجه - بصفتك غير إسرائيلي - معاملة خاصة (ليست أسوأ ولا أحسن) من تلك التي تواجهها في مطارات لدول أخرى.. معاملة مختلفة.

في مطار تل ابيب وفي صالات المغادرة - وهو بالمناسبة لايختلف كثيراً عن المطارات الأقليمية في مصر- في هذه الصالات ستجد نفسك تساق إلى أماكن عليها حواجز من أحزمة بلاستيكية حمراء تقودك إلى أماكن الاستجواب إياها (من قابلت، وأين ذهبت، ولماذا أتيت ؟) بينما يعبر الإسرائيلي من مكان آخر كالشعرة من العجين ! أما في دول الجوار "فقد قال لي صديق فلسطيني يسافر بشكل منتظم إلى الأردن ومصر من إسرائيل؛ أن الجنود ورجال الحدود الأردنية ورجال الحدود الفلسطينيين على المنافذ المصرية - الفلسطينية، يضعون المسافر الذي يريد أن يدخل إلى إسرائيل عبر المنافذ البرية على مقاعد تواجهها مرآة من جانب واحد مثل تلك التي نراها في الأفلام البوليسية والتي يستطيع الناظر خلالها من جهة واحدة أن يرى وجه الشخص الاخر من الجهة

الأخرى دون أن يراه هذا.. وأن جوازات السفر تنتقل عبر حزام أتوماتيكي إلى غرفة يجلس فيها جنود أسرائيليون يتفحصون الأوراق طبقاً لقوائمهم؛ بعد ان تفحصوا وجه صاحب الجواز !

المسافر المغادر إسرائيل حتى لو كان يهودياً لكن يحمل جواز (أمريكي أو أوربي..الخ) غير إسرائيلي يواجه نظام الأبرتايد - نظام التفرقة العنصرية- وتطّبق الدولة الإسرائيلية نظام الأبرتايد على الباصات بين المدن المختلفة التي تعتبر وسيلة مواصلات هامة في غيبة القطارات، وبالطبع ينطبق الأبرتايد على التاكسيات، وبالتأكيد على مناطق السكنى، والمستوطنات على وجه الخصوص.

علماً بإن عرب الـ٤٨ يحملون هويات وجوزات سفر إسرائيلية ولكنهم يدخلون أيضاً تحت نظام الأبرتايد !.. فتوجد باصات مخصصة للإسرائيليين ومسموح للسائحين الأجانب باستخدامها.. وهناك سيارات سرفيس خاصة لغير الإسرائيليين وخاصة الفلسطينيين حتى أولئك الذين يحملون هويات إسرائيلية ويعيشون في مناطق "الـ٤٨ "وفي الحي السكني الذي أقمت فيه في يافا، وهو حي "راق "يسكن فيه الدبلوماسيون، لاحظت عدم وجود إسرائيليين هناك، وقال لي صديقي الذي يسكن في هذا الحي، إن السكّان هنا في الأغلب من الدروز!

هذا هو التطبيق العلني والعملي لثقافة الأبارتايد.

لكن أين نجد الثقافة الإسرائيلية بالمفهوم الأوسع؟

مأزق الهوية وجدلها، سنجده واضحاً في الجيل الحالي من المبدعين

الفلسطينيين - من عرب الـ ٤٨ - الذين وجدوا أنفسهم بين مطرقة السلطة الفلسطينية، التي ينتمون إليها عرقياً والدولة الإسرائيلية التي ينتمون إليها "مواطنة ".. والحقيقة كانت هذه الحقيقة غائبة عني، في وطيس معركة "التطبيع الثقافي التي أثارت قدراً مهولاً من الغبار غطى على بعض الحقائق الهامة.

حينما ذهبت إلى مكاتب وزارة الثقافة الفلسطينية في رام الله وضعت يدي على وثيقتين هامتين في هذا الموضوع (من وجهة نظري على الأقل!) الوثيقة الأولى هي مجلة دفاتر فلسطينية التي أشرت إليها والثانية هي شهادة المبدع المسرحي الفلسطيني د. راضي شحادة والتي نشرتها له وزارة الثقافة في كتاب بعنوان "المسرح الفلسطيني في فلسطين ٤٨ بين صراع البقاء وانقسام الهوية "والعنوان كما هو واضح موح بدرجة كبيرة عن" أزمة "ثقافة الـ٤٨ وعلاقتها بالوطن الفلسطيني و"تقاسم "هويتها بين دولة إسرائيل والسلطة الوطنية الفلسطينية. أثار الكتاب - والكاتب الذي لم أتعرّف عليه - إعجابي لصدقه العنيف والجارح أحياناً في شرحه لقضية البقاء والهوية.

ما أثار اهتمامي أيضاً أن موضوع انقسام الهوية، هو واحد من الموضوعات التي يدور حولها الجدل بين المثقفين والمفكرين الإسرائيليين ! خاصة - وكما هو معروف - فإن الهجرات اليهودية المكثفة في الخمسين سنة الأخيرة كانت معظمها من دول شرق أوربا - الإشكيناز الذين تعاملوا مع اليهود "المشرقيين -الصابرا "باستعلاء عرقي، (مع أنهم عانوا من الاستعلاء العرقي النازي، الذي لم يعان منه اليهود هنا في الشرق" ! بحيث وجد هؤلاء أنفسهم يواجهون شرطاً يؤكده البروفيسور أمنون راز

بقوله "كان شرط اندماجهم في المجتمع اليهودي - الإسرائيلي، هو التنازل التام عن ثقافتهم العربية، تلك الثقافة التي تحددت هويتهم في داخلها. كان دمج اليهود الشرقيين في المجتمع الإسرائيلي مشروطاً بالقبول بقيم الثقافة السائدة التي صاغها يهود من أوربا (ومن شرقها على وجه الخصوص، بينما كان يتم دفعهم باتجاه هامش المجتمع "(المصدر السابق)

ومن المعروف للذين يدرسون علم الأديان المقارن والأنثربولوجي.. إذا ما رجعنا إلى الجذور القديمة والموغلة في القدم لـ "الثقافة اليهودية " سنجدها ثقافة قائمة على الأسطورة الدينية للنقاء العرقي، والتي تنص على "تخصيص "فلسطين لليهود كوعد إلهي، خاصة وأن القبائل اليهودية كانت رعوية لم تستقر في الوادي وتبني منازلها إلا بعد تنصيب داوود ملكاً.

إن "الوعد الإلهي "كذريعة لقتل الآخر، هذا الوعد الذي يقول عنه عالم الأنثربولوجي جون فريزير في كتابه الفلكلور في التوراة.. "من الممكن النظر إلى تاريخ بني إسرائيل في ضوء أكثر صدقاً، وأن يكن أقل رومانسية بوصفهم شعباً لا يميزه الوعد الإلهي عن غيره من الشعوب الأخرى ذلك التمييز العجيب، بل شعباً تطور كبقية الشعوب من مرحلة بدائية يسودها الجهل والهمجية وذلك عن طريق انتخاب طبيعي بطيء "

وأضيف هنا أن الدراسات المتعددة في علم المصريات قد أثبتت إن بعض "مزامير داوود ونشيد الأنشاد و كتاب الأمثال لسليمان الحكيم " ليسا سوى الترنيمات والابتهالات والحكم الفرعونية.

إن قصة الخلق التوراتية ومعها قصة الطوفان،كما يثبت فريزير هي

ترداد لقصص القدماء الذين عاصرهم كاتب التوراة (الفلكلور في العهد القديم - التوراة.الترجمة العربية للدكتورة نبيلة إبراهيم في سلسلة إصدارات الهيئة العامة لقصور الثقافة عام ١٩٩٨). ويورد أمنون راز مثالاً على ما يسميه "التغيب والإسكات الذي يقوم عليه الوعي الصهيوني " من رؤيته لكتاب "نكتبك، أيها الوطن "والمخصص لقراءة نصوص عدد من الكتّاب البارزين.حيث ناقش المؤلف يتسحاق لاؤور في هذا الكتاب أبعاد محاولة تعريف التصور الذاتي والاستقلال السياسي على أساس تجاهل المصير الفلسطيني.

إن "الحالة الثقافية "الإسرائيلية تقوم الآن على مجموعة من الركائز أهمها "تحليل الأسطورة الدينية، ومزجها بالسياسة وبالتالي لم يبق مجال للفصل بين الأسطورة والحضور التاريخي. مما أدى إلى خضوع الأسطورة للنشاط السياسي مما أضفى عليه القدسية. كما تمت إعادة تنظيم الوعي اليهودي من خلال التبني التام لمفاهيم التاريخ الغربي المعاصر مثل مصطلح "الحق التاريخي "وهو يؤدي إلى تماثل تام مع الغرب. وهكذا أصبح خروج اليهود من أوربا بمثابة خطوة للاندماج في الثقافة الأوربية والتماثل التام مع الوعي الأوربي، مثل محاولة بلورة وعي الأقلية على أساس الموافقة على رأي الأغلبية. أصبح الهدف ملاءمة مفهوم اليهود لمصطلحات الثقافة الأوربية. كذلك فإن التحليل الثيولوجي "اللاهوتي" الصهيوني قدم تفسيراً يقوم على تبني مفاهيم تبلورت في أوساط بروتستانتية متعصبة اعتبرت عودة اليهود إلى "بلادهم "شرطاً مسبقاً لظهور المسيح من جديد. هذه الأساطير محسوبة اليوم على أبرز ممثلي اليمين المتطرف "(آمنون راز - المصدر السابق)

بقوله "كان شرط اندماجهم في المجتمع اليهودي – الإسرائيلي، هو التنازل التام عن ثقافتهم العربية، تلك الثقافة التي تحددت هويتهم في داخلها. كان دمج اليهود الشرقيين في المجتمع الإسرائيلي مشروطاً بالقبول بقيم الثقافة السائدة التي صاغها يهود من أوربا (ومن شرقها على وجه الخصوص، بينما كان يتم دفعهم باتجاه هامش المجتمع "(المصدر السابق)

ومن المعروف للذين يدرسون علم الأديان المقارن والأنثربولوجي.. إذا ما رجعنا إلى الجذور القديمة والموغلة في القدم لـ "الثقافة اليهودية " سنجدها ثقافة قائمة على الأسطورة الدينية للنقاء العرقي، والتي تنص على "تخصيص "فلسطين لليهود كوعد إلهي، خاصة وأن القبائل اليهودية كانت رعوية لم تستقر في الوادي وتبني منازلها إلا بعد تنصيب داوود ملكاً.

إن "الوعد الإلهي "كذريعة لقتل الآخر، هذا الوعد الذي يقول عنه عالم الأنثربولوجي جون فريزير في كتابه الفلكلور في التوراة.. "من الممكن النظر إلى تاريخ بني إسرائيل في ضوء أكثر صدقاً، وأن يكن أقل رومانسية بوصفهم شعباً لا يميزه الوعد الإلهي عن غيره من الشعوب الأخرى ذلك التمييز العجيب، بل شعباً تطور كبقية الشعوب من مرحلة بدائية يسودها الجهل والهمجية وذلك عن طريق انتخاب طبيعي بطيء "

وأضيف هنا أن الدراسات المتعددة في علم المصريات قد أثبتت إن بعض "مزامير داوود ونشيد الأنشاد و كتاب الأمثال لسليمان الحكيم " ليسا سوى الترنيمات والابتهالات والحكم الفرعونية.

إن قصة الخلق التوراتية ومعها قصة الطوفان،كما يثبت فريزير هي

ترداد لقصص القدماء الذين عاصرهم كاتب التوراة (الفلكلور في العهد القديم – التوراة.الترجمة العربية للدكتورة نبيلة إبراهيم في سلسلة إصدارات الهيئة العامة لقصور الثقافة عام ١٩٩٨). ويورد أمنون راز مثالاً على ما يسميه "التغيب والإسكات الذي يقوم عليه الوعي الصهيوني " من رؤيته لكتاب "نكتبك، أيها الوطن "والمخصص لقراءة نصوص عدد من الكتّاب البارزين.حيث ناقش المؤلف يتسحاق لاؤور في هذا الكتاب أبعاد محاولة تعريف التصور الذاتي والاستقلال السياسي على أساس تجاهل المصير الفلسطيني.

إن "الحالة الثقافية "الإسرائيلية تقوم الآن على مجموعة من الركائز أهمها "تحليل الأسطورة الدينية، ومزجها بالسياسة وبالتالي لم يبق مجال للفصل بين الأسطورة والحضور التاريخي. مما أدى إلى خضوع الأسطورة للنشاط السياسي مما أضفى عليه القدسية. كما تمت إعادة تنظيم الوعي اليهودي من خلال التبني التام لمفاهيم التاريخ الغربي المعاصر مثل مصطلح "الحق التاريخي "وهو يؤدي إلى تماثل تام مع الغرب. وهكذا أصبح خروج اليهود من أوربا بمثابة خطوة للاندماج في الثقافة الأوربية والتماثل التام مع الوعي الأوربي، مثل محاولة بلورة وعي الأقلية على أساس الموافقة على رأي الأغلبية. أصبح الهدف ملاءمة مفهوم اليهود لمصطلحات الثقافة الأوربية. كذلك فإن التحليل الثيولوجي "اللاهوتي" الصهيوني قدم تفسيراً يقوم على تبني مفاهيم تبلورت في أوساط بروتستانتية متعصبة اعتبرت عودة اليهود إلى "بلادهم "شرطاً مسبقاً لظهور المسيح من جديد. هذه الأساطير محسوبة اليوم على أبرز ممثلي اليمين المتطرف "(آمنون راز – المصدر السابق)

بالطبع لابد من الإشارة هنا إلى تمرد بعض اليهود - في إسرائيل وخارجها - على هذه الثقافة، وهو ما يشير إليه محمود درويش "هناك نوع آخر من الحوار لعله هو المطلوب الآن حيث يسعى المثقفون المنتمون إلى دولة الاحتلال للتضامن مع ضحايا الاحتلال ولتحريض وعي مجتمعهم على أنه لن يكون حراً ما دام يعتدي على حرية الآخرين.. بهذه الشروط الحالية من سمات براءتها الشكلية لا أجد صعوبة أخلاقية في محاورة الكاتب الإسرائيلي بصفة فردية، ولا أجد حرجاً في القول في أن مثل هذا الحوار قد يعمّق معرفتي بذاتي وبمأزقي الإنساني في تقاطعه مع مأزق الآخر.. إذ سنتبارى أنا وهو في مديح المنفي "(الكرمل العدد ٥١)

وهكذا تتشابك وتتمايز محاور الجدل في الثقافتين اللتين تتعايشان الآن على أرض واحدة ويصف محمود درويش ثقافة المقاومة بأنها "ترتبط بالبحث عن إعادة تشكيل الهوية، هنا وفي أطراف العالم الجنوبية في مرحلة العولمة الثقافية "ويعبّر أوري رام (الكرمل ٥١) عن أزمة الثقافة الإسرائيلية والصراع بين المؤرخين القدامى والجدد حول الركائز الأساسية - الصهيونية لهذه الثقافة، بقوله "بخلاف النزعة التي ترى مجرد خلافات أكاديمية حول الماضي تناولنا هذا النقاش، باعتباره حدثاً ثقافياً - سياسياً ذا دلالة في الحاضر الراهن. ووجدنا أنه يعبّر عن انسحاب معين للخطاب القومي المركزي وعن صعود نسبي (لحكايات) أخرى. والقاسم لغالبية الحكايات الجديدة المدرجة على جدول الأعمال، يتمثّل في نفي ما نفته الصهيونية (نفي النفي)، بكلمات أخرى "التذكير "بهويات كانت للصهيونية مصلحة كبرى في تناسيها وطمس معالمها، سواء كانت هذه هويات "صغيرة "أو "شخصية "أو هويات أخرى. ونفي النفي مثلما

علمنا هيغل، يخلق أمام أبصارنا تحدياً سياسياً وثقافياً لتوليفة نقيضية جديدة، لايتأتى البحث معها عن "كل الحقيقة "، إلا من خلال إصاخة السمع إلى أصوات الحقيقة "

وهكذا نجد أنه من المستحيل الحديث عن الثقافة الفلسطينية دون التطرق إلى الثقافة الإسرائيلية، ليس فقط لأنهما متواجدتان على أرض - وطن مشترك، وليس لتماثلهما في "موضوع الهوية "لكن لحاجة كل من الثقافتين إلى الأخرى، لتأكيد ذاتها وتبرير وجودها.

وكما يقول محمود درويش "هذا الحوار(مع الكاتب الإسرائيلي) قد يعمّق معرفتي بذاتي وبمأزقي الإنساني في تفاطعه لكاتب مع مأزق الآخر.. "

سأعيد مقتطفات من مقال لأمجد ناصر بجريدة القدس الدولية بتاريخ٢٤ -٤ -١٩٩٨ بعنوان "عقلية مبدعة "يناقش فيها قرار مسرح بيروت والذي يشرف على نشاطه الثقافي؛ الروائي اللبناني إلياس خوري. يقول ناصر إن قرار مسرح بيروت "عن عدم تمكنه من استضافة بضعة مثقفين من اليهود العرب، في إطار البرنامج الثقافي الحافل الذي أعده المسرح في الذكرى الخمسين لنكبة فلسطين.. والسبب في ذلك هو التحريض الديماغوغي الذي مارسه بعض القوى السياسية اللبنانية والفلسطينية ضد مشاركة هؤلاء المثقفين بذرائع واهية لاتملك شكلاً أو قواماً، أكثرها هشاشة هو "التطبيع ".. "

ويناقش أمجد ناصر مواقف الشخصيات اليهودية العربية التي كانت مدعوة.فهناك "المناضل المغربي إبراهيم السرفاتي المعادي أصلاً

للصهيونية والرافض للكيان الإسرائيلي، والكاتب آدموند عمران المليح من المغرب الذي تكشف أحاديثه وكتاباته ومواقفه عن تمسكه العميق بمغربيته التي يشكل العنصران المغربي والإسلامي سمتها الأبرز. أما جاك حسون المحلل النفسي المصري فقد نشر حسب الذين يعرفونه عشرات الدراسات في مجلة الدراسات الفلسطينية الدورية التي عملت منذ صدورها على إضفاء طابع رصين على أسئلة النضال الفلسطيني "

ويبرز أمجد ناصر دور المناضل اللبناني والمسئول السابق في الحركة الوطنية اللبنانية :فواز طرابلسي الذي كان من المقرر أن يدير الندوة.

ويشيد أمجد ناصر بدور إلياس خوري "فلا يمكن التزيد على كاتب كان الوحيد تقريباً الذي دافع عن الفلسطينيين في الصحافة اللبنانية، بعد خروج المنظمة من بيروت حيث لم يكن مقتل الفلسطيني يشكل خبراً أو يعني أحداً.. وظل إلياس خوري قابضاً على جمرة الفلسطينيين شعباً وقضية وأسئلة إلى حد أن كثيرين ظنوه (وربما ما يزالون) فلسطينياً "

ويمضي أمجد ناصر في اسئلته : لماذا لانستضيف ونتحاور مع اليهود العرب، أو غير العرب ممن لهم موقف معاد من الصهيونية ؟

"أليست لدينا قضية ومن مصلحتنا أن نكتل معنا أكبر عدد ممكن من المؤيدين والمناصرين، فما بالك إذا كانوا من دين أولئك الذين باسم الدين نفسه، وأساطيره ووعوده الفانتازية يحتلون أرضنا؟"

ويطرح ناصر تساؤلاته عن هذه "العقلية العربية المبدعة بامتياز "المتخصصة في خسارة قضاياها وأصدقائها سواء بسواء"

ولا أعتقد أن الإجابة على هذه التساؤلات صعبة، وإن كان من

الضروري، الرجوع إلى "الأصل "، إلى من يريدون تهويد القدس.. ومن منعوا جورج حبش، أن يلقي نظرة أخيرة على وطنه، لكنهم يقيمون جسراً جوياً للفلاشة الأحباش ليهبطوا بهم فوق أرض فلسطين.. الأصل هو سياسة الغيتو. إغلاق الأبواب عما يحدث هناك، تضييق حلقات الحصار على الفلسطينيين، ومنعنا من الدخول إليهم.

إسرائيل تقوم بنصف العمل، والعقلية العربية إياها تقوم ببقية المهمة!

وكما قال إميل حبيبي ".. والكاتب الذي يحمّل حكام إسرائيل أكثر مما يستطيعون أن يتحملوا، يتجاهل تأثير هذا التضخيم على ضحايا حكام إسرائيل.. "

وكما يقول المناصرة إن هناك أنظمة عربية لاتريد قيام الدولة الفلسطينية. ويبدو أن تأثير "الغيتو "بدأ يلقي بظلاله الكئيبة على تفكير عدد لابأس به من المثقفين العرب.. ببناء المزيد من الأسوار حول الفلسطينيين، بعد أن تم وضعهم في غيتو القصيدة الوطنية .. من قبل !

في انتظار المخلص

اقتسام الرداء

"ولما صلب الجنود يسوع، أخذوا ثيابه وقسموها أربع حصص، لكل جندي حصة.. "(يوحنا ١٩-)

ثمة مشكلة جديدة برزت مرافقة لعودة ياسر عرفات إلى غزة وهي العلاقة الحساسة بين المقيم والعائد.

وهي علاقة لاتدور فحسب حول "الاستحقاق "الذي ستناله كَل فئة مع العودة، لكنها حساسية قديمة، بين المهاجر، وابن المخيم قد يكون كلاهما ابناء مخيم، لكن واحد منهما سوف يستخدم حظه القليل الذي أتاح له الحركة بعيداً عن جنود الاحتلال والآخر سوف يستخدم دهائه الفطري، الذي مكنّه من مواصلة التنفس تحت الاحتلال.

وحاول البعض الصيد في الماء، الذي نزلت إليه شباك عديدة.. من هو "أكثر ثورية ".. جموع الانتفاضة؟ أم أولئك الذين قبعوا في "المنزه "؟ ..(وهو الحي الراقي في العاصمة التونسية حيث تواجدت فيه مكاتب المنظمة ومساكن القيادات بعد الرحيل من بيروت)

وحينما أتى وقت "الاستحقاقات "وجد البعض أنفسهم بعيداً عن مراكز الضوء والسلطة والنفوذ.. والمال بالطبع، بينما يعتقد هذا البعض أنه "أحق "من غيره..الخ

حينما كنت في القاهرة، في الشتاء الماضي، التقيت بالصديق غالب شعث، المخرج السينمائي الفلسطيني، الذي تعرفت عليه في الحقبة البيروتية.

حكى لي غالب تجربته المريرة، حينما شد الرحال، إلى أرض السلطة الفلسطينية يريد وضع خبرته الطويلة، في خدمة الوضع الجديد.. لكن طلبه قوبل بالرفض إو اللامبالاة أو كليهما (حسب تعبيره) وحسب تعبيره أيضاً "أنهم (أي المتنفذين في السلطة الفلسطينية) لايرغبون جدياً في التعامل مع "الثقافة "

ولن أدخل هنا في جدل فلسطيني - فلسطيني، فلا أملك هذا الحق ولا أرغب فيه.. ولم اهتم أن أسأل عن الميكانيزم الذي تتحرك من خلاله وزارة الثقافة الفلسطينية التي يتولاها ياسر عبد ربه (مع وزارة الإعلام) لكن هذه مشكلة قديمة تبرز برأسها بين وقت وآخر مع مشكلة الاتهام بالفساد وتلحق بها مشكلة انتهاكات الأجهزة الأمنية الفلسطينية لحقوق الإنسان.. الفلسطيني !

وقد اهتممت في الحقيقة بالمشكلتين الأخيرين، وسألت صديقي الهولندي والذي يعمل كمنسق خاص للأمم المتحدة - في غزة - بين السلطة الفلسطينية والدول المانحة. فهو يعرف بحكم موقعه، حجم النقود الداخلة إلى خزانة السلطة، ويراقب أيضاً بنود انفاقها.. بما فيها بناء السجون الحديثة (أي نعم !) وتدريب رجال الشرطة والأمن الفلسطيني.. وقد فضلت أن أتوجه إليه باسئلتي، متحاشياً التعامل مع الأطراف الفلسطينية المعنية.. أي تلك التي تتهم وتلك التي توجه إليها التهمة. بالنسبة للفساد قال المنسّق الهولندي :إن حكاية الملايين الضائعة من

الميزانية هي حكاية غير دقيقة، لأن الحسابات التي أجريت في هذا الشأن من جهة مستقلة بتكليف من ياسر عرفات ، حسبت الاعفاءات الجمركية على بضائع العائدين وسياراتهم و "أثبتت "أنه لو تم التعامل معها لكسبت السلطة كذا مليون..إلخ.

هو لم ينكر وجود "الفساد "لكنه وضعه في إطاره الصحيح داخل العلاقات في مجتمع عربي، تسوده الارتباطات العائلية و"القبلية" والحزبية.. خاصة أن أبو عمار لايريد أن يغضب أحداً لأنه محتاج – في معركته مع إسرائيل – لكل فلسطيني.

وبالنسبة لموضوع انتهاكات حقوق الإنسان الفلسطيني من جانب السلطة، قال إنها تقلصت إلى حد كبير.. وأضاف أنه كان – اليوم يوم سؤالي له – في اجتماع مشترك مع رجال الأمن الفلسطينيين، لمناقشة ميزانية بناء سجون حديثة "! وان موضوع الانتهاكات قد طرح بالفعل.. وأن قائد المجموعة أجاب بقوله، إنه قضى بضعة عشر عاماً في السجون الإسرائيلية، وعانى شخصياً من الانتهاكات بسبب مواقفه الوطنية، فكيف يسمح بانتهاكات لحقوق المواطن الفلسطيني مهما كانت جريمته؟..

وأضاف صديقي، أن قيادة أجهزة الأمن الفلسطيني توزع الآن على أعضائها كتيباً، توضح فيه حقوق المواطن الفلسطيني المتهم، والخطوات الواجب اتباعها معه أثناء القبض عليه والتحقيق معه.

قال لي ضاحكاً :لاتنسى إننا في الغرب نحب الحديث كثيراً عن حقوق الإنسان.. وفي الوقت نفسه نرحب بسماع هذا الحديث من هنا لأنه يرضينا.. وهكذا تم تشجيع خلق جماعات حقوق الإنسان الفلسطيني تتحدث عن الانتهاكات – والتي بالتأكيد موجود بعضها –

باللغة التي يحب الغرب سماعها.

وأضاف –مؤكداً– أن الأجهزة الإسرائيلية، تلقفت التقرير المالي، ونشرته على العالم لتثبت "فساد "السلطة، وبالتالي تتنصل من دفع الملايين التي استولت عليها بدون وجه حق كضرائب ومكوس على الفلسطينيين. و..العهدة على الراوي.. كما يقولون!

المقدمة السابقة، قد تبدو لاعلاقة لها بالثقافة بمعناها الضيق الذي يحب بعض "الموظفين الأدباء "أن يحصروها فيه.. لكن الثقافة في نظرى – ونظر الكثيرين غيري – هي أسئلة الهوية والعلاقة بالآخر وبالكون، قبل أن تكون إجابات ومواقف !

هذه هي الأرضية التي تتحرك فوقها العلاقات الإنسانية في منطقة السلطة الفلسطينية، وخارجها أيضاً. أرضية هدم القديم ومحاولة التخلص من كابوس القمع الإسرائيلي، وتوقع الكثير، والكثير جداً من السلطة الوطنية التي يفرض عليها ميكانيزمها الداخلي وتجارب الشتات:الرغبة في التسلط والقمع، مثلها، مثل غيرها!

لكن البحث عن هوية، يمتزج أيضاً بانتظار المخلّص.. هذا المخلّص الذي يتخذ اسمه اليهودي – العبري الديني "المسيا "واسمه المسيحي "المسيح "ولبعض الطوائف الإسلامية "المهدي المنتظر "و"الإمام الغائب "..الخ

لكن فكرة الانتظار، فلسفته الثيولوجية – السيسيولوجية والميثولوجية، تفرض وجودها الباهظ على المنطقة كلها، وتحول "المخلّص "من ميثولوجي إلى سياسي آني.

فعند اليهود: "المسيا "اليهودي - الملك - سيأتي، لكي يعيد بني إسرائيل من الغربة والشتات ويقيم من جديد "مملكة داؤود "
وعند المسيحيين " :المسيح "سيأتي ليحكم العالم الف سنة.. كلها خير وسلام.

حالة الانتظار الديني الإسرائيلي، وحالة الانتظار السياسي الفلسطيني، هي بالفعل حالة ثقافية لوضع ناقص، في انتظار اكتماله !

الفلسطيني، هل أتى المخلّص؟

لنرى كيف يتعامل الفلسطيني من عرب الـ ٤٨ مع حالة الانتظار..

أنقل هنا مقتطفات مطولة من شهادة راضي شحادة من كتابه الذي أشرت إليه (وهو أحد مؤسسي مسرح الحكواتي الفلسطيني.. ومسرح البلد في الجليل ومؤسس ومدير مسرح السيرة).. لأنها ستقودنا إلى فهم حالة "الانتظار "الثقافية لجزء هام من الشعب الفلسطيني، وستقودنا في الوقت نفسه لوضع "ثقافة الانتظار الإسرائيلية "في إطارها الصحيح.

يقول ":تلقينا دعوة لتقديم عروضنا المسرحية لأطفال جنوب لبنان، ليس في لبنان لكن في تل أبيب. فالمؤسسة الداعية تتولى أمر إحضارهم في الباصات المكيفة وتحضير كل شيء، وما علينا إلا أن نعرض مسرحيتنا لهم ونتقاضى بالمقابل مبلغاً مغرياً.. وتلقينا دعوة من قسم النشاطات الثقافية في بلدية القدس والذي يرأس القسم شاب عربي من الجليل بينما يرأس البلدية طبعاً يهودا أولمرت..

وتلقينا دعوة للمشاركة في فعاليات ليالي غزة ولكن إسرائيل تمنع دخول "الإسرائيليين "العرب طبعاً إلى غزة، فاليهود الأسرائيليون المستوطنون يدخلون ويخرجون متى يشاؤون.. "

ويورد المؤلف العديد من الدعوات التي تلقتها الفرقة للمشاركة في مهرجانات عالمية وعروض دولية في اليابان وأمريكا وأوربا ومصر وتونس والأردن. ويقول إن بعضهم كان يتسائل "كيف تصرفتم ?هل لبيتم جميع الدعوات. هل تم ذلك كممثلين لإسرائيل دولتكم لكونكم مواطنين فيها تعيشون ضمن حدودها، أم كممثلين لفلسطين.. وهل فلسطين التي يحلم ببنائها إخوتنا في الطرف الآخر على أقل من ثلث فلسطين الكبرى هي دولتنا العتيدة أم إسرائيل هي دولتنا "؟!

ولنعد إلى قضية الدعوات

فقد رفضت الفرقة العرض بعد أن اكتشفت أن المنظم والممول هو جيش الدفاع الإسرائيلي - اي نعم -!الجيش الذي يحتل جزء من الجنوب اللبناني (ويورد المؤلف واقعة أن فرقة مسرحية عربية أخرى انقضت - حسب تعبيره - على العرض والنقود !)

ويورد المؤلف وقائعاً عن انتقالاتهم إلى بلاد عربية مثل مصر والأردن (بعد فتح الحدود) وخاصة عندما قال قسم من الفريق للأردنيين "نحن إسرائيليون "وعندما انزعج الأردنيون قال قسم آخر "بل نحن عرب إسرائيليون. فلسطينيون إسرائيليون. عرب الـ٤٨ . عرب الداخل.. فلسطينيون.. نحن إخوتكم الفلسطينيون القاطنون في إسرائيل..سمونا ما شئتم المهم لا تزعلوا علينا.. "

ويقول شحادة، إن الموقف نفسه تكرر في مصر، وتونس والمغرب

ودول الخليج. "سافرنا إلى مصر وشاركنا في مهرجان المسرح التجريبي، باسم فلسطين طبعاً، لأن النظام المصري عقد اتفاقية صلح مع النظام الإسرائيلي، ولكن الشعب المصري يرفض استقبالنا إلا كفلسطينيين من فلسطين بالرغم من أن جوازات سفرنا وتأشيرات دخولنا إسرائيلية "

ويورد "المحاولات المستميتة "لفلسطيني الـ٤٨ في عدم الحصول على الهوية الإسرائيلية الزرقاء، قبل أن يلاحقهم القانون الذي سيثبت أن عدم امتلاكهم للهوية الإسرائيلية، يعني أنهم ليسوا من أهل البلاد وبالتالي متسللون. ويورد مأثورة إميل حبيبي في هذا الصدد "نبقى في وطننا الذي لاوطن لنا سواه "

ويسرد المؤلف بدايات تجربة الحكواتي الفلسطينية:

"وجهة نظري ليست نابعة من منطق يهودي عربي بل استقيتها من تجاربي الحياتية خلال مسيرتي الطويلة مع فرقة الحكواتي التي اعتمدت أسلوب الارتجال الكلي في إنتاج أعمالها مع مخرج فرنسي الأم، مجري يهودي الأب، فلسطيني الانتماء، وأممي التطلعات، هو فرانسوا أبو سالم، وبمشاركة ممثلة ومصممة أزياء أمريكية يهودية تقدمية هي جاكي لوبيك، ومجموعة من الشباب والصبايا الفلسطينيين "ويورد المؤلف طرفاً من " الصراع "الذي دار في الفرقة بين المخرج الذي أراد للفرقة هوية أممية، وبين افراد الفرقة الذين أردوا لها هوية فلسطينية. حتى استطاعت الفرقة بعد جهد أن تتبنى هويتها الفلسطينية الخاصة "

لقد استطردت عن قصد هنا لكي أوضح للقاريء أبعاد "الحالة الثقافية" الفلسطينية الموازية والمتقاطعة لما يطلق عليه "الثقافة الإسرائيلية"

والتي ننادي بمقاطعتها.. ونجد أنفسنا - كما قال المؤلف - نكاد أن نقاطع الثقافة الفلسطينية أيضاً.

يقول شحادة ".. وهل فلسطين التي يحلم ببنائها في الطرف الآخر على أقل من ثلث فلسطين الكبرى هي دولتنا العتيدة أم إسرائيل هي دولتنا ؟ وهل إذا أصبحت فلسطين العتيدة دولة، علينا إذا أردنا أن نكون جزءاً منها أن نحمل أمتعتنا ونترك جليلنا ومثلثنا وشاغورنا ونقبنا وقرانا ومدننا.. برضانا أو بالتهجير مرة أخرى من أجل الانضمام إليها، إلى تلك البقعة الصغيرة كالجيتو أم سنبقى في وطننا "الأصلي " الذي لاوطن لنا سواه كما يقول أميل حبيبي، ونستمتع بكوننا نحظى بدولتين ونعلن انتماءنا وولاءنا لهما :إسرائيل وفلسطين "

ولأن الدين يمثل قاسماً مشتركاً أعظم في النسيج الثقافي الإنساني وفي الثقافات المحلية، يكون من الضروري إلقاء نظرة على علاقة الدين اليهودي بالثقافة الإسرائيلية- اليهودية وتأثيره عليها.

المتأمل للثقافة الفرعونية - مثلاً- يجد أن الدين آنذاك شكّل اللحمة الأساسية فيها (قصة الصراع بين أوزير إله الخير وشقيقه ست إله الشر..الخ) وقد انحدرت هذه القصة أو على الأقل الجزء المتعلق بإيزيس الأم والإلهة، مع ابنها حورس، إلى الديانة القبطية التي ورثت الكثير من الطقوس والأساطير الفرعونية. ونحن نقول في مصر ان "الثقافة " المصرية هي التراث المتفاعل للفرعونية والقبطية والإسلامية.. للأديان الثلاثة المتداخلة في النسيج اليومي للحياة.. مثل طقوس الميلاد والوفاة والسحر وعمل الأحجبة والتطير..الخ

ولكن الديانة اليهودية لم تتفاعل مع ديانات أخرى ولهذا يبدو تأثيرها الدموي التوراتي القبلي واضحاً - بعنف -!في الثقافة الإسرائيلية التي تستقي منابعها من هذه الديانة التي يقول عنها جمال حمدان في كتابه (اليهود) "فاليهودية، وحدها بين الأديان السماوية هي التي تشترك مع كثير من الأديان غير السماوية، في أنها ديانة مقفلة ومغلقة.. أي تحجم عن التبشير وتجتر نفسها "ويؤكد حمدان أن "قد تكون اليهودية عالمية بحكم توزيعها، ولكنها في واقع الأمر أبعد شيء عن العالمية بحجمها القزمي الضئيل وبحكم أن اليهودية ديانة جغرافية (اي مرتبطة بوطن) وديانة عنصرية (اي مرتبطة بقوم أو بعنصر بعينه).."

ولأن اليهودية في الأساس ديانة طقسية اي تعتمد على الطقوس وتجد أن "الشريعة "تحتل خمسة أسفار او كتب وهي مليئة بالتفاصيل الخاصة بالمظاهر. مثلاً تجد صفحات مطولة حول ثياب الكهنة ولونها، وعن أنواع الأضاحي من الحيوان وشكلها وعمرها ومواعيد التضحية بها، وشكل المذبح، ومكانه ونوع الحطب ونوع النار ومن يدخل المذبح ومن يشعل النار..الخ.

وهي أيضاً ديانة زاخرة بتناقضات تعاليمها، لهذا نجد أن المفسرين اللاهوتيين الجدد اليهود يحاولون "تفسير "التناقض في التلمود والتوراة.. هذا التناقض الذي يفسره فريزير في كتاب (الفلكلور في التوراة) حينما يشير إلى التناقض بين قصتين للخلق في سفر التكوين.واحدة في الإصحاح الأول والثانية في الإصحاح الثاني حيث يبدأ الله في الحكاية الأولى بعملية خلق السمك، ويخلق الإنسان في اليوم السادس، اما في الحكاية الثانية فإن الله يخلق الإنسان في اليوم الأول.

يفسر فريزر هذا التناقض بقوله "ببساطة إن القصتين قد استمدهما الكاتب من مصدرين مختلفين تماماً ومستقلين أصلاً. ثم الجمع بينهما في كتاب واحد ونقلهما معاً دون أن يجهد نفسه في أن يخفف من حدة التناقض فيهما أو يوائم بينهما.فقصة الخلق في الإصحاح الأول مستمدة بما يسمونه المصدر الكهنوتي الذي ألّفه كتّاب كهنوتيون في أثناء السبي البابلي أو بعده، أما قصة الخلق في الإصحاح الثاني فمستمدة من ما يسمى المصدر اليهودي الذي ألّف قبل المصدر الكهنوتي بمئات السنين. أي فيما يبدو في القرن التاسع أو الثامن قبل الميلاد."

المفسرون اليهود والحاخامات يعطون "تفسيراً "مختلفاً للتناقض ففي دراسة للبروفيسور دافيد سبيرلنج، أستاذ دراسات التوراة، الجامعة العبرية، نيو يورك، والدراسة بعنوان "هل يوجد تناقض في التوراة ؟ ".. يقول "الكتب الخمسة التي لموسى، هي رسالة مقدسة، لايمكن فهمها إلا في ضوء دراسة التلمود.كل من الكتب الخمسة والتلمود، قد تم نقلها و تحويلها لموسى ؛ حينا كان على جبل سيناء. وفي الأصل لم يكتب التلمود، لكن تم حفظه عن ظهر قلب، ونقل شفاهياً من الأباء للأبناء ومن الحاخام إلى التلميذ الدارس.لكن بعد ذلك تمت كتابته وسمي التلمود. الاثنان يطلق عليهما اسم التوراة "

ويضيف سبيرلنج "حينما يقرأ الواحد كتب موسى الخمسة، ويحلل بدقة كل أجزائها سيكتشف قدراً من التناقض، ولكنها ليست أخطاء كتابية !إنها تناقضات لكي تعلمنا دروساً بالغة الأهمية "

ويضرب مثلاً حول النص القائل "إن الله لن يعاقب الابناء بسبب ذنوب الأباء "ويقارنه بالنص الآخر الذي ينص على "أن الله يعاقب

الابناء يسبب ذنوب الأباء "يقول "إن التلمود يفسر كل التناقضات الموجودة في التوراة "ويخلص أن التوراة "ليس كتاباً تاريخياً. هدف التوراة هو نقل مباديء الإيمان اليهودي كتابة.. وإن من يقرأ التوراة بهدف معرفة التاريخ يرتكب خطأ؛ فالله أعطى التوراة، لكي يكتشف الإنسان معنى لحياته "

ولتبيان أهمية "التدين "في إسرائيل، فمن الضروري إلقاء نظرة متأنية عليه في القدس (حيث يتركّز المتدينون المتعصبون) وتأثيره المتزايد في الحياة اليومية، وفي القرارات السياسية. لهذا ذهبنا نبحث عنهم في أماكن تواجدهم. قررنا الذهاب إلى الحي الخاص الذي يسكنه المتشددون دينياً.وقد نجحوا في إغلاق هذا الحي عليهم (تطبيقاً عكسياً للجيتو، حينما كانت السلطات المسيحية في الغرب تفرض عليهم السكنى في حي معين) وهرب الإسرائيليون الآخرون من الحي نتيجة العدوان الملحوظ على اليهود الآخرين الذين "لايقدسون "السبت، أو يرتدون ثياباً غير لائقة من وجهة نظرهم!.. الخ فهاجر هؤلاء من الحي وتركوه لهم..

تجولنا في هذا الحي الذي تبدو عليه مظاهر الفقر، والسبب - حينما سألت - هو أن معظم سكآن الحي لا يعملون، بل يأخذون معونة دائمة من الدولة.لماذا؟ لأنهم يدرسون التوراة طوال حياتهم !ولماذا أيضاً ?لأنه طبقاً للتعاليم الدينية، لابد من وجود أشخاص يقومون بالدراسة الدينية والعبادة نيابة عن الشعب كله، وإلا أصاب الشعب غضب الرب ومقته !

في هذا الحي كان "الدارسون "وهم من أعمار مختلفة من سن الصبا حتى الشيخوخة يرتدون "الأفود "بالشكل الذي نص عليه كتاب

الشريعة في سفر الخروج. الأقل تشدداً يرتدون الثياب السوداء الغربية الطراز. الأكثر تشدداً يرتدون الثياب السوداء الشرقية الطراز.. اي الجبة.. والمنصوص على شكلها وتفصيلاتها أيضاً في التوراة، مع إطلاق شعر العارضين وتضفيره في ضفيرتين تنسدلان على السالفين (لا أعلم إذا كان هذا من المنصوص عليه أم لا!)..أما الفتيات والنساء فيرتدين الفساتين (وليس البنطال الجينز او غيره. حرام. يصل ذيل الفستان إلى الكعب، وأردانه إلى الرسغين، ويغطي الرقبة) فستان واسع لايكشف عما تحته، بالإضافة إلى منديل أو إيشارب كالح اللون على الرأس. طبعاً الفستان وملحقاته من الألوان الوقورة.

في هذا الحي يعيش حوالي ثلاثون بالمائة من سكان القدس اليهود.. شوارع الحي، ضيقة، متعرجة، كئيبة ! أنت طوال الوقت تحس بصدمة في عينيك من الملابس السوداء، واللحى المرسلة (مع ضفائر السالفين!) والفساتين الكالحة للصبايا.هذا الحي ينتج جزءاً هاماً من الثقافة اليهودية الإسرائيلية بمفهومها الأوسع : النظرة الكلية للعالم والكون.. والنظرة التفصيلية للآخر.. يهودياً كان أم غير يهودي. هذه ثقافة حارة اليهود بمعناها الدقيق.ثقافة الغيتو الانعزالي،والمتعالي والممسك وحده "بالحقيقة في يده "ثقافة الشعب المختار وثقافة أرض إسرائيل وثقافة التوراة والتلمود. بل إن هذه "الحارة "تغلق على نفسها المنافذ منذ غروب الشمس يوم الجمعة حتى غروبها يوم السبت، وتمنع المرور والحركة في الحي ومنه وإليه! ومن يتجرأ يتم رجمه بالأحجار - حسب الأصول-!..

إن العقلية المسيطرة على هذا الحي تؤمن بثقافة العنف والتميز العرقي - الديني التي تؤكدها التوراة في أكثر من موضع.

"متى أتى بك الرب إلهك إلى الأرض التي أنت داخل إليها لتمتلكها وطرد شعوباً كثيرة من أمامك، ودفعهم الرب إلهك أمامك وضربتهم، فإنك تحرّمهم. لاتقطع لهم عهداً ولا تشفق عليهم ولا تصاهرهم. بنتك لاتعط لابنه، وبنته لاتأخذ لابنك. ولكن هذا تفعلون بهم. تهدّمون مذابحهم وتكّسرون أنصابهم وتقطعون سواريهم وتحرقون تماثيلهم بالنار. إياك قد اختار الرب لتكون له شعباً أخص من جميع الشعوب على وجه الأرض "(التثنية -٧)

وفي موضع آخر "فأخذ يشوع بن نون كل مدن اولئك الملوك وجميع ملوكها وضربهم بحد السيف. حرّمهم كما أمر موسى .وكل غنيمة تلك المدن من البهائم نهبها بنو إسرائيل لأنفسهم، وأما الرجال فضربوهم جميعاً بحد السيف حتى أبادوهم .لم يبقوا نسمة. ما أمر الرب موسى عبده.. "(يشوع -١١)

هل لاحظتم كلمة "نهبها "؟!وكيف اتخذت معنى مقدساً ؟ثمة تحليل خاطيء يقول إن ميليشيات الآرجون والهاجناه.. وجيش الدفاع الإسرائيلي "وريثهما وامتدادهما "قام بارتكاب التصفيات العرقية والمذابح نتيجة لما قام به النازي ضد اليهود.. الخطأ هنا اعتبار ما تم ارتكابه من جرائم ضد الشعب الفلسطيني، والشعوب العربية (هل نذكر جريمة قتل الأسرى المصريين في حرب ال٦٧ ؟) ليس رد فعل، وليس خوفاً أو حماقة أو انتهاكاً غير مقصود لمواثيق دولية إنه ببساطة - مفزعة - التنفيذ الحرفي "لأوامر الإلاهية "

هل رجل السياسة الإسرائيلي يؤمن بهذا ؟ هل القائد العسكري الرفيع الرتبة يؤمن بهذا ؟

الإجابة صعبة. لكن المؤكد أن الحالة الثقافية للمقاتل الإسرائيلي متأثرة بشكل قوي بالتعاليم الدينية، التي لايراها اليهودي مجرد تعاليم دينية، بل "مواثيق إلاهية "بين اليهودي، و"ربه "منذ آلاف السنين،وتوغلت داخله لتصبح جزءاً هاماً من نسيج حياته اليومي.

وقد رأيت المجندين والمجندات يهرعون إلى "الحائط "ويؤدون قسم الولاء هناك. رأيت المجندين، وقد وضعوا على رؤوسهم غطاء الرأس الديني ووقفوا بسلاحهم أمام الحائط يبتهلون إلى "رب الجنود "القائد الأعلى لجيش إسرائيل الذي أعلن ليشوع بن نون القائد الدموي "ولما كان يشوع عند أريحا رأى رجلاً واقفاً قبالته وفي يده سيف مسلول. قال الرجل ليشوع :أنا رئيس جند الرب. وها أنا الآن جئت لخدمتك.. إخلع نعليك من رجليك لأن الموضع الذي أنت فيه مقدس "(يشوع ٥-)

الظاهرة التي تبدو غريبة التي رأيتها في تجوالي - بعيداً عن الأعين السياحية في القدس - في المدن البعيدة مثل صفد، وقيصرونه مثلا.. ظاهرة تحويل المساجد إلى معرض فني كما في صفد، أو شوبنج سنتر كما في قيصرية..هذه ظاهرة ثقافية، نابعة من "تعاليم موسى "التي تمت كتابتها بعد وفاته بفترة طويلة كما يقول البروفيسورسبيرنج.

يقول رب الجنود ليشوع "تقضي على جميع الشعوب الذين بسلمهم الرب إلهك إليك. لاتشفق عليهم ولاتعبد آلهتهم "(يشوع ٧) أما جون فريزر فيقول مفسراً هذا السلوك "فالسؤال عن صحة المعتقدات وأنماط السلوك الإنساني من الصعب فصله عن محاولة معرفة أصولها "وهو يقصد هنا الأصول الوثنية البدائية القديمة من قتل الأسرى وتقديمهم قرباناً للآلهة.

ويقول في موضع آخر.. "إن الكاتب المتأخر أو الكهنوتي يصور الإله في صورة مجردة، أما الكاتب المتقدم، أو اليهودي فقد صور الإله في صورة حسية، فهو يتصرف ويتكلم على نحو ما يفعل الإنسان "

* * *

وإذا تركنا "الدين والتدين "مؤقتاً ورجعنا إلى ركيزة هامة في حياة البشر، وهي اللغة فسنجد ضالتنا في الدراسة القيمة، التي أنتجتها أكاديمية العلوم في الإتحاد السوفياتي – معهدالاستشراق بعنوان "دراسات في تاريخ الثقافة العربية في القرون ٥ – ١٥ ترجمة الدكتور أيمن ابو شعر ونشر دار التقدم،موسكو ١٩٨٩ "

يقدم الكتاب نظرية علاقة اللغة بالثقافة ويقول "تدخل اللغة طبقاً لإحدى وجهات النظر المعتمدة في العلم السوفيتي في تركيب الثقافة كأحد عناصرها المكونة، إذن فخاصية اللغة، لابد وأن توجد من كل بد في وصف أية ثقافة، واللغة شيء ما أكثر من مجرد أحد عناصر هذا المركب الذي جرى التعارف على تسميته بـ(ثقافة).. "

وقبل ذلك، أي في عام ١٩٤٥ وهي السنة التي صدر فيها العدد الأول من مجلة "الكاتب المصري "التي ساهم د. طه حسين في تأسيسها ورأس تحريرها، يكتب طه حسين الافتتاحية بعنوان "الأدب العربي بين أمسه وغده "عن العلاقة – ايضاً - !بين اللغة العربية والأدب العربي.." الظاهرة التي يمتاز بها أدبنا العربي عن غيره، هي أنه قديم جداً، وحديث جداً، قد اتصل قديمه بحديثه اتصالا مستقيماً لا انقطاع فيه ولا إلتواء..

فلغته المعربة الفصحى مقوم أساسي من مقوماته، أو هي المقوم الأساسي الأول بين مقوماته.. وليس أدل على ذلك أن العرب في جميع عصورهم، لم يعنوا بشيء قط عنايتهم بفصاحة اللفظ وجزالته ورقيق الأسلوب ورصانته.."

ومثلما أشرت سابقاً فقد تم "بعث "اللغة العبرية بعد حوالي عشرين قرناً من اندثارها لتكون "رابطة العقد "بجوار الدين وعسكرة الشعب في دولة إسرائيل، بينما بقيت العربية متواصلة "بلا انقطاع ولا إلتواء " مع الأدب وتطورت بشكل جدلي مع الفتوحات العربية – الإسلامية، في حين أن يهود الشتات، اضطروا لاستخدام لغات الشعوب والبلاد التي نزحوا إليها، وأصبحت هي اللغة الأم للأجيال اللاحقة، كما يقول الكاتب اليهودي – العراقي المقيم الآن في إسرائيل سامي ميخائيل " :بعد قدومي إلى إسرائيل كنت أقرأ بالإنجليزية،وأتحدث بالعبرية، واكتب بالعربية "

فالجماعات اليهودية المهاجرة إلى إسرائيل من بلاد مختلفة – وأكبرها الجماعتين الروسية والأوكرانية – تتحدث بلغتها الخاصة. سبع دوريات وصحف باللغة الروسية، ومحطتان إذاعيتان، وقناة تلفزيونية بل لهم سبعة مقاعد في الكنيست !

الإسرائيليون العرب كما رأينا في شهادة راضي شحادة لهم مسرحهم العربي وصحفهم ومجلاتهم وكتّبهم ومبدعيهم مثل إميل حبيبي وتوفيق زياد وسميح القاسم ومحمود درويش.بل ولهم أيضاً ممثليهم في الكنيست.

هناك وزارة إسرائيلية اسمها "وزارة الاستيعاب " مهمتها الأساسية أن "تستوعب "المهاجرين.. أن "تعلمّهم " لغة الدولة لغة الدين الرسمي

للدولة (الدينية !) وبالطبع التعاليم والنصوص والطقوس..الخ هذا بينما بقيت لغة العرب الإسرائيلين رغم هزيمتهم ومحاولة الدولة أن تفقدهم الصلة بماضيهم.. بقيت اللغة متواصلة في أدبه "القديم جداً، الحديث جداً "

بالطبع يكون من التجني، والاستسهال إعلان "عدم وجود ثقافة إسرائيلية تنطبق عليها شروط ديمومة اللغة وتطورها "فالثقافة في مفهومها الشامل هي النظرة المتكاملة للعالم والكون وللآخر أيضاً، وتأثرها وتأثيرها مع الثقافات الإنسانية الأخرى بالسلب أو الإيجاب.

من السهل فقط أن يضع الباحث إصبعه على العمود الفقري "الثقافة الإسرائيلية "وتأثرها بالإسطوري -الديني وذلك بتتبع صعود وانهيار قبائل إسرائيل من خلال التاريخ الحقيقي والأسطوري التوراتي ايضاً.

يقول فريزير في كتابه (الفلكلور في العهد القديم)..

"إن كاتب التوراة الكهنوتي يكتب تاريخاً "مقدساً "وكهنوتياً أكثر منه دنيوياً، ذلك أنه يهتم بإسرائيل بوصفها أمة دينية، لا بوصفها دولة، فقد ولى آنذاك عصر إسرائيل الذهبي، وانتهى استقلالها وآمالها في الرخاء الدنيوي بتأثير واقع الحكم الأجنبي الكئيب.وإذا كانت أبواب الأرض قد أغلقت فإن ابواب السماء كانت لاتزال مفتوحة في مقابل المذلة، ولذلك أحكموا وضع نظام من الطقوس الدينية يستهدف احتكار الرحمة الإلهية والاستئثار بها.. وحل الكاهن الأكبر محل الملك. وتيار الطموح الديني هذا الذي أسس حركة فكرية اتجهت بعنف وجهة كهنوتية مما أدى إلى انعكاس ذلك على المباديء الفكرية والأخلاقية. فهو لم يهتم إلا بالجانب الشكلي للدين.. تفاصيل الطقوس، والأثاث والملابس الدينية

والاحتفالات.أما الجانب العميق من الدين فهو بالنسبة له كتاب مغلق "

هذه النظرة الضيقة للكون والعالم والآخر شكلّت الجانب الأساسي من الثقافة الإسرائيلية. ولأنه دين مغلق، فيكون نتاجه الثقافي والإنساني، محدوداً ومغلقاً على نفسه ايضاً.

إنها ثقافة الجيتو.. ثقافة حارة اليهود !

يبقى السؤال الذي طرحه شحادة نيابة عن بضعة ملايين فلسطيني من عرب الـ٤٨ . سؤال الهوية، وبالتالي سؤال الانتماء.

المأزق الإسرائيلي الذي نجم عن ضرورة مواجهة هذا السؤال يعيد النظر في "مرجعيته "خلال قعقعة سيوف الاتهام والتكفير مثلما أعلن الكاتب أهرون ميغيد الذي يندب مصير "كل الصياغات الجميلة التي هللنا لها بحسن نية وتثقفنا عليها نحن وذريتنا على مدار جيلين - ثلاثة أجيال (تخليص الأرض، واحتلال العمل وجمع الشتات والدفاع).. تلك الصياغات التي أضحى التعرض لها الآن، يتم من باب اعتبارها ضرباً من الرياء وذر الرماد في العيون"

يقول شحادة "وإذا كانت مشكلة المسرح مادية، فكيف تستطيع أن تأخذ من خبز السلطان (وخبزه في الأصل هو خبزك) دون أن تضرب بسيفه، وأنت تعرف أن سيفه مسلط ضد نفسك، ضد شعبك ?كيف يعطيك وهو يعرف أنك لن تستغل ما أخذته من خبزه لتخدمه فيه ?"

ويضيف "المسرح ليس مجالاً مفصولا عن أي مجال من مجالات الحياة، إنه جزء مرتبط بكياننا، وهويتنا، وواقعنا، بحضارتنا ببرنامج حياتنا

اليومـية، فكيف نستطيع أن نفـصله كوحدة قائـمة بذاتها، بدون أن نعتـبره أكبر مصدر للتساؤلات الكبيرة لسبب وجودنا "

على الأقل الفلسطينيـون هناك يطرحون الأسـئلة مهـما كـانت مؤلمة..
وهذا أعظم الإيمان .!



ها أنا ذا في المدينة الأشهر . . في القدس حيث المسجد الأقصى ومسجد قبة الصخرة . . سأزورهما اليوم ، ثم أعرج إلى كنيسة القيامة حيث قبر المسيح ولقد دخلت إلى القدس ، من باب دمشق . . وسأذهب بعد ذلك إلى غزة لأرى العلم الفلسطيني يرفرف للمرة الأولى منذ سنوات طويلة على أرض فلسطينية . .

MADBOULI BOOKSHOP

مكتبة مدبولى

6 Talat Harb SQ. Tel.: 5756421

٦ ميدان طلعت حرب - القاهرة - ت : ٥٧٥٦٤٢١